سلسلة الآثـار الكاملـة ـ ٢٤ـ

الحسين وارث آدم

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة ودراسة وتعليق

د. إبراهيم دسوقي شتا

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

الحسين وارث آدم

إسم الكتـاب : الحسين وارث آدم

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

دراسة وترجمة: د. إبراهيم دسوقي شتا

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-11-1

الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافة الحقوق محفوظة ومُسجّلة قانونياً للناشر بالإتفاق مع ورثة المُؤلف

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579

دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

سري جداً

الرقم: ١ من ٦ نسخ
١ ـ إلى: ٣١٤
٢ ـ من: ٦ و١
٣ ـ رقم التقرير: ٩٦٨٦/ هـ١
٤ ـ تاريخ التقرير:[١] ٢/٦/٢٥٣٦
٥ ـ الملحقات: ـ
٦ ـ مستلمي الخبر: ـ

٧ ـ المصدر: ١٣٥١٨
٨ ـ المنشأ: ـ
٩ ـ تاريخ وقوعه: أخيراً
١٠ ـ تاريخ وصوله إلى المصدر: أخيراً
١١ تاريخ وصول الخبر إلى قائد عمليات المنطقة: ٢٥٣٦/٥/١٧
١٢ ـ ملاحظات أمنية:

الموضوع: الدكتور علي شريعتي عطفاً على/ الحاقاً بـ

أخيراً قام الحاج السيد مصطفىٰ الخميني إبن الخميني المعروف برفقة الإمام موسىٰ الصدر رئيس المجلس الشيعي في لبنان مع خمسة من الطلبة الجامعيين الإيرانيين المقيمين في ألمانيا بالسفر إلىٰ العراق، وقد شوهدوا في المنطقة الزينبية بالشام وهم يقرأون الفاتحة عند مقبرة الدكتور علي شريعتي.

تعليق السبت ـ لم تعرف أسماء الطلبة الإيرانيين.

تعليق الأحد ـ بما أن السبت مطّلع لذا فإنّ الخبر صحيح.

تعليق هـ ١٦[١] ـ أؤيد تعليق الأحد.

١١٣٠ ٢٥٣٦/٦/٥

٣١٢

يلحق مع التقرير اليومي

(١) التاريخ المذكور هو السنة الشاهنشاهية (المترجم).

(٢) السبت والأحد وهـ ١٦ هي إسم المخبر والمسؤول عنه ومسؤول منطقة الشام (المترجم).

النص الفارسي

شماره ... از ... نسخه

۱ ـ به ۱۲۳م

۲ ـ از ۲۰ هـ ۱

۳ ـ شماره گزارش ۱۵۹۸۶

۴ ـ تاریخ گزارش

۵ ـ پیوست

۶ ـ گیرندگان خبر

۸ ـ منبع

۹ ـ تاریخ وقوع اخیرا

۱۰ ـ تاریخ رسیدن خبر به منبع اخیرا

۱۱ ـ تاریخ رسیدن خبر برهبر عملیات

محل ۳۶/۵/۲۴

۱۲ ـ ملاحظات حفاظتی

موضوع دکتر علی شریعتی

عطف / پیرو

اخیرا" حاج اقا مصطفی خمینی فرزند خمینی معروف باتفاق امام موسی صدر رئیس مجلس ملی لبنان و پنج نفر از دانشجویان ایران مقیم آلمان به عراق مسافرت و بمنظور خواندن فاتحه کنار مقبره دکتر علی شریعتی در زینبیه شام مشاهده گردیده اند .

نظریه شنبه ـ دانشجویان ایرانی بنام شناخته نشده اند .

نظریه یکشنبه ـ باتوجه بدسترس شنبه مفاد خبر صحت دارد .

نظریه هـ ۱٦ ـ نظریه یکشنبه مورد تایید است .

طبقه بندی حفاظتی

۵۲-۱۲۱

إحدى وثائق جهاز الاستخبارات الإيراني أيام الشاه (السافاك)

شريعتي في آراء المفكرين

في متاريس (تل مسعود)[١] لم أحمل معي سوى كتاب (الصحراء)

(الدكتور الشهيد مصطفى شمران)[٢]

يا علي! لعلك تعجب عندما أقول لك أني ذهبت خلال

---

(١) تلة مسعود تقع في أعالي مدينة بنت جبيل ـ جنوب لبنان ـ حيث كان يرابط الشهيد الدكتور مصطفى شمران مع إخوانه في مواجهة العدو الصهيوني، وخاضوا في هذا المكان «تلّة مسعود» مواجهات ضارية مع العدوّ الصهيوني ثبت فيها المجاهدون ثباتاً منقطع النظير، وهزم العدوّ حينها شرّ هزيمة. (الناشر).

(٢) بعد إنتفاضة الشعب الإيراني المسلم في (٥/٦/١٩٦٣م)، ذهب الشهيد مصطفى شمران(ره) إلى مصر (في عهد الرئيس جمال عبد الناصر) لتلقّي تدريبات على حرب العصابات، وبعد إنهائه لتلك الدورة التدريبية أخذ على عاتقه تدريب المجاهدين الإيرانيين خارج البلاد. ونظراً للموقع الاجتماعي الذي يتميز به لبنان، فقد وجد في جنوب لبنان منطقة مناسبة لنشاطاته والتي شارك فيها العديد من قادة ورجال الثورة ومنهم نجل الإمام الخميني(رض) السيّد أحمد الخميني(رحمه الله)، وتمكن مع الإمام الصدر (أعاده الله) من تأسيس «حركة المحرومين» والتي سمّيت فيما بعد بـ«حركة أمل».

عاد إلى إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية، فوضع حجر الأساس لمؤسسة حرس الثورة الإسلامية من خلال تدريب أول مجموعة من الحرس. كما انبرى عن طريق تولي منصب مساعد رئيس الوزراء لشؤون الثورة، لحل المشاكل التي كانت تواجه=

الأسبوع الماضي إلىٰ محور المواجهة[1] في (بنت جبيل) وبقيت عدة أيام في المواقع الأمامية في (تل مسعود) قضيتها بين المقاتلين، ولم أحمل معي هناك سوىٰ كتاب واحد، وهو كتابك (الصحراء) الصحراء التي وجدتها دنياً مليئة بالمغنىٰ والغنىٰ، صحراء نقلتني إلى السماوات وجعلتني أتصل بالأزل والأبد، صحراء سمعت فيها نداء العدم، وجعلتني أهدأ من ضغط وجودي، وأحلق إلىٰ ملكوت السماوات، لأبلغ درجة الوحدة في عالم وحدتي. . .

يا علي! إن المتدينين المتعصبين والجهلة سحقوك بحربة التفكير، ولم يتورعوا عن أي عداء وإتهام، والمتغرّبون الذين يسمّون أنفسهم زوراً بالمفكرين اتهموك بالرجعية، ووجهوا لك الإهانات، ونظام الشاه الذي لم يستطع تحملك، ووجد أن توقّدك يعارض مصالحه فكبّلك بالسلاسل ثم قتلك.

أحد الماركسيين المتظاهرين بالثورية قال في جماعة من

= النظام الإسلامي. عيّنه الإمام الخميني شخصياً وزيراً للدفاع.
إنتخب نائباً عن طهران في إنتخابات أول دولة لمجلس الشورى الإسلامي، ثم عيّنه الإمام الخميني ممثلاً عنه في مجلس الدفاع الأعلى.
وقام بتأسيس قيادة حرب العصابات في مدينة الأهواز عند بدء الحرب مع العراق، جرح في ميدان الحرب عام ١٩٨٠م، ثم عاد الى الجبهات بعد شفائه.
استشهد في ٢١ حزيران عام ١٩٨١م عند إصابته بشظية قذيفة مدفعية في جبهة الحرب بمنطقة الدهلاوية. (الناشر).

(١) المواجهة مع الصهاينة المعتدين، حيث كانت اسرائيل تشن اعتداءات يومية طمعاً في تهجير أهالي المنطقة ومصادرة أراضيهم (المترجم).

أصدقائه في أوروبا: أن الدكتور علي شريعتي قد أخّر الثورة الشيوعية الإيرانية (٧٠) عاماً.

وأنا أقول: إن الدكتور علي شريعتي قد دفع بالمسيرة التكاملية للجهاد في سبيل الحق والعدل (٧٠) عاماً إلى الأمام.

يا علي! إن ذكراك واسمك وأقوالك وأفكارك كلها عندي نوع من صلاة، تقربني إلى الله أكثر فأكثر، يا علي! إنك حاضر في كل صلواتنا المخلصة، وترافقنا في كل تحليقنا نحو السماء، إنك شاهد وشهيد علىٰ كل المجاهدين الذين نالوا بفخر الشهادة في طريق الحق...

... وأنت أيها الرب الكبير قد منحتنا (علي) لتعلمنا طريق العشق والفداء وطريقته، ليحترق كالشمع وينير لنا الدرب، وها نحن نقدمه لك كأفضل هدية ليستقر عندك ويبدأ حياته الخالدة في ملكوتك الأعلى.

قسماً بالعدل والعدالة، أنك ـ علي شريعتي ـ كالموج المتلاطم تغلي في نداءات المظلومين ضد الظالمين ما دام الظلم والإضطهاد يُثقل كاهل البشر[١].

* * *

(١) من كلمة الدكتور مصطفىٰ شمران عند دفن الدكتور شريعتي.

ملامح الدكتور شريعتي

الأستاذ فخر الدين الحجازي(١)

في اللحظة الأولىٰ وقع نظري علىٰ حذائه البسيط، وارتفع نظري متأملاً إياه عالياً حتى بلغ وجهه، فوجدت علىٰ وجهه لون سنابل قمح (مزينان)(٢) الباسقة تحت لهيب شمس الصحراء، عيناه نصف مفتوحتان، وتحكيان عن أسرار كثيرة، كنجوم سماء قرية (كهك) التي تطوي طريق (مكة) وتغسل وجهها في (زمزم)، جبهته كانت طويلة جداً حتى أنها امتدت إلى مؤخرة رأسه! وتحتها دماغ كبير، دماغ انتجته الأفكار، ويدير عجلة حركة الأمة.

هذا اللقاء كان في تموز عام ١٩٥٢م في مقر حزب الشعب الإيراني بمشهد، فالتقت نفسي بروحه العظيمة، واستمر الإتحاد حتى يوم استشهاده.

---

(١) نائب طهران في مجلس الشورىٰ الإسلامي، خطيب مفوّه، استاذ جامعة، صديق الدكتور شريعتي. (المترجم).

(٢) مسقط رأس الدكتور الشهيد (المترجم)

كنت حينها أقطن في (سبزوار) وكانت الحركة الوطنية في أوجها، وكنت أطبع صحيفة (تجلي الحقيقة) في مطبعة صغيرة بسبزوار بألف مشكلة تواجهني، ولأني لم أكن قد بلغت السن القانوني، لذلك حصلت علىٰ الامتياز باسم والدي، وكنت أدعم الحركة الوطنية، حتى حلَّ يوم ١٩/ آب، فصادروا حياتي وراحتي، ففررت إلىٰ الصحاري ليلاً، وسرت علىٰ أقدامي عدة أيام حتى وصلت مدينة (مشهد)[١] وبقيت فيها متخفياً لمدة، وكانت مصيبتي تلك سبباً في سعادتي بالقرب من الدكتور، حيث قضينا أكثر الأيام والليالي سوياً، فلم يتركني، واتفقنا أن ننظم حوارنا بشعر ارتجالي.

لقد كان معلماً عادياً في مدرسة (أحمد آباد) إحدىٰ ضواحي مدينة (مشهد) وكنت قد بدأت بدوري في التعليم، إلى أن افتتحت كلية الآداب، فانتسبنا إليها سوياً، ولأني كنت أعزباً وقد استأجرت بيتاً، كان بيتي مكان أمن وهدوء لمطالعته، كان يأتي ويتناول البطاطا التي أعدّها في البيت وينشغل بالمطالعة، فينتصف الليل وهو يقظ ولا يدعني أنام، وعندما استيقظ صباحاً للصلاة أجده ما زال مستيقظاً منكباً علىٰ مطالعة الكتب، عندها أحسست أننا وإن كنّا سوياً، لكنه آخذ بالإبتعاد عنّي والتألّق.

في تلك الأيام كان يجري نقاشاً وبحوثاً علمية وفلسفية مع

---

(١) في خراسان وسميت مشهد لوجود مشهد الإمام الرضا علي بن موسىٰ عليه السلام فيها. (المترجم).

الأصدقاء، ويُدرّس رفاقه في السياسة درس العقيدة، ويتحدث عن المادة والتضاد والفيزياء والميتافيزيقيا، ويصل لقاءات الليل بالصباح.

حرّر حينها كراس (الرسالة الوسط) وترجم (رسالة الشيخ كاشف الغطاء إلى الإتحاد الأمريكي للشرق الأوسط) ثم ترجم أخيراً كتاب (أبو ذر) القيّم لجودت السحار من اللغة العربية إلى الفارسية، وكنت أرافقه بعض الأحيان لتعلم اللغة العربية والقرآن من استاذه ووالده.

كان الدكتور في الجامعة معرضاً لحسد وحنق الأساتذة، لأنه كان يفهم أكثر منهم رغم أنهم كانوا حائزين علىٰ الدكتوراه، وكان يتغلب عليهم أحياناً.

كنّا حينها نكتب سوياً المقالات، وتطبع في صحف (محافظة خراسان) لكن كتاباته كانت ناضجة أكثر وأجمل.

نشط في حركة المقاومة الوطنية، وفي الذكرىٰ السنوية للحادي والعشرين من تموز تحوّل بيتي إلى غرفة عمليات لأنه كان نائياً وغير معروف. قام الشباب بإحراق بوابة السفارة البريطانية، وجرت تظاهرات في السوق، وقامت الشرطة بقمع التظاهرات وسحقها دون رحمة.

وكان الدكتور يحب البطيخ الأحمر وسجائر (هما)[١] وفي

(١) سجائر وطنية إيرانية، و(هُما) هو اسم طائر اسطوري (المترجم).

يوم زواجي سمعت أصواتاً مرتفعة تصدر من الأزقة المعرجة قربنا، وقد تصاعدت أصوات الشباب وضحكاتهم، وإذا بي أرىٰ الدكتور يدفع عربة يدوية قد ملأها بالبطيخ وعدة علب سجائر (هما) قد أتاني بها كهدية زواج.

أطروحته في الكلية حسب وصية المرحوم (فياض) كانت ترجمة كتاب نقد عربي، نال عليها المرتبة الأولىٰ في الكلية، وبين تجاذب شديد بن المسؤولين استطاع أن يحصل على منحة من الحكومة للذهاب إلىٰ (باريس)، وقبل أن يغادر إلىٰ (باريس) اقتادوه مع والده وبعض أصدقائه إلىٰ سجن (قزل قلعه) في طهران.

رزق بأطفال، وكان يحب (إحسان) كثيراً، ويمسكه بشفتيه ويقبله ويقول: أنت روحي يا معجزة مزينان.

أخيراً ذهب إلىٰ باريس واصطحبهم معه، وبدأ هناك حياة التحقيق والبحث في غرفة ضيقة ومظلمة، ودرس علم الاجتماع الديني وتحليل التاريخ في جامعة (السوربون) وكان يمارس نشاطات سياسية وعلمية أخرىٰ إلى جانب دراسته، ولم تمض عليه مدة حتىٰ اتقن اللغة الفرنسية إلىٰ درجة مكّنته من ترجمة كتاب (الدعاء لأكسيس كارل) إلى الفارسية، وطبع في إيران.

وانقطع عن (الجبهة الوطنية) وكان يقول: إن الدكتور مصدق قد أفرغ آخر رصاصات الرحمة في رؤوس أعوانه اللاأوفياء.

وعندما توفيت والدته في (مشهد) كلفني بإلقاء كلمة في مجلس الفاتحة، حيث حضر المجلس محافظ خراسان، وقد أغاظه

كلامي الحاد، وكان يحمل أحقاداً عليَّ من قبل، فنفاني إلى محافظة (غيلان)[١] وجاء الدكتور إلىٰ إيران لحضور مراسم عزاء والدته، لكنه لم يكن (علي) السابق، بل كان متوهجاً قد بلغ الأوج، ولم نعد نجرأ على ممازحته. ثم عاد إلىٰ باريس، ونشط في التحقيق حتى لفت انتباه أساتذته، فساهم مع (البروفسور ماسينيون) في تأليف كتاب (فاطمة) و(المنصور الحلاج) وأثّر في روحية الأستاذ (غرويتش) اليهودي إلىٰ درجة دفعته أن يصدر بياناً يؤيد فيه (الفلسطينيين) ويهاجم فيه (إسرائيل) وكانت له مراسلات علمية وعلاقات صداقة مع (فرانتس فانون) وقدم خدمات جليلة لثورتي فلسطين والجزائر، وكان صديقاً مقرباً لوزير خارجية الجزائر[٢].

والده كان يترقب عودة (علي) وكان (علي) يقول سآتي ولم يأتِ، حتىٰ جاء مع أسرته إلىٰ (إيران) براً، فاعتقلوه عند الحدود، وجاءوا به إلىٰ (طهران) وأودعوه السجن، فتأثر والده لذلك، وكان والدي صديق لعلي ووالده، فأخذته إلى الأستاذ ليسكّن اضطرابه النفسي. وكان أهالي (سبزوار) يتحدثون عن كرامات لوالدي ويقولون أن تفأله واستخارته بالقرآن صائبة دوماً. ففتح والدي القرآن متفألاً وقال: سيطلق سراح (علي) بعد إحدىٰ عشر يوماً. لكن اليوم الحادي عشر أتىٰ ولم يأتِ (علي) فقال والدي: إنه أمر غير ممكن. وفي اليوم التالي أتصل بي الأستاذ وقال لي: قل

---

(١) محافظة شمالية تقع إلى جانب محافظة مازندران (المترجم).

(٢) الرئيس الحالي للجزائر، عبد العزيز بوتفليقة.

لوالدك أن علي قد أطلق سراحه بالأمس.

قمنا بترتيب استقبال لائق به عند محطة القطار، لكنه جاء مرتدياً قميصاً وبنطالاً عاديين، ويتحدث بلهجة أهل (سبزوار) وبلحن أهل (مشهد) فلم يصدّق أحد أنه أصبح دكتوراً محققاً. فعينوه مدرساً في ثانوية (ملكي) وكنت بدوري مديراً للمدرسة وأرادوا تحطيم شخصيته فنقلوه إلىٰ مدرسة (طرقبة)[1] في ضواحي مشهد، واضطر للذهاب إلىٰ (طهران) وخرج منها منتصراً من الامتحان الصعب الذي نصبوه له ليصبح استاذاً مساعداً في الجامعة.

وعاد إلىٰ مشهد ليدرّس في كلية الآداب، وكان يتبع أسلوب الصداقة مع الطلاب، ويجلس معهم في مقهىٰ الكلية ليحتسوا الشاي. وكان درسه مفيداً جداً إلىٰ حد أن طلابه كانوا يتابعون الدرس معه حتى الغروب، ثم كانوا يتسلقون أسوار الكلية عند الخروج لأن أبوابها مغلقة. شيئاً فشيئاً تحرك الحسد والضغينة في قلوب الأساتذة، وكان رئيس كلية الأداب معيناً من قبل (السافاك)[2] فقدم تقريراً ضده، مما اضطر الدكتور إلىٰ الهجرة إلى (طهران) والبدء بتأسيس حسينية الإرشاد.

أكثر من ألف طالب كانوا يشاركون في درسه، ويأتي بعضهم

(١) مدينة سياحية ومصيف تبعد عن مدينة مشهد (٨٠) كيلومتر تقريباً (المترجم).

(٢) السافاك جهاز أمن الشاه، وكان من أسوأ أجهزة الأمن في العالم، حتى أصدرت منظمة العفو مذكرة شديدة ونشرت جزءاً من جرائمه، وكان العضد القوي لأمريكا واسرائيل في إيران والمنطقة (المترجم).

من باقي المدن، فيتحدث عن الحقائق دون مداراة، ويواجه آلهة المال والسلطة والتزوير، حتى انتفض عليه بعض المعممين القشريين ينهشون لحمه، ويكيلون له الشتائم من منابرهم، يتهمونه بالسيّىء والوهابي، وأنه يقنع الشبان بالصلاة مكتفين. فيما يقول بعضهم أنه يطرح الشيوعية بإطار إسلامي، وليس من المصلين الصائمين. فكان يحارب علىٰ عدة جبهات دون أن يتعب.

لم يكن في شهر رمضان يلبي دعوات الإفطار، بل أعدّ لنفسه غرفة صغيرة غير معروفة لينظّم فيها دروسه حتى الصباح، وكان أحياناً ينسىٰ تناول طعام الإفطار أو السحور، فيخبو لونه من شدة الجوع، فيدرك الناس أنه لم يتناول طعاماً خلال (٢٤) ساعة مضت، كان سريعاً يقول؛ يجب أن نقول ما يجب قوله فليست لدينا الفرص الكافية وسيمنعون ذلك قريباً.

أُقيم إفطار في بيت أحد الشهداء، فقام جمع من الخطباء والكتّاب الحاضرين بانتقاده فقالوا: كيف تكون عالم اجتماع وأنت لا تعرف المجتمع؟

فيردّ عليهم بهدوء ويقول: إن لم نتمكن من تعريف الجيل الشاب علىٰ حقائق الإسلام بصراحة، فلن تكون هناك فرصة أخرىٰ، وسيكون شباننا غرباء عن الإسلام مع وجود كل تلك العقائد الغريبة. يقول ذلك وقطرات الدمع تنسدل علىٰ خديه.

كان يتكلم دون مواربة، ولا يخاف الإتهامات والشتائم، ويشير باصبعه إلىٰ نقاط ضعف المسلمين حيث أصبح الإسلام

كالفرو المقلوب لديهم، ويطرح الإسلام الثوري والتشيّع العلوي الأحمر.

قضىٰ شهر رمضان في غرفة مجهولة، وحيداً، يعمل دوماً، كان يُبيّن في خطاباته أحدث حقائق الإسلام والأكثر أصالة، دون مبالغة كان الأكثر مطالعة وأكثر المفكرين في الشرق وعياً، وجاءت كتبه مليئة بالبركة وافرة المضمون يندر أن نجد لها نظيراً في القرون المعاصرة، حيث درس جميع المذاهب الفكرية والدينية والرسالات من زاوية وعمق خاص، وأثبت أفضلية الإسلام عليها بالإستدلال والتحقيق.

بقي في (أوروبا) لعدة سنوات، لكنه طوال تلك المدة لم يتلوث بغبار الغرب، بل تعرَّف جيداً علىٰ نقاط الضعف الكثيرة للمدنية الغربية، وهاجم ذلك البناء الخادع السحري وحطمه.

خدمته الكبرىٰ للإسلام أنه دوَّن العلوم الإجتماعية الجديدة والتحليل التاريخي في قالب الثقافة الإسلامية، وجعلها أكثر سعة وعمقاً، ولم يكن قد سبقه إلى ذلك أحد. وعرض الإسلام الحديث والثوري علىٰ الجيل الشاب والمتعلم بحيث انطلق نحوه كل عطاشىٰ الحقيقة، وتقبّلوه. يمكننا القول أنه لولا نتاج شريعتي لمال شباننا الثوريون إلى المذاهب الفكرية المادية والمنحرفة، ولوقع أبناؤنا اليوم فريسة الأفكار الغريبة، وقد لمست هذه الحقيقة ببداهة ووضوح داخل إيران وخارجها.

خلال مقابلة صحافية لي مع جمع من الصحافيين

الإسكندنافيين سألني صحافي لجوج عن دور الدكتور شريعتي في الثورة الإسلامية، وكنت كلما أجبته عاد ليسأل واستمر ذلك البحث في (كوبنهاغن) لمدة، وعندما سألته عن سبب تلك اللجاجة عنده، قال لي: إن مدير تحرير صحيفتنا يهودي، ويسعىٰ إلى تهميش دور الدكتور، لذلك أكثر عليك الأسئلة عنه لأحاول بذلك إقناعه!

إن شخصيته الفكرية الكبرىٰ كانت واسعة لدرجة جعلته يتعرض للهجمات من الإتجاهين، كما تعرض من قبل مراده وإمامه (علي). ففي إيران كان بعض وعاظ السوء يعتبرونه وهابياً وسنياً، وعندما تشرف بالحج وكنت برفقته اعتبره الوهابيون في رابطة العالم الإسلامي أنه من الشيعة المغالين والمتعصبين، ولم يسمحوا له بإلقاء كلمة في الرابطة. لقد كان مسلماً شيعياً بحق، شيعياً خالصاً ومخلصاً، وكتاباته وخطبه حول علي وفاطمة والحسين عليهم السلام والأئمة إلى صاحب الزمان، بل وجميع أعماله الصغيرة كانت تنطق بتشيعه صراحة، وكانت عقيدته الشيعية بارزة كالشمس.

كتاباته الثرة أغنت الإسلام بنفحات جديدة، كان يحب القرآن كثيراً، كان من أهل الصلاة والدعاء، كان يقضي الأيام والليالي في مكة والمدينة في الجبال والصحاري وحيداً، محاولاً تصفح تاريخ الإسلام بين ثنايا تلك الأرض... في ساحة أُحد ومعبر الجبل، في ساحة بدر، وفي مكان حفر الخندق، وفي بيت خديجة، في محلة بني هاشم، ومكان قبيلة بني النجار، وبيت أبو أيوب، عند أول مسجد بناه علي في المدينة، وفي الآبار التي أوجدها علي قرب المدينة. يتلمس ذلك كله بحسّه التاريخي ونظرته الثاقبة،

وكان يبحث عن تلك الأماكن التاريخية سيراً على أقدامه في الصحاري وتحت لهيب الشمس الحارقة، وأحياناً يستعين بجمل ليبحث بين القبائل، ثم يدوّن كل ذلك، لا أدري أين هي تلك الكتابات التي تحيي تاريخ الإسلام، حيث كنت أُذكره بها دوماً فيقول: إني أعدّها. أرجو أن لا تكون قد ضاعت.

ينتقل بين أفناء مسجد النبي، فيجد عند أعمدته التاريخ كله، ويحسب الفواصل بينها بالشبر والقدم، فيجد بيت النبي وفاطمة، ويحسب المسافة بينهما وبين موقع أصحاب الصفة، فيبين بذلك الحدود الأصلية لمسجد النبي ﷺ.

أشار في أحد الأيام إلى أخشاب هناك كالمنجنيق مرتبة، وقال لي: ماذا تظن هذه؟ قلت: لا أدري. فتقدم نحوها بوجل وترقُب، ودفعها إلى الخلف، فوجد أثار شجرة ما زالت طوال التاريخ تينع فيقطعونها، فقال: أتصور أنه مكان الشجرة التي كانت سكينة بنت الحسين عليه السلام تجلس تحتها بعد واقعة عاشوراء وتبكي لتعلن بذلك عن مظلومية والدها.

لقد دوّن تاريخ الأعوام العشرة الأخيرة من حياة النبي ﷺ يوماً بيوم، وهو عمل لم يقم به أحد. تصوروا شاباً قضى عمره لا ينام الليل، ويعمل حتى الصباح، وينام ساعة قبل الظهر، كان يمتلك مقاومة عجيبة، ويقف بوجه كل تلك العداوات دون أن يصيبه فتور.

يفكر جيداً ويكتب جيداً ويتحدث جيداً، فكتاباته رغم

مضمونها النثرّ فهي من أعذب وأجمل كتب الأدب الفارسي.

بعض خطبه كانت علمية، وبعضها فلسفية، وغيرها اجتماعية وسياسية وثقافية؛ لكن كتاباته تبلغ القمة عندما يصبغها بلون العرفان. فكتابه (الإمام السجّاد أجمل روح عابدة) نادر لا نظير له، وكتابه (الحج) إعجازي، وكتابه (الصحراء) وأدعيته البديهية كلها تُنبي عن عرفان أصيل.

كان يرسل لإبنه في (أمريكا) كتباً عرفانية حتى لا يتأثر بميكانيكية الغرب، وكان متواضعاً إلىٰ أبعد الحدود، جاء يوماً إلى مكتبة البعثة، فالتف الأخوة من حوله ينظرون بحيرة إلى تلك الأعجوبة، ينتظرون منه نفض سيجارته وقال: لقد أصبحنا قدامىٰ، فالإسلام بحاجة لكتابات وكلام أحدث.

أخيراً أطفأوا صوته السليط، قيدوه بالسلاسل، ورموه مدة ستماية يوم في زنزانة إنفرادية مظلمة، لكنه قاوم كالحديد ولم يستسلم، لقد كان داخل الزنزانة مع نفسه ومع الله، يكرر سلام الصلاة ليؤكد حضوره لدىٰ الله والنبي وعباد الله الصالحين ويناجيهم، حتى أضحىٰ السجن عنده جنة.

قضيت مدة في نفس السجن، فوجدت السجن متأثراً به، يقول الحراس أنه مقيد بالسماء، فكلما زاره مسؤول واجهه بعنفوان، وعاد ذاك خاسئاً دون أن ينال من عزيمته.

حتى توسط رئيس الجزائر (بومدين) فأطلق سراحه، لكنه بقي سجين بيته، يعقد أحياناً بعض الإجتماعات الخاصة. في أحد

الأيام كان في بيتي فتحدث من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فأقام ليلتها مؤتمراً لمفردات القرآن في لقاء سري مع الجامعيين. ومرت مدة لم أره خلالها، حتى انتفض الطير عن الشجرة، وفرّ إلى أوروبا متنصلاً، في أوروبا بدأ أعماله العلمية وتنظيم الجامعيين، لكن القدر غافله.

في أحد الأيام كنت في شارع قريب من بيتي أحمل طفلاً، فجاءني ابن الشهيد الدكتور مفتح[1] ليخبرني باستشهاد الدكتور شريعتي. فسقط الطفل عن يدي، وأصبت بصدمة دماغية ما زلت في دوار منها. وما زالت الجامعة في مدينة (ساسمتون) جنوب بريطانيا ساكتة مبهوتة حيث كانت مكان سقوطه، وعندما حاضرت في قاعة تلك الجامعة أحسست بوجوده معنا.

كان قد قال لابن عمه ما أسوأ أن يموت الإنسان في بيته بسبب الإسهال مثلاً إني أتمنى أن استشهد وأن أدفن إلى جوار قبر تلك السيدة البطلة.

وها هو مرقده الآن إلى جانب مرقد السيدة زينب عليها السلام وجسده إلى جوار ابنة أمير المؤمنين، وروحه تلاقي أرواح شهداء

---

(١) الدكتور الشيخ محمد مفتح أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة الاسلامية، عميد كلية الإلهيات، وأحد أبرز أساتذة الحوزة العلمية قتلته منظمة الفرقان بتوجيه من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في ١٩٧٩/١٢/٨، وأطلق الإمام الخميني على يوم استشهاده، يوم وحدة الحوزة والجامعة تثميناً لجهوده الصادقة في التوحيد بين هذين الكيانين.

كربلاء، وقد أضحىٰ اليوم أكثر حياة ووجوداً بالثورة الإسلامية، وانتشرت أفكاره وتوجهاته في كل مكان، وأطلق اسمه علىٰ شوارع ومدارس وأزقة ومستشفيات، فصار حاضراً في كل مكان، وخاصة في قلوب وعقول الجيل الشاب.

دعوني أقول كلامي الأخير لله وللحقيقة والفضيلة، أقوله لجميع معارضيه ومواليه، ورغم أن إبنه العزيز قضىٰ بعض طفولته في مشهد في كنفي وأحبه كإبني العزيز، وها هو الأن يواجهني وينسق مع أصدقائه التقدميين، ويهاجمونني بين الفينة والأخرىٰ، ورغم أن أخطر أعدائي هم من الأصدقاء المقربين لوالده الأستاذ شريعتي، وعلىٰ فرض أن الدكتور نفسه خرج من قبره، وعاملني بعداء خلافاً لصداقتنا السابقة، حيث كنت لسنوات طوال من أقرب المقربين عنده، وعرفت كل أسراره وسيرته وتحركاته فإني أعلن:

أن الدكتور شريعتي مسلم، متدين، أصيل، ثوري، مؤمن، حكيم، شيعي العقيدة، إثنا عشري المذهب، واعٍ. لا يلتصق به شيء من التبعية والإنحراف، طوال حياتي الخاصة معه وفي المدرسة لم أر منه أي ذنب أو سوء خلق، كان يصلي باخلاص، يقف عند مرقد الإمام الرضا عليه السلام باخلاص وإيمان وخشوع وكأنه يتكلم معه ويتلقىٰ منه الجواب. عباداته خلال رحلة الحج كانت محيّرة، لم يكن ينكر أيّ من الضرورات الدينية، بل إنه كان يقبل حتى بالعادات الدينية العرفية، كان يقرأ معي زيارة عاشوراء، كان خلال شبابه طاهراً وحكيماً، وإذا كانت هناك بعض الأخطاء في كتاباته، فإنها لا تعد ذنباً، فما أكثر الأخطاء التي ارتكبها أمثال ابن

سينا والملا صدرا، لكنه كان منصفاً بحيث عندما ينبّه علىٰ أخطائه يبادر إلىٰ إصلاحها.

كانت حياته بركة للإسلام، وكانت للمسلمين وعياً وثورة، وكان موته فاجعة، وبعد موته صارت شهادته حضوراً مع الأمة، فرحمة الله وسلامه عليه[١].

* * *

(١) صحيفة الجمهورية الإسلامية، ملحق خاص، ١٩٨٠/٦/١٩م.

لو كان شريعتي حياً لكان خير ناصر وساعد للإمام[(١)]

السيد محمود دعائي[(٢)]

س ـ يرجىٰ التحدث عن دور شريعتي في يقظة الجيل الشاب وتأثير ذلك في انتصار الثورة الإسلامية.

ج ـ في البداية أؤكد أني لست أهلاً للتحدث عن هذا الموضوع، لكني كطالب علم صغير أتحدث عن رأيي ورأي الطلاب الشباب وطلاب العلم من أمثالي حول هذا الموضوع، فإني فخور بأن جزءاً كبيراً من وعيي ـ إن كنت واعياً ـ ومن دوافعي الجهادية اكتسبته من قراءتي لأفكار المرحوم شريعتي. . . وإنني

---

(١) مجلة سروش العدد (١٠٢) ١٥/٦/١٩٨١م.

(٢) أحد أبرز أعضاء مكتب الإمام الخميني في النجف وإيران، رابط الإمام الخميني مع الدوائر الرسمية العراقية، سفير إيران في العراق بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، نائب سابق في البرلمان، رئيس تحرير صحيفة اطلاعات الرسمية (المترجم).

أتحدث هنا بصفتي أحد المتأثرين بآراء واستنتاجات المرحوم الدكتور في حياتي الإعلامية والثقافية.

عندما كنت ناطقاً باسم (جماعة العلماء المجاهدين) في الخارج، كنت أسعىٰ للإستفادة من الامكانات المتوفرة في الخارج مع المحافظة علىٰ الحيثية والاستقلال المطلوبين. وحينها كان الكثير من الأخوة في جماعة العلماء من الشبان المجاهدين يصرّون علىٰ أن الفرصة سانحة للتحدث إلىٰ الناس في الخارج بما لا يمكن طرحه في الداخل، وعلى ضرورة رفد نشاط الفضائح والعمل السياسي والتنظيمي بدوره من العلوم الإسلامية والأحكام السياسية الإسلامية، وأن تحدد ساعات لمتابعة هذا الأمر.

وكنّا نعاني من الشحّ في هذا المجال، ولم أكن في المستوىٰ الكافي في التحقيق والبحث لأسدَّ الثغرة الموجودة، وأطرح المواضيع المطلوبة، لذا كان لا بد لي من الاقتباس أو مساعدة الأصدقاء لي، إلىٰ أن بدأت برامج حسينية الإرشاد. عندها كان الأخوة الذين أصروا علىٰ تفعيل هذا النشاط، يقومون بتزويدنا دورياً بأعمال الشهيد المطهري ومؤتمرات الشهيد الدكتور شريعتي، ويطلبون منّا نشرها.

وأنقل هنا تعليقاً لأقرب الناس إلىٰ الإمام الخميني وهي زوجته، حيث قالت جملة لطيفة خلال مقارنتها لمؤلفات المرحوم المطهري والمرحوم شريعتي فقالت: الأول يكتب بعمق أكبر، والثاني يكتب بشكل أكثر جذابية.

والجذابية التي تحدثت عنها هذه الأم المثالية كانت نابعة من ضرورة النقل الحماسي والمؤثر للقضايا خلال جو الاختناق الذي كان موجوداً. في الواقع كان كلا هذين العظيمين من أفضل الأصدقاء والأفراد، ويدرك كل واحد منهما الآخر، ويقدران بعضهما البعض، ويتكاملان، فأحدهما يبذل جهده في التحقيق وأصول المسائل الإسلامية، بينما الآخر كان يشبع حاجات الجيل المتمرد في المجتمع، جيل الشباب المتعلم.

وإذا كنّا حينها كأتباع لسماحة الإمام الخميني نقدم مؤلفات المرحوم المطهري عند الحاجة علىٰ اعتبار أنها نصوص إسلامية سليمة، حيث كان يوصي الإمام بها دون أي تردد ويقبل كل ما كتبه المرحوم المطهري؛ لكننا كنا نعتمد علىٰ مؤلفات المرحوم الدكتور شريعتي في مجال الجوانب الإجتماعية والبحوث الإجتماعية الدينية لأنها كانت من اختصاصه.

والمرحوم الدكتور شريعتي لم يكن يدعي أنه فقيه إسلامي جامع للشرائط، ولا فيلسوف لا تردّ آراؤه؛ بل كان يعتقد دوماً أنه قد بحث القضايا من منظار تخصصه في علم الاجتماع الديني.

وقد استمر الأمر علىٰ هذه الحال حتى برزت منظمة مجاهدي خلق، وكانت في أيامها الأولىٰ تطرح بشدة الدين والالتزام بالأصول الإسلامية، وقد لاقت إقبالاً لكونها منظمة سياسية إسلامية تعتقد بالتحرك المسلح والمواجهة المباشرة مع النظام الملكي واستطاعت أن تجتذب الدكتور أيضاً وتشكل محطاً لآماله.

فتحدث المرحوم الدكتور عنها في مواضع كثيرة، ودعا لها في مناجاته، لكن أي إنسان يدرك بوضوح أن مقصود الدكتور من ذلك هم الشبان والعناصر الصادقة والمجاهدة التي تواجدت في هذه المنظمة. وأود هنا ذكر بعض ما دونته من ذكريات في هذا المجال.

آنذاك كنت علىٰ علاقة بالمنظمة، وكنت أحسّ أن هذه المنظمة تتعامل مع المرحوم الدكتور بحذر وتقاطعه، ومن ناحية ثانية كنت أتعرض لضغط جماعة العلماء المجاهدين والشبان في الحوزة العلمية بقم للدفاع عن هذا التحول الذي يطرحه المرحوم الدكتور في الفهم الإسلامي، وكانت المنظمة (خلق) تضغط أيضاً لئلا أذكر إسم المرحوم الدكتور، وكانت تلك مشكلة مبهمة بالنسبة لي لا أعرف لها سبباً!.

إلىٰ أن أعلنت المنظمة عن مواقفها عام ١٩٧٥م عندها أدركت سبب توجسهم من شريعتي ورفضهم له. فرغم احترامهم له في مواقفهم تلك، لكنهم أبرزوا حقدهم الشديد ضده.

خلاصة موقفهم هي أن العلماء والشخصيات الإسلامية لا يمكنها إدراك الواقع الإجتماعي ولمسه، وتسعىٰ بعض تلك الشخصيات لطرح الإسلام بشكل يتطابق مع العصر الجديد وحاجات العصر حتى تتقبله الطبقة الشابة والمثقفة، لكنهم فشلوا في ذلك.

ولأننا كنّا خارج البلاد كنّا نضطر للاتصال بالمنظمات

والجماعات الأخرىٰ ومن بينها الماركسيون وفدائيو الشعب. حاولت أن أعطي أحد الأشخاص ـ الذين يقدّرهم الماركسيون في الخارج ويحسبون له الحسابات ولعله أحد الكوادر الرئيسية في اتحادهم الحالي كتب المرحوم الدكتور شريعتي. وبعد مدة جاءني هذا الشخص وهو يغلي من الغضب ويقول: لماذا تقوم شخصياتكم بالتحدث ضد الماركسية في هذه الظروف التي تقتضي الإتحاد ومواجهة النظام البهلوي، وأنت تروّج لمن يهاجم أسس الماركسية.

فطلبت منه أن يعطيني نموذجاً لذلك. فقال: هذا علي شريعتي إنه يستخدم ذكاءه الخاص وأسلوبه المؤثر لضرب أسس الماركسية، ومواجهة الماركسية حالياً يعود بالنفع على النظام، فلماذا تقومون بذلك؟

فتأثرت حينها وتألمت لأن بعض شخصياتنا العلمائية كانوا يحذروننا من الترويج للدكتور بحجة أن أفكاره قد تكون التقاطية، وقد تؤدي أفكاره إلى استنتاجات ماركسية.

ولديّ ذكرىٰ من الإمام موسى الصدر[١]:

كان يقول بألم عميق: إني أرىٰ ضرورة ترجمة كتب المرحوم شريعتي إلى اللغة العربية، ونصحت بحذف بعض المقاطع التي قد يعتبرها الأخوة من أهل العامة أنها أفكار علوية. فعندما نتحدث عن

---

(١) زعيم ديني وسياسي في لبنان، اختفىٰ خلال زيارة له إلى ليبيا عام ١٩٧٨م (المترجم).

الدكتور معهم يقولون أنه شيعي متعصب أو رافضي يتعامل بسلبية مع كل مقدساتنا. وأني إذا أردت أن أترجم مؤلفاته وأوزعها أو أذكرها لا بد لي من حذف هذه المقاطع. في حين أني في الداخل أتهم بأني استخف بمقدسات المذهب الجعفري وأنال منها لأني أتحدث عن شريعتي، وأني أروّج لمتسنّن.

تلك كانت ذكريات لطيفة من التعامل المتفاوت والمتضاد مع أسلوب تفكير المرحوم الدكتور وبحوثه بين الآخرين.

هذا التضارب في المواقف تجاهه جعلنا نبحث عن رأي الإمام الخميني لئلا نكون نؤذي الإمام بالترويج للمرحوم الدكتور، وكنّا حينها نرافق الإمام دوماً، فأردنا أن نعرف رأيه.

وكان الإمام الخميني قد اطلع علىٰ جميع كتب الدكتور طبعاً، حيث أنه كان يستغل فراغه خارج البلاد، في تلك العزلة والغربة التي فرضت عليه، ليجعل منها فرصة للمطالعة. فكان يطالع المسائل العلمية المرتبطة بتدريسه، ويقضي باقي وقته في مطالعة الكتب التي تطبع في إيران آنذاك. وقد قرأ معظم كتب الدكتور حينها. لكنه كان يتحاشىٰ إبداء رأيه فيها، وكان محبو الدكتور يتألمون لأن الإمام لا يبدي رأياً واضحاً وصريحاً يؤيد الدكتور، كما كان معارضو الدكتور قلقون وعاتبون لأن الإمام لا يبدي رأياً معارضاً ويخطىء الدكتور.

إني أعتقد أن عدم رفض الإمام وعدم تعامله السلبي مع الدكتور أمر يستحق التأمل وذو أهمية. لكنه دافع عن الشخصيات

التي هاجمها الدكتور في كتبه مثل المرحوم المجلسي.

وفي أحد الأيام كنا في خدمة الإمام الخميني فقال لنا: لقد بعثوا أحداً من طهران ليلتقيني ويتحدث ضد مطهري وشريعتي، إني أعرف الشيخ المطهري، وأعرف كيف يفكر. جاءوا بكتابه (مسألة الحجاب)ووضعوه على الطاولة، وقالوا: إن كتابه هذا جعل جنوب طهران أيضاً يتخلّىٰ عن الحجاب. في حين أنني قرأت هذا الكتاب، وليس هو من أبعد جنوب طهران عن الحجاب، بل إنه قرّب الكثيرين من الحجاب.

كما أتوا بكتاب (معرفة الإسلام) لشريعتي، وقالوا: إنه ضد المقدسات الإسلامية. ولم أرغب بالرد عليهم حينها، لكنني قلت لهم: إنه كتاب ضخم، فأين توجد القضايا التي تدّعون. وعندما أبرزوها لي، وجدت أنها ليست كما يدّعون، نعم لعله استعمل أسلوباً خاصاً لا أوافق عليه، لكنه ليس كما يدّعون من أنه مخالف لدرجة لزوم إتخاذ المواقف ضده.

إنّ الجرأة التي دفعت ذوي الإمام الخميني إلىٰ تأييد المرحوم شريعتي وحبهم له هي دليل علىٰ مالاحظوه من تعامل الإمام مع مؤلفات الدكتور. فخلال المقابلات التي أجريناها مع أبناء الإمام الخميني وزوجته أبدوا محبتهم الشديدة للمرحوم الدكتور شريعتي.

إحدىٰ بنات الإمام الخميني التي تحمل فكراً إسلامياً عميقاً جعلها توفق لخدمات ثقافية واجتماعية جليلة في مدينة قم قد تحدثت عن المرحوم الدكتور في إحدىٰ مقابلاتها بشكل لائق

جداً. وهذا يدل علىٰ جو الحرية الحاكم في بيت الإمام الخميني، والديمقراطية الخاصة المتوفرة فيه، بحيث يسمح لكل فرد أن يفكر كما يشاء حتى لو كان تفكيره مخالفاً للآخرين، لكننا لمعرفتنا بذوي الإمام الخميني وتعلقهم بالإمام وإيمانهم به، فإننا نعلم أنهم لا يمكن أن يدعموا أحداً ويمتدحوه إذا كان الإمام يرفضه.

س ـ ما هو دور شريعتي في تلاحم العلماء والجامعيين؟

ج ـ أشير هنا إلىٰ فترة تاريخية وهي كيف برز المرحوم شريعتي. فكلنا نعلم أن المرحوم شريعتي عُرِفَ بداية بين زملائه ومعارفه، ولم يشتهر في المجتمع كله. وكان أول من فهمه واستقطبه وعرّف به هو المرحوم الشهيد المطهري. فمن الواضح أن المرحوم المطهري هو الذي دعا الدكتور شريعتي إلىٰ حسينية الإرشاد ووضع له برنامج، فهناك رسائل موجودة بينهما لدىٰ السيد هادي خسروشاهي، وقد نشرت رسالة موجزة في صحيفة (إطلاعات) يبدو فيها كيف أن حسينية الإرشاد كانت مؤسسة إرشادية قبل أن يؤدي المرحوم الدكتور دوره في تنوير الجامعيين وطلاب العلوم الدينية، حيث كانت الشخصيات العلمائية البارزة تلقي المحاضرات فيها، واكتشفوا الدكتور شريعتي واستقطبوه بينهم، ومن خلال هذه الحركة برزت مسألة تلاحم العلماء والجامعيين وتعاون المحقق المعمم والمحقق غير المعمم. وإني علىٰ اطمئنان بأن تلك الحركة كانت بداية مثمرة جداً لولا تدخل العناصر المعادية للعلماء، بداية لتعاون العلماء مع غير العلماء ودعوة غير المعمم للعمل من خلال محفل أسسه العلماء. ويمكن

القول أن المرحوم المطهري هو مؤسس حسينية الإرشاد، وهو أول من أتىٰ بالدكتور شريعتي إلى حسينية الإرشاد. لكن بعض الأيادي سعت للسيطرة على الحسينية وإبعاد المرحوم المطهري عنها، وخلق جو يصعب معه البقاء فيها، وأرادوا أن يطرحوا المرحوم شريعتي فيها كرمز للعلم والفكر الإسلامي المعاصر، وأن يحاصروا المرحوم المطهري ويقاطعوه، فأوجدوا في الحسينية ظروفاً لا يمكن أن يقبل لها المرحوم المطهري.

ففي الرسائل المتبقية من المرحومين المطهري وشريعتي نجد أنهما يتحدثان بصراحة عن تلك العناصر، وعلىٰ رأسهم (ميناچي) فيذكرانه بحرقة وألم، وهو الشخص المتعدد الوجوه، الغامض الذي لعب دوراً عجيباً ومؤثراً في إبعاد الدكتور عن العلماء، وتحريك المواجهة بين العلماء والدكتور.

س ـ يبدو أنّ هناك وثائق عن هذا الشخص كانت في السفارة؟

ج ـ نعم كانت هناك وثائق عنه، فهو كان عضواً في هيئة أمناء دار التبليغ[1] وكان يدعو الصحفيين الأجانب إلى بيت شريعتمداري خلال الثورة، وكان علىٰ علاقة مع معظم أعضاء حزب نهضة الحرية، وكان يطلع علىٰ مواقف الإمام الخميني في باريس وينقلها إلىٰ بيت شريعتمداري لاتخاذ مواقف مشابهة لها.

---

(١) دار التبليغ كان مركزاً لإدغرة الحوزة العلمية للأجانب ولنشر الكتب والمجلات، وقد تولىٰ الإشراف عليها السيد شريعتمداري بدعم من نظام الشاه (المترجم).

كان متعدد الوجوه، والساعي لابعاد المرحوم شريعتي عن المرحوم المطهري.

بعيداً عن هكذا عوامل وتداخل فإن ما طرحه المرحوم الدكتور من فهم جديد لقضايا الإسلام الاجتماعية والتاريخية كان مقبولاً جداً في محيط العلماء الشبان، ووافقت عليه شخصيات علمائية بارزة كثيرة رغم المشاكل التي كانت آنذاك، ورغم المواجهات التي كانت أجهزة أمن الشاه تعمل علىٰ إيجادها، ورغم ذلك كله كان هناك امتداح صريح متعدد للمرحوم الدكتور، ومن بين ذلك ما قاله الشيخ المشكيني[١].

فآية الله المشكيني قام في إحدىٰ الليالي بزيارة حسينية الإرشاد شخصياً، واستمع إلىٰ محاضرة المرحوم الدكتور، وعندما عاد من تلك المحاضرة قال: لقد ذهبت إلىٰ هناك واستفدت، هناك كثيراً من الأمور التي لا نستطيع طرحها، لكنه يطرحها[٢].

وهذا يدل علىٰ الإنصاف والتعامل بصدق ومحبة. لكن هناك مسألة وهي أن هذا التأييد لا يعني أن علينا أن نأخذ بكل ما قاله الدكتور وطرحه في مؤتمراته ومحاضراته وكتبه. وهو بنفسه قال عدة مرات لا ينبغي أن تعتبروا ما أقوله هو نظريات فقهية إسلامية

---

(١) آية الله الشيخ علي المشكيني، إمام جمعة قم ورئيس مجلس الخبراء لاختيار قائد الجمهورية الاسلامية، ويعدّ من الأساتذة المبرّزين في حوزة قم، ويعتبر صاحب مدرسة في علم الأخلاق.

(٢) يقصد شريعتي.

مائة بالمائة، بل إني أطرح استنتاجاتي وفهمي، وقد أكون مخطئاً. وكان يتمنىٰ أن يقوم أصحاب الرأي بنقد أفكاره وتصحيح كتبه، وهذا ما أوصىٰ به الكثيرين، ومنهم: محمد رضا حكيمي وبعض أصحاب الرأي.

سألت السيد الحكيمي مرة هل صحيح أن المرحوم الدكتور أوصاك؟ فقال: نعم لقد أوصىٰ الجميع بنقد مؤلفاته، وحذف كل ما لا يتطابق مع الموازين الإسلامية وإصلاحه، وكان ينوي أن يفعل ذلك بنفسه، وأن يعيد النظر في كل ما كتب، لكن الأجل لم يمهله.

س ـ يذكر الدكتور شريعتي في أحد مؤلفاته أنه يفتخر بأنه مقلد للخميني وأنه لا يمكن أن يتخذ مرجعاً غيره. حسب معرفتك به ما هو إحساس الدكتور شريعتي تجاه الإمام الخميني؟

ج ـ من الواضح أن الدكتور شريعتي كان من عشاق الإمام الخميني والمخلصين له، ومعارضي الدكتور كانوا نفس معارضي الإمام الخميني. ولا أعني بذلك من يختلف مع الدكتور أكاديمياً، بل أولئك الذين أثاروا البلوىٰ والمشاكل، وكانوا يستعملون نفس الأسلوب ضد الدكتور وضد الإمام. يمكننا القول أن الدكتور كان مع الإمام في المعاناة من أعدائه، وكان لهما أعداء مشتركون، ولهما أصدقاء مشتركون أيضاً، وهناك يمكن تصور العلاقة بين الدكتور والإمام لو أتيح لها أن تقوم.

وبصرف النظر عن تصريحات الدكتور في المناسبات

المختلفة ومنها ما ذكرته بقوله إني افتخر بأنني مقلد للخميني، فإن ذلك كان عندما بلغه أن أحد المعممين قال في منبره: يكفي شريعتي انحرافاً أنه مقلد للخميني. عندها قال شريعتي إني أفتخر بأنني مقلد للخميني. أي أنه يقول أن هذا الإتهام هو أكبر مشجع ودعاية ومبعث فخر لي.

وعندما توجه الدكتور إلى الخارج، وعمل من خلال الإتحاد الإسلامي كان يحاول أن يقيم علاقة مباشرة مع الإمام الخميني، وبعث له الرسائل، وقام أحد الأفراد بنقل رسالة من الدكتور في أوروبا إلى الإمام في النجف، لكن جواب الرسالة وصل بعد استشهاد الدكتور. وكان الدكتور في رسالته تلك يحاول أن ينظم خطه الفكري والإعلامي المستقبلي كجندي في جبهة الإمام الخميني حسب تعبيره الدقيق في رسالته.

* * *

مقدمة المترجم

أولاً ـ ما وراء هذا الكتاب:

١ ـ يقدم هذا الكتاب بعض تفسيرات شريعتي[(١)] المعاصرة للمذهب الشيعي، تلك التفسيرات التي لعبت دوراً مهماً في ثورة إيران الإسلامية.. هذا ومن الجدير بالذكر أن معظم تعبيرات شريعتي وتفسيراته لم تكن تجد صدى من التعاطف أو الفهم عند الهيئة الدينية آنذاك، وهذا ما أرجعه شريعتي من خلال بعض الرسائل التي بين أيدينا إلى ازدواجية اللغة.. فقد كانت مصطلحاته تثير الهيئة الدينية؛ كانت تركز على الجانب الإنساني من الدين أكثر من تركيزها على الجانب الإلهي، كما كانت محاولة شريعتي الربط بين قضايا المسلمين في الحاضر وقضاياهم في الماضي (قضية فلسطين) ووضعها في إطارها العالمي (الصليبية الجديدة والصهيونية والنفط)، تضع مسئوليات جديدة على كواهل رجال الدين، وبعضهم كان آنذاك يرى أن استرداد «فدك» من أهل السنة

(١) لمعلومات أكثر عن حياة شريعتي وبعض الجوانب الأخرى لفكره. انظر: العودة إلى الذات.. ترجمة كاتب هذه السطور.. الزهراء للإعلام العربي سنة ١٩٨٦.

أكثر ثورة وأهمية من استرداد فلسطين من أيدي اليهود[١].

لقد كان من قبيل الاكتشاف عند مترجم هذا الكتاب أن يعلم أن ثمة فجوة كانت موجودة بين شريعتي وبين الهيئة الدينية قبل الثورة، وأن هذه الفجوة ألقت بظلالها على العلاقة بين الهيئة الدينية وبين فكر شريعتي بعد الثورة مع أن شريعتي لم يكن موجوداً بشخصه آنذاك.

لقد بدأ الخلاف حول نقاط تثير الضحك أكثر مما تثير الخلاف، وهي من قبيل أنه يقف إلى منصة ولا يقف على منبر.. ويتحدث عن الدِّين في قاعات محاضرات لا في تكايا أو مساجد، ويجلس على كرسي لا على سجادة، ويشرب الماء أثناء إلقاء محاضراته الدينية (وفي الحسينية التي تنتسب إلى الحسين عليه السلام الذي استشهدفي كربلاء ظمآناً وحتى طفله الصغير استشهد ظمآناً)، كما وجه إليه النقد بأنه يسخر من بعض كتب الأدعية التي يقول عنها بعض رجال الدين: إن من قرأها كُتِبَ له ثواب سبعين شهيداً من شهداء بدر(!!)..

كما أنه يكتب بلا حياء على غلاف واحد من كتبه: «مسئولية

(١) يشير شريعتي إلى أن أحد المشايخ قد رفع قضية في محكمة سبزوار يطالب باسترداد واحة فدك التي يرى الشيعة أنها ميراث السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يرض الخلفاء بتسليمه لها.. وكان مقدم القضية يطالب بفدك وبتعويض عن استغلالها وزراعتها منذ سنة ١١ للهجرة من تاريخ رفع القضية سنة ١٣٧٩هـ للهجرة لقد حدث هذا بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ مباشرة.. ولم يسكت شريعتي عن هذا السخف. (على شريعتي: شيعة ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ طهران).

أن تكون شيعياً» وكأن التشيع تهمة أو جريمة.. وهو عندما زار مصر أدار ظهره لمساجد الأئمة الأطهار.. واتجه إلى الأهرام وهي مقابر الفراعنة.. وإلى مقابر الذين ماتوا في السخرة عند بناء الأهرام.. وأخذ يبكي[١].. كما أنه يسمي رجال الدين الوجودين بالشيعة الصفوية، ويعتبر نفسه شيعياً مختلفاً وعلوياً.. وهو يخاطب الناس بقوله: أخي.. أخي.. بدلاً من أيها المؤمن.. وهو عندما يتحدث عن العقد التي تكونت لديه من الحضارة التي أقامها قومه.. يخاطب عبيد فرعون بأنه واحد منهم.. لكنهم ذهبوا.. بينما بقي هو يعاني من ثلاثي السلطة: الفرعون وقارون وبلعم من باعوراء (الحاكم والرأسمالي ورجل الدين المتصل بالسلطة والعامل عندها)..

وترتفع نغمة هجوم رجال الدين على شريعتي: أنه رجل ضعيف الإيمان.. إيمانه بالولاية ضعيف.. لقد أخذوه إلى فرنسا وأدخلوه مدرسة لتعليم اللغة والبلاغة فحسب.. وضحكوا عليه ببعض الألقاب من أمثال الدكتور والمثقف ثم دسوه لهدم التشيع والتحدث فيما لا يفهمه.. وفيما يفهمه أهل هذا العلم فحسب (نفس الجدلية الموجودة: احتكار الفتيا كهنوت إسلامي).

كان هذا بعض ما ورد في كتاب «دفاع عن الإسلام والهيئة الدينية ضد على شريعتي خطيب الإرشاد» (يقصد حسينية الإرشاد) الذي ألفه الشيخ محمد علي الأنصاري.. وقد افتتحه بفصل كامل

(١) إشارة إلى رسالة «نعم هكذا كان يا أخي».

عن سيرة شريعتي وقصة حياته (كما وصفها المشايخ بالطبع) وهو في الواقع مكتوب؛ لقطع أي لسان، وتحطيم أي قلم يهدد مصالحهم ومراكزهم وحيثياتهم في المجتمع (نفس ما سماه محمد حسين النائيني فقيه الحركة الدستورية العظيم بالاستبداد الديني) أما ما يسميه شريعتي بـ«تقوى الخوارج» الذين كانوا مثالاً في التعبد والتهجد وقيام الليل. . لكن برؤية سياسية واجتماعية ووعي متدنٍ إلى درجة تكفير علي. . ثم قتله!!

وإيران هي أرض الإتهام السهل والجاهز. . والتهمة الجاهزة والتي يمكن لغموضها أن يتهم بها أي إنسان هي «البهائية» ولم يكن إذن ببعيد أن تتهم حسينية الإرشاد وكُتابها ودعاتها ومن بينهم شريعتي بالبهائية. . ثم استغلوا التشابه بين اسمه وبين اسم أحد البهائيين المشهورين، ولما لم تفلح هذه التهمة. . اتهم شريعتي بأنه «وهابي» ودسيسة من السعودية!!.

وهكذا فإن عداء شريعتي لكل ما هو قبيح يزري بالإسلام، ويقدم للناس على أنه الإسلام ولكل ما هو دخيل ليس من الإسلام في شيء ويقدم للعالم على أنه الإسلام، وكل ما هو عامي ومقبول لدى العوام على أساس أنه الإسلام، ورغم اعتقاد هؤلاء المشايخ بأنه ليس من الإسلام بل وربما كان دخيلاً من المسيحية في العصور الوسطى (مثل مراسم التعزية) لكن الاعتراف بهذا يخل بالحيثية وبالدخل. . فلا مانع من تحويل النظر وغض الطرف ما دام الشيخ بتعبير شريعتي يمد اليدين «يداً لتلقي القبل ويداً لتلقي الأموال» فليشوه الإسلام إذن أمام القاضي والداني.

من هنا فإن شريعتي في كتاباته ينص على التشيع، إنه يقول: الدين، ثم لا يلبث أن يردفه بالمذهب.. وقد كانت هذه النقطة بالذات من أسباب بعض التحفظات بالنسبة لشريعتي عندما أصبح مقروءاً خارج البيئات الشيعية أنه متهم بأنه يرسم صورة مثالية للتشيع.. ومن ثم فهو يرى المذهب السني خالياً من المثل.. تراه يعتبر مذهب التشيع حقاً في مواجهة باطل هو المذهب السني؟!.. الجواب: إنه إلى جوار أن شريعتي كان يتعامل مع جمهور بعينه ومع مجتمع بعينه، فإنه يشير في كثير من المواضع أنه يتعامل مع قضايا مشتركة بين السنة والشيعة (ونضيف وكثير من البلايا وكثير من أنواع المعاناة).. وهو يضيف: إن الكثيرين يرون التشيع منحى فقهياً في مواجهة السنة كمنحى فقهي آخر.. لكني أرى أن كلمة التشيع من مرادفات كلمة الإسلام.. وهي ـ أي التشيع ـ يبدأ من التوحيد.. ويبدأ تاريخه من آدم ورسالته من إبراهيم مروراً بالأنبياء ثم الحسين، وحتى آخر الزمان.. التشيع نوع من منهج الإسلام.. أما القول بأن التشيع ذو أصول تختلف عن أصول الإسلام فهو شرك.. وقد يقول قائل: ما دمت تعتبر التشيع مرادفاً للإسلام فكأنك تخرج كل من ليس بشيعي من إطار الإسلام.. وأرد وتشهد كل أعمالي على قولي هذا بأنني أعتبر نفسي أخاً لكل مفكر غير مغرض.. وحر.. كلنا إخوة في الإسلام نؤمن بأن الإسلام ينبغي أن يكون الأساس والمبدأ.. الفرق أننا نختلف في فهم الإسلام اختلافاً علمياً.. مثل اختلاف فقيهيْن حول مسألة داخل مذهب واحد ومن الطبيعي أنه بدلاً من أن يكفر كل منا الآخر.. علينا أن

نتناقش بشكل علمي وبأسلوب تمليه علينا أخلاق الإسلام ويستوجبه أدب الإسلام. . إنني أُخطّىء استنباطه العلمي. . ومن ثم فله الحق في أن يُخطّىء استنباطي العلمي. . إن كثيراً ممن هم ليسوا بشيعة يمكن أن يوافقوني على بعض استنتاجاني في حين أنني كثيراً ما أقف مشدوهاً حائراً مبهوتاً لا أجد جواباً على بعض المناقد التي يوجهها إليّ بعض كبار المشايخ عندنا. . مثلما انتقدني بعضهم على أنني لم أذكر في كتابي «الشهادة» أن الحسين ثأر مرة في المدينة عندما كان في سن السادسة(١).

٢ ـ على أي أساس إذن قام هذا الخلاف التقليدي والنمطي بين نوعين من الدعاة خلافاً قد يكون أشد قسوة من خلاف بين تيارين متضادين؟! لقد كان خلافاً في الأدوات أدى إلى اختلاف في النتائج. . فالمعرفة الصحيحة للإسلام في نظر شريعتي تتأتى عن طريق معرفة فلسفة التاريخ القائمة على النظرة التوحيدية و«سوسيولوجيا مجتمعات الشرك» التي تتبين واقع المجتمع وتحلله تحليلاً تاريخياً ورمزياً، وفي كتابه «الحسين وارث آدم» يبين أن الإسلام ليس إيديولوجية إنسانية مرتبطة بزمان بعينه أو مكان بعينه، بل يعتبر تياراً يجري عبر التاريخ الإنساني(٢).

وربما كان أكثر ما أثار حفيظة المشايخ أو شريعتي كان يرى

---

(١) هوامش كتاب «شيعة» لعلي شريعتي ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) بحث «طرح يك زندگى» من كتاب «شريعتي درجهان» ص٣٤ شركة سهامى انتشار بهار ١٣٦٥هـ. ش.

أن إسلامهم «الاسكولاسي» شأنه شأن «إسلام العوام» لا يمكن أن يكون ذا قيمة تذكر، إنه يفضل المسلم اليقظ الواعي المفكر على العالم صاحب الشعبية عند العوام. . وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب: بناء الذات في الإسلام والتطور الداخلي لهذا التيار عند الفرد وعند المجتمع[1].

ومن هنا فقد كان أعظم ما قدمه شريعتي من خلال فهمه لنفسية الشعب الإيراني أنه اختطف شباب هذا الشعب من أحضان الأيديولوجيات الوافدة. . وذلك بطريقة بسيطة هي أنه قدم له فهماً للإسلام يزري بكل هذه الأيديولوجيات وما تتشدق به من مبادىءكانت تعتبر مجرد دريئة تخفي وراءها جذب الشباب نحو تبعية أشد واحتواء أبشع وأقسى. . لقد قدم لهم البديل من التيار الحي المستكين تحت الرماد. . وملأ الشارع الإيراني بالشباب المستعد للموت في سبيل الإسلام. .

ولم يكن شريعتي بالرجعيّ المتعصب الذي يعادي الإتجاهات الحديثة دون فهم، كما أنه لم يكن من المفكرين المتغربين يقوم مقلداً للغرب ويفرط في قواعده وهويته، كان واعياً أشد الوعي بأشراط زمانه وأوضاعه وظروفه وبدأ رسالته في توعية الجماهير بتعريفها بمفاخرها، وبأن هذا المسخ الذي يجدونه أمامهم ليس هو الإسلام، بل هو الإسلام كما يريده لنا عدو شديد الدهاء وصديق شديد الجهل والحمق. . بدلاً من أن يقتل الإسلام

(١) المصدر السابق. . نفس المقال ص٣٨.

شوهه.. فيقوم أتباعه بقتله في نفوسهم بأيديهم.

والميزة الكبرى في فكر شريعتي أنه في معرفته للإسلام يبحث في الواقع ويتجنب المصطلحات التي لا معنى لها والكلمات الرنانة والأفكار الانتزاعية.. وهذه هي ميزة كبرى في الخطاب الجماهيري الإسلامي الذي لا زال أغلب دعاتنا بعيدين عنه، فهم إما خطيب منبر يقوم بالإثارة والتهييج معتمداً على الألفاظ الرنانة وبفكر سطحي أو دون فكر تقريباً، وإما مفكر شديد النخبوية يخاطب الجماهير عن عصور لم يعيشوها وبمثل تجعلهم يحسون أن الإسلام مثالية شديدة البعد عن الواقع.. وعندما يصطدم الإنسان مع الدين.. فلا شك أن هناك فهماً خاطئاً عن الدين.. ولا بد أن الدين قد قُدِّم بشكل خاطىء.. ولا بد أن يكون هذا القلب للواقع نابعاً من خطإٍ مَا.. ومن ثم فعندما يهاجم شريعتي الهيئة الدينية والمسجد والشعائر والتشيع يكون هذا الهجوم منصباً على الصورة المزورة لهذه الأنماط لا عليها بالفعل (بعض مفكرينا الإسلاميين «!!» قرأوا نُتَفاً عن شريعتي فظنوه هكذا.. مفكراً إسلامياً غير معترف بالشعائر). إن شريعتي يحلم بالإسلام الحقيقي.. الذي كان موجوداً قبل عصر الضياع والتشويه.. إنه لا يرى فرقاً يذكر بين شيخ في الهيئة الدينية يمد يديه لتلقي القُبَل بيد والأموال بالأخرى وبين المشايخ الذين انضموا إلى السلطة منذ العصر الأموي.. كلاهما يمثل صدعاً في الدين وتشويهاً للإسلام..

٣ ـ ومن هنا فشريعتي في نظر المعتدلين والثوريين من

الهيئة الدينية في إيران مفكر مسلم وإنسان مكافح وحسن النية وفدائي.. لكنه ليس نبياً ولا معصوماً.. وليس أيضاً مجتهداً أو فقيهاً.. وأنه لا يعتمد في كتاباته على المنابع والمصادر المعتمدة على الوحي الإلهي.. لكن شريعتي لم يدع هذا.. وفي رأي حجة الإسلام حسن يوسفي أشكوري أن فهم شريعتي للأصول الإسلامية الأساسية وتفسيره لها.. لم يكن على درجة كافية من العلم والمعرفة، وأن استخدامه لمفاهيم ومصطلحات مأخوذة من مدارس أخرى للتعبير عن مفاهيم إسلامية من شأنه أن يؤدي إلى بعض التناقض.. كما أن إدراكه للفلسفة وبخاصة الفلسفة الإسلامية لم يكن كاملاً.. لكن هناك جماعة أخرى من الإيرانيين السياسيين النشطاء الذين يقبلون حكم الإسلام دون أن يقبلوا سلطة رجال الدين المباشرة على جوانب غير دينية، يعتبرون أفكار شريعتي أفكاراً على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتفسير الإسلام تفسيراً جديداً، ووضع المسؤولية كاملة على كواهل الناس، وإعادة الإيمان إليهم وتحرير الإنسان من الغوغائية والتعصب ومنحه الحرية والإيمان.. ومن كانت الفجوة التي حدثت بين فكر شريعتي ـ لا بين شريعتي نفسه فقد توفيَّ قبل اندلاع الثورة ـ وبين رجال الدين وهم على قمة السلطة.. فقد اعتبرت تلك الأجنحة التي تقبل الدين دون رجال الدين فكرة شريعتي الفكر الإسلامي المناسب الذي يمكن أن يوضع في الكفة الأخرى من الميزان أمام كفة رجال الدين.. ومن هنا فإن الجماعات المناوئة لحكم رجال الدين (خاصة من مجاهدي خلق) ادعت شريعتي لنفسها، ولم

يكن شريعتي موجوداً على الساحة ليدافع عن نفسه، وأنه إن كان يُعد أستاذاً لبعض قيادات المجاهدين.. فهي القيادات الإسلامية قبل أن يقع انقلاب المنافقين سنة ١٩٧٥ ويحول المنظمة إلى منظمة إسلامية ذات قيادات ماركسية. ثم منظمة ماركسية تماماً فيما بعد. بعد المواجهة مع الإسلاميين بعد انتصار الثورة!! بحيث أصبح فيلسوف الثورة شريعتي الذي كان إلى جانب الإسلاميين في معركة ١٩٧٥ يطرح في مواجهة الإمام الخميني (رمز الثورة الإسلامية) وآية الله مطهري (منظرها وفيلسوفها من رجال الدين) معاً!!

كانت معركة سياسية والمعارك السياسية في إيران تجرف في طريقها الكثيرين من الأبرياء ومن لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومن ثم.. فقد اتخذت بعض التدابير لحجب شريعتي بدلاً من فضح زيف إدعاء مجاهدي خلق.. لكني لا أظن أن حجب شريعتي في إيران أمر هيّن خاصة وأن مزاولة السلطة من قبل بعض رجال الدين قد يلقي بعض الغبار عليهم بالحق أو بالباطل ويظل شريعتي الذي استشهد قبيل اندلاع الثورة وجهاً فكريّاً ناصعاً بريئاً من أي غبار.. قدم كل شيء ومضى ليس مديناً لأحد.. ولا في عنقه دم أحد.

كان شريعتي يتخذ من الدين ومن المذهب الشيعي أساساً لفكره ولمعظم ما يطرح من حلول إلا أن هجومه على بعض الرموز «المحترمة» في المأثور الشيعي قد حجب كثيراً من جوانب الدور الذي قام به أمام الهيئة الدينية، وفي إيران ـ شأنها في ذلك شأن كل

بلاد العالم المتخلف ـ تلعب، الأحقاد الشخصية أحياناً دوراً كبيراً في تحديد مصير الأفكار. ومما يدل على ذلك الموقف الذي تصاعد بين آية الله مطهري (فيلسوف الثورة من بين الهيئة الدينية) وبين شريعتي: فقبل أن ينضم شريعتي إلى حسينية الإرشاد كان مطهري أبرز خطبائها ومحاضريها.. لكن شعبيته تناقصت عندما انضم شريعتي إلى الحسينية.. وكان مما أثار مطهري على شريعتي هجوم شريعتي على أحد رموز التشيع الكبار وهو الملا محمد باقر المجلسي فقيه العصر الصفوي واتخاذه إياه نموذجاً بارزاً للتشيع الصفوي المرفوض من قبل شريعتي لصالح التشيع الأصيل أو العلوي.. والمجلسي هو جامع كتاب «بحار الأنوار» وهو أكبر مجموعة حاوية للأحاديث الشيعية والتراث الشيعي.. وقد وصل هذا الهجوم حتى حلقة الإمام الخميني التي كانت في النجف آنذاك.. وأحدث رد فعل عنيفاً.. ومع ذلك فقد أنصف الإمام الخميني شريعتي بعد انتصار الثورة وقال: «لقد أثارت أفكار شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء لكنه في نفس الوقت لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب والمتعلمين إلى الإسلام»، لكن الإمام لم يلبث أن أضاف: «على أتباع شريعتي أن يتجاوزوا مرحلة ما عرضه شريعتي عليهم، وأن يتدارسوا أيضاً الإسلام في مصادره التقليدية.. وعلى العلماء في نفس الوقت أن يدركوا أن ما طرحوه ليس هو القول الفصل.. ومن ثم فالحاجة إلى أسلوب معالجة الدكتور شريعتي.. والتقييم الدقيق للأفكار التي طرحها أمر بالغ الأهمية» هذا هو التقسيم الذي قدمه الإمام الخميني، إذن: أتباع

شريعتي وأتباع العلماء[١] وكان أبرز العلماء عصرانية وأصالة فكر وأغزرهم علماً هو آية الله مطهري. . وعندما عرف شريعتي على المستوى العالمي عن طريق ترجمة أعماله. . جرت ترجمة أعمال مطهري على قدم وساق داخل إيران نفسها.

وكان المجاهد العظيم آية الله محمود الطالقاني مما حاولو التوفيق بين الفكرين المطروحين على أساس أنهما فكر واحد من منطلقين مختلفين، كانت حسينية الإرشاد قد أقامت احتفالاً بالشهيدين العظيمين وذلك في أوج الحملة والهجوم على فكر شريعتي من لدن الهيئة الدينية الحاكمة والتي احتدمت بمجرد نجاح الثورة في ربيع سنة ١٩٧٩ وصيفها وقال الطالقاني: إن كلا الرجلين بيّنا صورة الإسلام الحقيقية للشباب أحدهما عن طريق علم الإجتماع والآخر عن طريق علم الفلسفة وأضاف أن القرآن نفسه تعرض للتفسيرات المختلفة وأن اختلاف المنطلقات داخل الإسلام ليس علامة مرض بل هو علامة صحة ونضج، وواصل الطالقاني ناقلاً عبارة عن الإمام جعفر الصادق فحواها أن الشك هو المرحلة الأولى للوصول إلى الإيمان. . وإن كان شريعتي قد شك في بعض عقائد الشيعة فلم يكن هذا الشك إلا من أجل البحث عن الحقيقة. . وفي سبيل البحث عن الحقيقة قام أيضاً بتحليل المدارس الفكرية الأجنبية وخاض فيها. . لكنه وجد في النهاية ما كان يبحث عنه؛ وجد إسلاماً ثورياً محرضاً. . وعندما اكتشف

(١) بحث حامد الجار «إسلام بعنوان يك ايدولوثرى. . مفكرات دكتر علي شريعتي» في «شريعتي درجهان» ص١٩٤.

أخطاءه سعى في إصلاحها، وقارن الطالقاني أسلوب شريعتي بالأسلوب الذي كان سائداً في إيران في تلك المرحلة المبكِّرة من الحكم الثوري وقال: إن مصيبتنا في أننا لسنا مستعدين لسماع أي شيء.. وانتقادنا لأي إنسان ليس إلاّ من قبيل الدس والبهتان.. هذا جزء من شخصيتنا القومية.. فلا اليساريون مستعدون للانطلاق خطوة واحدة خارج بعض الكليشيهات التي يريدون حل كل المشاكل بها.. ونحن أصحاب الأفكار الدينية أيضاً في نفس الوضع.. لقد تعلمنا بضع آيات من القرآن على يد أحد المشايخ وهو نفسه لا يعلم من أين تعلمها.. وبعدها بدأ كل إنسان منّا يتهم الآخر بضعف العقيدة وبالكفر.. لكن شريعتي فكّر في القضايا ودرسها وتجاوز مرحلة اليمين واليسار بشكل أفضل منّا.. وترك لنا إسلاماً ثورياً.. يختلف عن ذلك الإسلام التقليدي الذي لدينا.. لقد كان هو الذي وضع أساس تلك الثورة الفكرية التي وصل بها الإمام الخميني إلى نتيجة.. وفي موضع آخر من بحثه أكّد الطاقاني على تركيز شريعتي على «العودة إلى الذات»، وأكد على أنه كان أول من اكتشف ما هو موجود وراء المصطلحات الغربية من ديموقراطية وليبرالية من فاشية وعرقية مستترة، وأنه عرض بدلاً منها ذخائر القرآن النفيسة ونقض الغبار التقليدي للقرون عن وجه الإسلام[١].

---

(١) «تشيع: «مقاومت وانقلاب» مجموعة مقالات كنفرانس بين المللى دا نشگاه تل أويو ١٩٨٤ بحث منجول بيان محمود طالقاني وانقلاب إيران.. طهران ١٣٦٨هـ. ش ص١٢٦ ـ ١٢٧.

٤ ـ والواقع أن شريعتي في تناوله لبعض معتقدات الشيعة كان أحياناً يتجاوز مرحلة التفسير الجديد إلى مرحلة الرفض الكامل، وكان رفضه أحياناً يضرب في مقتل من الهيئة الدينية، ويضرب اختصاصاتها في الصميم، ومن قبيل هذا الرفض الذي لا يغتفر عند الهيئة الدينية مفهومه عن الاجتهاد وعن التقليد، فالاجتهاد في رأيه مبدأ ثوري حتمي ومستمر في الإسلام، والاجتهاد الحقيقي هو الذي يمكن المجتهد من معرفة التناقض بين التفسير التقليدي للإسلام ومتطلبات الحياة المعاصرة أو القضايا المستحدثة، والاجتهاد هو الإصلاح وتجديد النظر من أجل الوصول إلى نظريات جديدة. كل هذا يمكن أن يقبل، لكن ما لا يمكن أن تقبله الهيئة الدينية أن يرى شريعتي أن المسلم العادي ـ وإن لم يكن مجتهداً ـ يستطيع أن يقوم بهذا العمل. . ومن هنا فليس الاجتهاد حكراً على تلك الطريقة المسماة بطبقة المجتهدين.

وينتقل شريعتي إلى الحديث عن أخطر أصول التشيع المعاصر وهو أصل التقليد. . فيرى أن التقليد (وهو الطاعة المطلقة والتبعية لأحد الفقهاء الكبار) ينبغي أن يكون للأفكار لا للأشخاص، فالتقليد للأشخاص قد يكون سبباً في انحطاط وعي الإنسان العادي والإيقاع به في الشرك. . ومن هنا يرى شريعتي أن المؤمن الذي ينظر إلى مرجع التقليد مجرد نظرته إلى شخص أكثر علماً أو أقل علماً ولا ينظر إلى أفكاره هل هي متسقة مع العقل أو غير متسقة معه. . فإنه يرتكب ذنب الشرك، فإن هذه الطاعة العمياء تناقض التوحيد الذي يدعو إلى الإتجاه إلى الله وحده والاعتماد

على الله وحده. . والتقليد بالمفهوم الشيعي ـ أي الطاعة التامة لمرجع من المراجع ـ يؤدي إلى فقدان التقليد لمغزاه الحقيقي. . فالتقليد في الحقيقة ضروري من أجل العوام في حين أنه حتى العامي يملك القدرة على التمييز بين الأفكار المتناقضة(١). . وبعد أن انتشر التقليد في العالم الإسلامي (حتى العالم غير الشيعي فإن التكتلات حول كبار المشايخ في العالم السني هي نوع من التقليد). . فإن زخم الإجتهاد الذي بلغ قمته في أوائل هذا القرن. . قد أخذ في النزول.

وربما اتخذ بعض العلماء من هذه الأفكار تكئة لاعتبار شريعتي مفكراً ذا رؤية دينية إسلامية لا تعترف بالقيادة الدينية التقليدية، لكن شريعتي في الحقيقة لم يكن رافضاً لطبقة رجال الدين في حد ذاتها، بل كان كل اعتراضه منصباً على عجز هذه الطبقة على إقامة جسور مؤثرة مع طبقة الشباب. . وربما كان هذا الموقف نتيجة حتمية لموقف مرتضى مطهري عندما ترك حسينية الإرشاد بعد انضمام شريعتي إليها على أساس أن التيار الذي كان يتبناه شريعتي ويسري بين الشباب لم يكن التيار المقبول لدى الهيئة الدينية. . وقد ألمعنا إلى أن هذه النظرة كانت ذات آثار بعيدة المدى على الساحة الإيرانية بعد نجاح الثورة الإسلامية، وعندما كانت فصائل المقاومة تقابل بصدورها العارية رصاص جيش الشاه وشرطته لم يكن هناك وقت لفحص إسلام كل فصيلة، ورؤية عما إذا كان هذا هو الإسلام الحق

(١) بحث عبد العزيز ساشادنيا «علي شريعتي ايدئولوگ انقلاب إيران» في «شريعتي درجهان» ص٧٩.

بميزان رجال الدين أولاً . . لكن الفرصة كانت سانحة فيما بعد وخاصة منذ أواخر سنة ١٩٨٠ لكي يصبح «إسلام رجال الدين» هو مقياس البعد عن السلطة أو القرب منها . . وزُجَّ باسم شريعتي في معركة لم يكن له يد فيها ، وكان في كتابات شريعتي التي كانت تطبع وتوزع على نطاق واسع ـ وربما داخل بعض طبعتها بعض الحشو والزيادة بما يوافق مقتضى الحال ـ أقول : كان في هذه الكتابات ما لم يعد رجال الدين يستطيعون الصبر عليه . . وخاصة وهم على قمة السلطة . وفي حين أن التقليد أصل من أصول التشيع وإن كان من الأصول التي اتسع مفهومها على يد مرتضى الأنصاري في منتصف القرن التاسع عشر . . ويمكن الاختلاف فيه وتقبل هذا الاختلاف بشكل أو بآخر . . فقد تعرض شريعتي أيضاً لبعض الأصول التي تعد من أساسيات التشيع . . ومنها مبدأ «الوصاية» فقد كان يرى أن الوصاية تعد تعييناً بالاسم . . وهي لا تقف أمام مبدأ الشورى الذي يعد من قبيل الاختيار وينبغي احترام أصحاب الشورى كاحترام أصحاب الوصية تماماً . . هذا في حين أن الشيعة يرون أن الشورى لم تكن شورى وأنها أمر دبر بليل لحرمان علي عليه السلام ، من حقه . . وهو أمر أشار إليه شريعتي نفسه في بعض أعماله . . لكن مسألة وضع الشورى مع الوصاية في مستوى واحد أمر لم يكن الفقهاء على استعداد لقبوله بأي حال من الأحوال .

٥ ـ كان شريعتي في الحقيقة يعاني ما يعانيه المثقفون المؤمنون بالإسلام كركيزة ثقافية ومنطلق سياسي من الدارسين للمذاهب والاتجاهات الأخرى ، لكنهم يرون فقهاء الإسلام الكبار

لا يهتمون بما يجري في العالم ـ بل في بيئاتهم هم ـ في هذا العصر، ويحبسون أنفسهم في إطار مفاهيم قديمة وقضايا قديمة، ويصدق هذا على فقهاء الشيعة وفقهاء السنة على السواء، فالمسلمون لم يعودوا في حاجة إلى الهداية بمفهومها القائم لديهم، ومن المفروض أن الخطاب الإسلامي خطاب عالمي، وليس من المطلوب أن يخاطب الفقيه جماعات المؤمنين المترددين على المساجد فحسب، بل عليه أيضاً أن يوجه خطابه إلى جماعات عديدة تعيش داخل المجتمع. . وليس لها من الإسلام إلاّ الأسماء. . ولا يهمها الإسلام في قليل أو كثير. . وهؤلاء لا يجدي معهم الخطاب «المنبري»، والذي تبنته بكل أسف الإذاعات الدينية التي تبث في أكثر من بلد «إسلامي» ساعات عديدة من الليل والنهار. . والواقع أن شريعتي في هذا المجال يلتقي مع فقيه فقهاء عصره الإمام الخميني ـ رضي الله عنه ـ فقد كان يأخذ على الفقهاء المعاصرين الذين سماهم «فقهاء الحيض والنفاس» و«وعاظ السلاطين» غربتهم الغريبة على الجماهير وعما تعاني منه هذه الجماهير في الحقيقة وانصرافهم إلى أبحاث ذهنية شديدة التعقيد في مسائل فرعية وهامشية. . ولم يكن شريعتي بالذي تفوته مواقف آية الله الخميني فقد أشاد بها في أكثر من موضع، كما أشاد أيضاً بأسلوب التفكير عند العالم الشهيد محمد باقر الصدر.

لم يكن شريعتي يكتفي بمجرد الهجوم، فقد كان يقدم المقترحات التي تبين الصورة المثلى التي ينبغي أن يكون عليها عالم الإسلام ونمط التربية الذي ينبغي أن يخضع له، فعليه في البداية أن

يكون عالماً بسيرة الرسول، ﷺ، وسنته قولاً وفعلاً؛ لأن موقع الرسول في المجتمع القرآني موقع قائم بذاته لا يستطيع أن يسده سواه، وعليه أن يكون على علم دقيق بتاريخ الإسلام وسير الصحابة والأئمة من آل البيت ويتخذ منهم أسوة حسنة في خلقهم وإيمانهم ووفائهم، وعليه أن يكون واسع الإحاطة بالثقافة الإسلامية متخصصاً في فرع من فروعها كالقانون أو الفلسفة أو التاريخ. . وربما فات شريعتي أن يذكر أن على الفقيه أن يكون عالماً بلغة من لغات العصر مطلعاً على ما يدور في العالم، لقد كانت رواية سلمان رشدي المسماة «آيات شيطانية» فضيحة مزدوجة، وفضيحة للحضارة الغربية التي أفرزت هذا المسخ واحتضنته. . وفضيحة أيضاً بالنسبة لعلمائنا الذين اكتفوا بالسب والشتم ولم يهتم أحدهم ببيان عناصر السقوط في الرواية فناً وشكلاً ومضموناً.

ولم يكن شريعتي كمصلح داخل المذهب الشيعي يسكت على موقف مستحب من مواقف رجال الدين، لكنه كان يعتبر الآخرين الذين لا يلعبون أي دور اجتماعي أو سياسي في حياة المسلمين «الكهنوت الإسلامي» بالفعل الذي لا يختلف في كثير أو قليل عن الكهنوت الكنسي (في العصور الوسطى بالطبع وإلا فإن الكنيسة الآن تلعب دوراً سياسياً مهماً جداً في العديد من مراكز وجودها ولم تعد هناك مسافة تذكر بين الله وقيصر)!!

وهذا هو الدور الحقيقي الذي لعبه شريعتي: الدعوة إلى إسلام لا يقف على الهامش، ولا يحبس في المسجد، ولا ينزوي أمام الدعوات المعاصرة الجذابة عن العدالة والحرية والمساواة، بل

يقف أمامها ويبين أنه سبقها، وأنها ليس ـ كما يبدو ـ يفتقر إلى هذه الأصول؛ لأنه لم يستخدم مصطلحاً لم يظهر إلا منذ بضع سنوات، ويبين أن التشيع العلوي وهو التشيع الأصيل الذي يختلف عن هذا المسخ الموجود والذي يسميه «بالتشيع الصفوي» يحتوي على كل هذه المبادىء ويقدم الصورة المثلى لكل مبادىء التشيع.. ويستطيع المسلم الشيعي إن عاد إلى أصول تشيعه.. كما يستطيع المسلم السني إن عاد إلى أُصول مذهبه.. أن يلتقيا معاً متكاتفين في تقديم إسلام يستطيع أن يقف أمام الغرب في الخارج، وأما التغريب في الداخل، يقول في خطاب أرسله إلى ولده: «إن الحديث يدور عن مجتمع نصفه نائم مخدور مسحور ونصفه اليقظان هارب، نحن نريد أن نوقظ النائمين ليقفوا على أقدامهم ونعيد الهاربين الفارين ليبقوا»، ومن هنا يدق شريعتي كثيراً ـ ويتضح هذا من المجموعة التي بين أيدينا ـ على أسلوب فهم المثقفين للدين، ودور هذا الفهم الخاطىء في الحض على كراهية الإسلام وزيادة عدد الهاربين منه يوماً بعد يوم، ويعد الفهم الصحيح للإسلام علاجاً من الغربة عن الذات، والتشبه والفراغ الروحي والفكري والعبودية التامة، تلك العبودية النابعة من داخل من ابتلى بها، عبودية من سلبت منه أُسس ثقافته وفكره، وانقلب إلى مستهلك لما يفرض عليه من قوى مسلطة عليه.. انقلب إلى مجرد آنية خالية تبتلع كل ما يضعه فيها الغرب المسيطر على العالم»[١].

---

(١) علي شريعتي: آرى اينچنين بود برادر ص٢٨ ـ ٢٩ وانظر بشكل موسع: العودة إلى الذات للمترجم.

ويعتبر شريعتي أن التشيع بعد تنقيته هو بديل للتغرب والماركسية، حينذاك يكون تشيّعاً فعالاً سياسياً وثورياً مجدداً يقوم على أساس من الرؤية الكونية للتوحيد، وهو يرى أن هذا التشيع هو التفسير المتجدد للقرآن وتاريخ صدر الإسلام والتاريخ الإسلامي وأنه يستمد من وجهات نظر سوسيولوجية ونفسية.. وهو مذهب مسيس في الأساس، فهو مذهب الصراع الدائم من أجل العدالة الإجتماعية والمساواة وهو مذهب الاعتراض على «الوضع القائم» وهو من ثم الوسيلة الوحيدة الصالحة لنجاة المجتمع الإيراني(١).

وبالرغم من هذه النبرة الشيعية العالية قد ينزوي التشيع في فكر شريعتي تاركاً موضعه للإسلام «الرسالي» إسلام ما قبل المذاهب، وقد استخدم هذا المصطلح كثيراً في بدايات الجمهورية الإسلامية في إيران، كانت الثورة المنتصرة تريد أن تتجاوز جانبها المذهبي وتطمح إلى احتواء الأغلبية السنية، لكن هذا في حد ذاته كان سبباً في خشية العديد من المشايخ الذين لم يكونوا على استعداد لقبول تضحية الثورة بالتشيع في سبيل هدف قد لا يتحقق.. ولو كان هذا على المستوى التكتيكي فهناك قضايا لا يمكن الاقتراب منها أهمها تشيع إيران ووحدتها داخل حدودها.

على كل حال يعد هذا الجانب الرسالي من أفكار شريعتي

---

(١) بحث براد هانسون: غرب زدگی در إيران از ديدگاه صمد بهرنكى جلال آل أحمد وعلي شريعتي» في «شريعتي درجهان» ص١٦٣.

جانباً خفياً قلما تعرض الباحثون له ـ كأن يرى أن الأسلوب الرسالي في معالجة الأمور يختلف كثيراً عن سائر الأساليب المحافظة والثورية والاصلاحية، فأصحاب الأساليب المحافظة ينادون بالحفاظ على المجتمع بكل خرافاته فهم حراسه، فالمحافظ يرى أن مجرد الإصلاح يعني خلع الشجرة من جذورها. . ومنبع العلاقات الإجتماعية عنده في سيادة التقاليد أياً كانت هذه التقاليد. . أما الثوري فهو على العكس يرى أن الحفاظ على التقاليد الموروثة من قبيل الجمود الاجتماعي وأن من الضروري اقتلاعها من جذورها. . بينما يقف الإصلاحي موقفاً وسطاً فهو يرى أنه ينبغي أن تمهّد الأرضية الإجتماعية للتطور التدريجي. . ويختلف الأسلوب الرسالي عن الأساليب الثلاثة السابقة، إنه يأتي إلى التقليد الراسخ فيأخذ شكله ويحافظ عليه، لكنه يمنحه مفهوماً ثورياً. .

فالرسول، عليه الصلاة والسلام، كان يحافظ على بعض التقاليد التي رسخت بجذورها في المجتمع، لكنه كان يغيّر محتواها واتجاهها ونمط ممارستها. . ويضرب شريعتي مثالاً على الأسلوب الرسالي بالحج. . فقد كان العرب في الجاهلية يطوفون بالكعبة المليئة بالأصنام، وكانوا يعتقدون أن إبراهيم الخليل عليه السلام، كان قد بنى الكعبة من أجل أن توضع فيها الأصنام، لكن الرسول، عليه الصلاة والسلام، بدّل هذا الحج الجاهلي ـ مع الاحتفاظ بكل مراسمه ـ إلى أعظم وأعمق ما يمكن أن يعبر عن وحدانية الله سبحانه وتعالى. . لقد احتفظ الإسلام بالمراسم لكنه أكسبها مفهوماً ثورياً. . ومثل هذا الأسلوب جعل العرب أقل نفوراً من الدين

الجديد. . لقد تغيروا دون أن يحسوا بأن ثمة تغيراً ظاهرياً قد تم. . التغير هنا من الباطن وفي الأعماق. . ويرى شريعتي أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل الذي ينبغي أن يتبعه المفكرون الذين يتميزون باليقظة وهو الأسلوب الأمثل للوصول إلى نتائج ثورية دون خسائر تذكر. . ومن أهم مميزات هذا الأسلوب أن المفكر الذي ينتهجه لا يجد نفسه بعيداً عن المجتمع وعن الجماهير (وهم ميدان عمله). . واستطاع شريعتي نفسه عن طريق هذا الأسلوب أن يؤسس سوسيولوجيا إسلامية وفلسفة تاريخية إسلامية وعلم إنسان إسلامي كلها مبنية على أساس من التوحيد[١].

ثانياً: هذا الكتاب:

يذكر شريعتي عادة بأنه ذلك المفكر الواعي الذي استطاع بفكره الحي الذي يتعامل مباشرة مع معتقدات الجماهير أن يحمي الأغلبية الساحقة من الشباب الإيراني من التردي في حمأة الماركسية التي كانت قد طرحت في الساحة كبديل للجبهة الوطنية وغيرها من أشكال النضال التقليدي. .

كان شريعتي بطرحه للإسلام على وعي بأنه يطرح شكلاً من أشكال النضال قد شوه وابتعد عن واقعه الأصيل بل وتحول إلى إطار معرفي غير مفهوم من أنصاره وأعدائه على السواء، أما الأنصار فهم يدافعون عن إسلام لا يمكن الدفاع عنه فيلجأون إلى طرق

---

(١) بحث سروش عرفاني: علي شريعتي معلم انقلاب في شريعتي درجهان ص٢٢٤ - ٢٢٩.

وتفسيرات تزيده بعداً عن أصوله، أما الأعداء فهم نافرون كارهون يرون في الإسلام تخلفاً.. ويرى شريعتي أن الحق معهم فإن الذي قدم لهم كإسلام ليس من الإسلام في شيء، ومن هنا كان شريعتي يعمل في مجالين: المجال الأول تنقية الإسلام مما لحق به من شوائب وإعادة وجهه الثوري الذي يغير ويبدل ويخلق.. والمجال الثاني هو بيان كيف انقلب هذا الوجه الثوري شديد التقدمية إلى هذا الواقع الأليم الرجعي الذي يدفع بالشعوب إلى النوم والتكاسل والتواكل. وهذا هو الميدان الجماهيري الذي وجد فيه شريعتي نفسه.. وأولئك الذين تابعوا أحداث الثورة الإسلامية في إيران في عامها الدامي طالما تساءلوا بشغف واسغراب: كيف تحول عاملٌ من عوامل التخدير والتكاسل والقعود و(الاستحمار) في مجتمعات أخرى إلى عامل يقظة وقوة وثورة وحركة في هذا المجتمع؟! الجواب هو: شريعتي وما قام به شريعتي.. وما كتبه شريعتي!!

١ ـ وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدم بعض الأعمال التي تناول فيها شريعتي عملية تنقية مفهوم الدين وإعادته إلى صيغه الأولى وبخاصة تلك الأعمال التي تتسم بالجماهيرية وتتميز بالمباشرة.. وتتصف بهذا الوضوح الذي يميز ما يقدم إلى الجماهير مباشرة من فكر وهي بالطبع غير أعماله الفكرية التي تتسم بالبعد التنظيري مثل «معرفة الإسلام» و«تاريخ الأديان» و«الحضارة والمدنية».

هذا الكتاب هو ترجمة لرسالته الشهيرة «أبي أُمي نحن متهمون» وفيها يتناول شريعتي حيرة الجيلِ الشاب حول ما يرونه من مظاهر الدين وما يقدم إليهم على أنه أُصول الدين، وبين ما

يسمعونه غير مخفين سخريتهم من هذا الدين الذي يرونه. . ويرد عليهم شريعتي متناولاً هذا الذي يحتجون عليه مظهراً مظهراً وشعيرةً ومبيناً إلى أي مدى ابتعدت هذه الشعائر عن أصولها وكيف انقلبت هذه العقائد إلى غير المراد منها تماماً.

وغني عن الذكر أن المناقشة هنا لا تتناول مدى صحة المذهب الشيعي من عدمها ومدى حقانيته أو بطلانه. . فليس هذا مجاله. . المقصود هنا بيان كيف استطاع مفكر واع وعظيم مثل شريعتي أن يتعامل مع المادة الموجودة تحت يده ويحولها من مادة خمول وضعف واستكانة واستسلام إلى مادة نضال وثورة وحركة وتغيير. . ومعجزة. . وهو أمر لا يمكن فهمه عن طريق التلخيص. . بل هو في حاجة إلى قراءة كاملة ومتباينة عن النص الذي أرجو أن أكون قد وفقت في نقل «روحه» لا «كلماته» فضلاً عن أن النصوص تقدم روحاً «شيعية» خطيرة جداً لم يستطع شريعتي وهو الفيلسوف (التقدمي الموضوعي) أن يتخفف منها في مواضع عديدة من كتابه وقد آثرت تركها كما هي لكي يكون الإتجاه الشيعي معلوماً تماماً.

هذا ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق. . وليس من العبد إلا جهد المقل.

العمرانية في ٢٧ صفر سنة ١٤١١هـ
١٨ سبتمبر سنة ١٩٩٠م
د. إبراهيم الدسوقي شتا
أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

مقدمة

ليلة عاشوراء، في مشهد، كنت في حيرة: ماذا أفعل؟! وكيف أقضي الليلة؟!! فكرت في أن أذهب إلى المجالس المنعقدة، استمع إلى الروضة وسير المصيبة.. لكني صرفت النظر.. لم يكن عندي مزاج للبحث والمطالعة.. ولم أكن أستطيع أن أواصل أعمالي العادية العلمية والدراسية.

كانت ليلة غير عادية، وكان ما أحس به إحساساً غير عادي. قلت: الآن وقد حرمت من الذهاب إلى الروضة والاستماع إلى «تاريخ» المصيبة.. فمن الأفضل أن أكتب أنا «روضة».. وهكذا كان.. جلست وكتبت روضة هي التي أقرأها عليكم الآن، ومتن هذه الروضة ألهمته من زيارة «وارث».. تعلمون أن «الوارث» خطاب إلى الإمام الحسين، وعلى خلاف ما نقوم به من مدح أجوف للأئمة ومبالغ فيه.. فالمدائح الموجودة في رسالة الزيارة هذه عميقة وصادقة وتعلم:

السَّلاَمُ عَلَيْكَ يا وٰارِثَ آدَمَ صَفْوَةِ ٱللَّهِ أَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ يا وٰارِثَ

نُوحٍ نَبِيِّ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا وٰارِثَ إِبْرٰاهِيمَ خَلِيلِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ
عَلَيْكَ يٰا وٰارِثَ مُوسىٰ كَلِيمِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا وٰارِثَ عِيسىٰ رُوحِ
ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا وٰارِثَ مُحَمَّدٍ حَبِيبِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا
وٰارِثَ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا وٰارِثَ ٱلْحَسَنِ ٱلشَّهِيدِ
سِبْطِ رَسُولِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَٱبْنَ رَسُولِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰابْنَ
ٱلْبَشِيرِ ٱلنَّذِيرِ وَٱبْنَ سَيِّدِ ٱلْوَصِيِّينَ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰاْبْنَ فٰاطِمَةَ سَيِّدَةِ
نِسٰاءِ ٱلْعٰالَمِينَ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا أَبٰا عَبْدِ ٱللَّهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا خِيَرَةَ
ٱللَّهِ وَٱبْنَ خِيَرَتِهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا ثٰارَ ٱللَّهِ وَٱبْنَ ثٰارِهِ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ
أَيُّهٰا ٱلْوِتْرُ ٱلْمَوْتُورُ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهٰا ٱلْإِمٰامُ ٱلْهٰادِي ٱلزَّكِيُّ وَعَلىٰ
أَرْوٰاحٍ حَلَّتْ بِفِنٰائِكَ وَأَقٰامَتْ فِي جِوٰارِكَ وَوَفَدَتْ مَعَ زُوَّارِكَ أَلسَّلامُ
عَلَيْكَ مِنِّي مٰا بَقِيتُ وَبَقِيَ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهٰارُ فَلَقَدْ عَظُمَتْ بِكَ ٱلرَّزِيَّةُ
وَجَلَّ ٱلْمُصٰابُ فِي ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُسْلِمِينَ وَفِي أَهْلِ ٱلسَّمٰاوٰاتِ
أَجْمَعِينَ وَفِي سُكّٰانِ ٱلْأَرَضِينَ فَإِنّٰا لِلّٰهِ وَإِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ وَصَلَوٰاتُ
ٱللَّهِ وَبَرَكٰاتُهُ وَتَحِيّٰاتُهُ عَلَيْكَ وَعَلىٰ آبٰائِكَ ٱلطَّيِّبِينَ ٱلْمُنْتَجَبِينَ وَعَلىٰ
ذَرٰارِيهِمُ ٱلْهُدٰاةِ ٱلْمَهْدِيِّينَ أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا مَوْلاٰيَ وَعَلَيْهِمْ وَعَلىٰ
رُوحِكَ وَعَلىٰ أَرْوٰاحِهِمْ وَعَلىٰ تُرْبَتِكَ وَعَلىٰ تُرْبَتِهِمْ أَللَّهُمَّ لَقِّهِمْ
رَحْمَةً وَرِضْواناً وَرَوْحاً وَرَيْحٰاناً أَلسَّلامُ عَلَيْكَ يٰا مَوْلاٰيَ يٰا أَبٰا عَبْدِ
ٱللَّهِ يٰاْبْنَ خٰاتَمِ ٱلنَّبِيِّينَ وَيٰاْبْنَ سَيِّدِ ٱلْوَصِيِّينَ وَيٰاْبْنَ سَيِّدَةِ نِسٰاءِ

ٱلْعَالَمِينَ أَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ يٰا شَهِيدُ يَٱبْنَ ٱلشَّهِيدِ يٰا أَخَ ٱلشَّهِيدِ يٰا أَبَا ٱلشُّهَدَآءِ أَللَّهُمَّ بَلِّغْهُ عَنِّي فِي هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ وَفِي هٰذَا ٱلْيَوْمِ وَفِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ تَحِيَّةً كَثِيرَةً وَسَلاٰماً سَلاٰمُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكٰاتُهُ يَٱبْنَ سَيِّدِ ٱلْعٰالَمِينَ وَعَلَىٰ ٱلْمُسْتَشْهَدِينَ مَعَكَ سَلاٰماً مُتَّصِلاً مٰا ٱتَّصَلَ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهٰارُ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلشَّهِيدِ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلشَّهِيدِ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلشَّهِيدِ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلشُّهَدَآءِ مِنْ وُلْدِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلشُّهَدٰآءِ مِنْ وُلْدِ ٱلْحَسَنِ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلشُّهَدٰآءِ مِنْ وُلْدِ ٱلْحُسَيْنِ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ ٱلشُّهَدٰآءِ مِنْ وُلْدِ جَعْفَرٍ وَعَقِيلٍ أَلسَّلاٰمُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْتَشْهَدٍ مَعَهُمْ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَبَلِّغْهُمْ عَنِّي تَحِيَّةً كَثِيرَةً وَسَلاٰماً أَلسَّلاٰمُ عَلَيْكَ يٰا رَسُولَ ٱللَّهِ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَكَ ٱلْعَزٰاءَ فِي وَلَدِكَ ٱلْحُسَيْنِ أَلسَّلاٰمُ عَلَيْكِ يٰا فٰاطِمَةُ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَكِ ٱلْعَزٰآءَ فِي وَلَدِكِ ٱلْحُسَيْنِ أَلسَّلاٰمُ عَلَيْكَ يٰا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَكَ ٱلْعَزٰآءَ فِي وَلَدِكَ ٱلْحُسَيْنِ أَلسَّلاٰمُ عَلَيْكَ يٰا أَبَا مُحَمَّدٍ ٱلْحَسَنَ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَكَ ٱلْعَزٰآءَ فِي أَخِيكَ ٱلْحُسَيْنِ يٰا مَوْلاٰيَ يٰا أَبَا عَبْدِ ٱللَّهِ أَنَا ضَيْفُ ٱللَّهِ وَضَيْفُكَ وَجٰارُ ٱللَّهِ وَجٰارُكَ وَلِكُلِّ ضَيْفٍ وَجٰارٍ قِرىً وَقِرٰايَ فِي هٰذَا ٱلْوَقْتِ أَنْ تَسْأَلَ ٱللَّهَ سُبْحٰانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنِي فَكٰاكَ رَقَبَتِي مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّهُ سَمِيعُ ٱلدُّعٰاءِ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

هذا الرجل ـ الحسين ـ على مدى تاريخ الإنسان وارث لميراث عظيم هو ميراث آدم، الحسين وارث هذا الميراث الذي يعد أعظم ميراث في التاريخ، ومن بداية التاريخ وإلى الأبد. ذلك الميراث الذي ينتقل يداً بيد، ويصل إلى الحسين، هو ميراث آدم.

وأنا أبذل جهدي في هذا المتن كي أوضح ما هو ميراث آدم الذي يعد أعظم ميراث في التاريخ، ومن الواجب أن أقول: إنني كتبت هذا لا لأقرأه في مكان ما، أو أدعو به، لكني كتبته لنفسي، ومن هنا يحتوي على إبهام شديد، فلم أبذل أي مجهود من أجل توضيح العبارات، كل ما بذل من جهد إنما كان من أجل أن أبوح بكل «عقدي» و«عقائدي» في هذا الحيز الضيق!!

على كل حال، هذا المتن وليد مثل هذا الإحساس، ومثل تلك الليلة، وغوامضه من نفس هذه الأسباب. وأنا عن طريق هذه المقدمة والتوضيحات أسعى إلى الحد من غموضه قليلاً!!

إن ساحة صراع الإمام الحسين ـ وهو موضوع الحديث ـ هي بلاد ما بين النهرين. أي البلاد التي تقع بين نهري دجلة والفرات ـ هي العراق اليوم ـ وفيها وهذا من العجب العجاب نشاهد تشكل سبعة آلاف سنة من التاريخ، تاريخ حوادث عظيمة ذات صلة مباشرة بثقافتنا وديننا، أعظم البعثات وأعظم الجرائم كلتاهما تحدث في أرض ما بين النهرين هذه. وفي شمال ما بين النهرين جار تركيا الحالية التي كانت من قبل بيزنطية أو الأمبراطورية الرومانية الشرقية، ومن ذلك المكان. شمال ما بين النهرين، ينبع

نهران. . نهران ينبعان من نبع واحد، ويفيضان من ثلاجات (تلك الجبال)!!

ومن أرض الامبراطورية الشرقية ـ وهي في حد ذاتها تاريخ عظيم ـ في تلك الجبال الشمالية، نبع يستمد من مياه الجبل وثلوجه، وعندما ينصب قليلاً قليلاً. . يتشعب إلى شعبتين: تسمى إحداهما دجلة والأخرى الفرات. . هذان النهران الأخوان، يتباعدان كل عن الآخر ويشتدان بعداً، وبالقرب من بغداد يقتربان ويزدادان قرباً، وبالتقائهما معاً يؤلفان شط العرب أو «اروند رود» ثم يصبان على الفور في الخليج الفارسي!!

وهنا يوجد عدد من الرموز، أي رموز القضايا والحقائق التاريخية والإنسانية، وشمال هذين النهرين، وفي تلك العين العالية المرتفعة، حدثت قضية دقلديانوس وأصحاب الكهف، ورست سفينة نوح كما يقول الباحثون والمؤرخون في نفس ذلك الجبل، وهذان النهران يصلان إلى بلاد ما بين النهرين متباعدين ويطويان مسيرة بلاد ما بين النهرين منفصلين، في الجزء الشمالي توجد «آشور» أرض الحضارة الوحشية الخطرة، ثم أرض «أكد» وأرض «بابل» ـ حيث كان معبد بابل العظيم، ثم أرض «سومر» في جنوب ما بين النهرين حيث وجدت أول ـ أو أعظم ـ حضارة بشرية قديمة. . وفي نفس ذلك المكان كانت مدينة «أور» و«نيب بور» مسقط رأس إبراهيم عليه السلام، وموضع ذلك المعبد وبيت الأوثان الذي حطم إبراهيم الأصنام فيه وعلق «هراوته» في رقبة صنمه الأكبر، هذا التحطيم العظيم للأوثان في التاريخ يحدث في

ذلك المكان، نحن نرى أن بعثة إبراهيم حدثت في نفس ذلك المكان. وقصة نوح في نفس ذلك المكان، وقصة دقلديانوس وأصحاب الكهف في ذلك المكان، وقصة الطوفان العظيم وسفينة نوح في نفس ذلك المكان، وأعظم مآسي التاريخ حدثت أيضاً في ذلك المكان، . . ثم إن مأساة كربلاء تقع أيضاً في نفس ذلك المكان!!

ومن هنا، فإن أرض ما بين النهرين ذات الماضي التاريخي الذي يمتد إلى سبعة آلاف عام. . تمثل مظهراً للأرض كلها والتاريخ كله. . وهذان النهران عبارة عن التيار التاريخي للبشر، كما أنه في فلسفة التاريخ والتاريخ الإسلامي. . وفي القرآن. . تعد المعركة بين هابيل وقابيل بداية للتاريخ. . وهذه المعركة لا تزال مستمرة. . وفي مسيرة التاريخ ينفصل هذان التياران التاريخيان كل عن الآخر، هاتان الطبقتان، هاتان السلطتان، هاتان القوتان الإنسانيتان. . وأصلهما واحد، إنسان واحد هو آدم، لكن التاريخ والحياة المادية قد فصلت كلاً منهما عن الآخر. . والحق والباطل قد بدلا الإنسان ذا النغمة الواحدة إلى قطبين متخاصمين[١].

وبازدياد التفاوت الطبقي عمقاً. . تحتدم المعركة تدريجياً بين

---

(١) انظر تفسيراً مفصلاً لقصة قابيل وهابيل كبداية للتاريخ الحقيقي للإنسان في: العودة إلى الذات ترجمتنا وتأليف علي شريعتي. . والفكر السياسي الإسلامي المعاصر تأليف حميد عنايت وترجمتنا.

هذين القطبين من التاريخ حتى تصل إلى الأوج . . وهذان النهران دجلة والفرات أيضاً وهما رمز لهذا التيار التاريخي يخضعان بالمصادفة لنفس المصير ، فعند بدايتهما من الشمال بنبعان من منبع مشترك ، ثم ينفصلان قليلاً قليلاً ويتحدان حتى قرب بغداد التي هي رمز الحضارة والخلافة الإسلامية . . يقترب هذان التياران بشكل كاذب كل من الآخر . . يتصل النهران كما يتصل التياران التاريخيان معاً ، ويصنعان شط العرب ، تماماً كما أنه لم يعد الباطل بعد يميز عن الحق ! ! ثم وفي النهاية فإن هذين التيارين المتناقضين في التاريخ ، أحدهما دجلة والآخر الفرات ، أحدهما حق والآخر باطل . . يصلان في النهاية إلى البحر على وتيرة واحدة ثم بشكل متساو ، لكنها مساواة في نهاية التاريخ آخر الزمان ، مساواة العدل والحركة ، على خلاف تلك المساواة التي كانت في بداية التاريخ ؛ مساواة الجمود والوحشية . . وهذان النهران رمز هذين المصيرين ، هما بداية تاريخ البشر ونهايته ، هما الرمزان الأساسيان في هذا المقال . . وإليكم المقال ! !

وراثة آدم:

ستارة من الدم تنسدل أمام عيني .

في أرض التاريخ ، أرى هذين النهرين الأخوين القريبين اللذين هما ماءٌ واحد ، يسرعان نحو هدف واحد ، أراهما يصبحان اثنين ، ويبتعد كلّ عن الآخر في مسيره ، يبتعدان ويزدادان بعداً . . وبالقرب من بغداد يقتربان ويزدادان قرباً . . وفي نهاية أرض التاريخ

يلتقيان معاً، ويصبحان واحداً: شط العرب!! وفي نهاية المطاف يصلان إلى الهدوء والسكينة الأولى، لكن ليس في جمود الأراضي الجبلية.. بل في سيولة المحيط.. من ارتفاع جبال الشمال ومن قلب الثلاجات الطبيعية يسيلان معاً بحيث يحتضنان معاً الذكريات المتجمدة لسفينة نوح، وغار أصحاب دقلديانوس القدماء الذين هربوا إلى الحرية.. وفي مسيرة التاريخ المزدوجة يمران من مدن الجبارين والأنبياء، وإلى جوار القصور والأكواخ والمعابد وزنزانات التعذيب، ومتاعب الرومان وآشور وكلده واكد وبابل، وأور ونيب يور، ومدائن كسرى، وبغداد الخليفة وكنوزها، جنباً إلى جنب، حيناً يتباعدان وحيناً يقتربان.. وبغضب وضجة شديدة يصبان في سكينة الصحراء بين نواويس وكربلاء، ثم في مهد الخليج الساكن يغوصان معاً.. ويصمتان!!

ستارة من الدم تنسدل أمام عيني:

من الضجة الرتيبة المثيرة للذكريات لدجلة والفرات ـ هذان القريبان الخصمان اللذان سافرا معاً خطوة بخطوة عبر مسيرة التاريخ التي تبلغ سبعة آلاف عام ـ تقوم ضجة وصخب شديدان فإن فرسان آشور الوحشيين، الذين غرسوا عبيدهم وأسراهم في الأرض من القدم حتى الكتف أحياء، ثم ساقوا جيادهم على مزرعة كهذه مهولة، ثاروا من جبانة التاريخ الصامتة، وتقاطروا من شمال ما بين النهرين، وأقاموا من جديد برج بابل العجيب الذي كان قد انهار على مر القرون، ورمموا شرفاته، ووراء كل سياج شرفة كمن حراس السلطات المهولة: «القصور» و«المعابد» و«الخزائن»،

و«بعل». . الإله العظيم الذي كان لعدة قرون يمنح القدسية لسلطة جباري الدين والدنيا في بلاد ما بين النهرين على العبيد والغرباء والمستضعفين الذين لا دين لهم ولا دنيا، وكان يجعل متوليه وحماته يركبون على كواهل المساكين، ويجعل الخلق يطيعون أرباب الأرض بقوة طاعة إله السماء. . بَعَل عاد إلى معبده الذي هو من عجائب الدنيا السبع. . وتحلق حول الكنوز التي جمعها من الأوقاف والنذور والنهب والغنائم من العدو والصديق كأنه تنين أصفر ذا سبعة رؤوس، ورفع من جديد قصر «بخت النصر»، وكلف آلاف العبيد بالعمل فيه، وظهرت فيه من جديد الوجوه المشينة للجلادين وأكلة لحوم البشر، وكانزي الذهب المعروفين الذين دفنوا وراء أسوار القرون. . وعاد بخت النصر إلى عرشه، وأعاد الأسرى المحررين من أرض حريتهم الموعودة، وأعاد الأغلال القديمة في أعناقهم. . ظهرت مدينة أور من تحت أنقاض التاريخ، وظهر معبدها مرة أخرى، ذلك الصنم الكبير الذي علق إبراهيم محطم الأصنام هراوته في رقبته حتى يلقي على كاهله جريمة الأصنام التي حطمها. . ذلك الصنم نصب مرة ثانية على قاعدته وأمره بأن ترمم كل الأصنام الصغيرة. . كما أمروا بأن يعاد اضرام تلك النيران التي صارت على إبراهيم ورودا حمراء بأحطاب[1] جديدة، وأن يلقي محطم أصنام التاريخ ـ الذي كان قد ثار على أسرته وآلهة السماوات وآلهة الأرض ـ بمقلاع الدين في النار المقدسة حتى يعلم ورثته أنه

(١) أو ربما ببئر من آبار النفط الذي أصبح يقف بالمرصاد لكل صاحب رأي حر أو منصف أو حتى باحث موضوعي!! (المترجم).

لا ينبغي أن تحطم الأصنام الصغيرة!!

ثم إنه منصوراً بهزيمة إبراهيم، وترميم الأصنام المحطمة وتجديد بناء معبده المنهدم.. وبمعونة وتدبير مشترك مع رهبانه ومسؤوليه والمتعبدين له، والوسائط بين الخلق والله، والحرس الرسميين للروح والأخلاق والسنة والعبادة الذين عادوا إلى مشهد الإيمان والإمام بموت ذلك الابن العاصي المتمرد على مذهب أسرة آزر نحات الأصنام.. انهمكوا جميعاً في رفع الصرح الإلهي المليء بالجلال للنمرود.

والمدائن، فتحت بواباتها العديدة، وأرباب البيوتات والأساورة، «الفرسان» والدهاقين والموابدة، أولئك الذين كانوا قد تبعثروا بدداً قبل أربعين سنة من سيوف العراة الذين لا خبز في أيديهم، ولا أصل لهم، عادوا إلى المدينة، وعاد كسرى وقد اعتم بعمامة الرسول، ومعه أربعون ألف جمل تحمل حاجيات المطبخ الملكي، وأثنتا عشرة ألف حسناء من أجل «الحريم»، وآلاف المطربين والمنشدين والراقصين، وأفواج المماليك والأغوات، والسادة الشعراء والكتاب ورجال الدين.. وبقية خدم الخلوة والجلوة.. أولئك الذين كانوا قد هربوا منذ أربعين سنة من حد سيف القائد العاري وجيش العراة» اللذين لم يكن لا اللبن ولا لحم الضب يمكن أن يسد جوعهم[1]، يأتون بالوجد

(١) إشارة إلى ما ورد في شاهنامة الفردوسي على لسان رستم قائد فرس القادسية في الجاهلية: لقد بلغ الأمر بالعرب من شربهم للبن الإبل وأكلهم للحم الضب أن يطمعوا في تاج فارس.. فأف لهذا الفلك الدوار.. أف.

والموسيقى وألحان باربد ونكيسا[١]، وبدلاً من هؤلاء العبيد الذين لا فضل لهم والذين طمعوا في عرش الكيانيين وصاروا ملوكاً، عاد الرجال النجباء الأصلاء من الأسر العريقة؛ أسرة قارن التي كان ينبغي أن يكون كل قادة الجيش منها، لكي يستردوا كراسي الحكم التي كانت قد ضاعت منهم، وانتقلت إلى الجماهير عديمة الأصل، ويسبق كل هذا ويتقدمه على جياد ذات سروج وعدة ذهبية مرصعة بالجواهر، غلمان متمنطقون بالفضة يحملون كنوز كسرى ابرويز الخمس والثلاثين: كنز العروس.. وكنز جلب الريح.. إلى آخره.

والآن، سجادة بهارستان.. أرضيتها من الفضة، وترابها ذهب ومرجها زمرد، ونهرها لؤلؤ، وورودها كلها من الماس.. الخلاصة كلها من الجواهر.. سقط الريح.. جلب الريح وهم يحملونها حتى يفرشوا بها قصر المدائن المعوج في دمشق!!

كل تلك الكنوز والسجاجيد والخزائن والدفائن من الذهب والفضة جلب الريح التي كانت قد نهبت في تلك العاصفة المدمرة منذ أربعين سنة على أيدي الجياع، والحفاة المتمردين من العرب والعجم، وكل قطعة منها وكل عملة فيها كانت قد سقطت في يد مغمور لا رأس له من قدم.. لم يكن في دمه «شرف» ولا في أصله عظمة، كلها أخرجت من حلوقهم بسيف «الله» حتى وإن كانت قد أصبحت لقمة خبز في فم طفل، أو جرعة من اللبن في ثدي أم،

---

(١) موسيقيان مشهوران في العصر الساساني (المترجم).

وطحان بلخ[١] ـ الذي كان قد جاء إلى المدينة متظلماً ـ قبضوا عليه مع رفاقه والمتعاطفين معه، وضربوا عنقه دون محاكمة، حتى طفل الاسكاف ذاك برغم حكم أنوشيروان العادل ورأي بوزرجمهر العاقل، كان قد مد يده للتعلم إلى جوار أبناء الكتاب[٢] أخرجوه من المدرسة ووضعوا مخراز أبيه الاسكافي في يده وحملوه عبداً للعراق الأعلى، وقتلوا أباه بتهمة الزندقة.. ونهبوا ثروته غنيمة جهاد.. وباعوا أمه جارية في الأسواق البعيدة!! عجباً!! إن الرؤوس المقطوعة لعشرين ألف مزدكي ضحايا «العدل الإلهي» قد ظهرت مرة ثانية على أسنة الحراب[٣] وعلقوا جنزير العدل الذي كان خاصاً بأنوشيروان في دار خلافة أمير المؤمنين[٤] ومن كان حماراً فحسب من العجزة المظلومين والسذج.. هو الذي كان قد صدق هذا الأمر وتحلق حوله متظلماً!!

والموابدة، نفضوا غبار الحزن والهزيمة عن وجوههم، وسطع ذلك النور الباهر الأهورائي[٥] في وجوههم، وبطيالسهم

(١) طحان بلخ فيما يروى.. جاء متظلماً إلى أنوشيروان فأنصفه.

(٢) ابن الاسكاف أبدى ذكاء ملحوظاً، فاقترح بزرجمهر وزير أنوشيروان أن ينضم إلى أبناء طبقة الكتاب في التعلم رغم السدود الهائلة التي كانت تفصل بين طبقته وطبقة الكتّاب في العصر الساساني، ولم يقبل أنوشيروان بالرغم من أن الاسكاف (الذي كان غنياً) عرض مبالغ طائلة للخزينة في مقابل تعليم ابنه.

(٣) عشرون ألف مزدكي قتلوا في عهد أنوشيروان بعد أن أفحم مزدك في نقاشه مع كبير الموابدة وضحى بهم أنوشيروان حقيقة لأنهم أيدوا أخيه في ولاية العهد!! (المترجم).

(٤) جنزير علقه أنوشيروان على بابه حتى يحركه كل متظلم فيخرج إليه. يروى من أساطير إيران القديمة.

(٥) الآهورائي أي نسبة إلى آهورا مزدا آلهة الخير.

الطويلة الفخمة ولحاهم الطويلة المرسلة تقاطروا خارجين من مخابئهم السوداء وراء موبذ الموابدة، يسرعون بحماس الإيمان نحو المساجد حتى يشعلوا من جديد معابد النار الباردة المطفأة ولهب الشرك الخادع الذي كان قد أطفىء دفعة واحدة بعاصفة التوحيد. ومرة ثانية بنفثاتهم الساحرة يضيقون أبواب المحاريب حتى يعيدوا أهريمن[١] ثانية بعد أن كان قد سقط من قمة ملكوت الخلقية والربوبية لأكثر من نصف العالم والبشر والشركة والمنافسة لأهورامزدا. . وصار مخلوقاً عاجزاً مصاباً بالوسوسة مختفياً داخلي وداخلك. . وفي الملامح الأهورائية للموابدة وموبذ الموابدة يعيدونه ثانية إلى مقام الألوهية على العالم.

والله. . الذي كان هو الوجود كله. . ومن أقارب الإنسان، وكل البشر سواسية أمامه، وهو موجود إلى جوار الناس والجماهير التي لا صاحب لها، هو أسرتهم وشرفهم، وهو أرحم الراحمين بأهله، أو أشد، تعصباً بالنسبة لشرفه، وكل الأقوام والأعراق والأجناس سواسية في نظره، والناس في مذهبه صنفان: أطهار وأنجاس، وهو عدو للذهب والقوة والاحتيال. . وهو أكثر غضباً من الجميع على هذا الصنف الثالث مَثَلُهُ عنده كمثل «الكلب» و«كمثل الحمار». . الله هذا قد حملوه من الأفهام بقوة الجهاد وذهب الزكاة وزهد الإمام. . وبدلاً منه أعادوا شركاً مشؤوماً اصطنعه القائمون الرسميون على الدين من توحيد إبراهيم وموسى

(١) أهريمن هو إله الشر والظلام.

وعيسى وزردشت[١]، وألبسوا الثنوية قباء «مشيئة الله» حتى تجد ثنوية «الآري والنجس» و«العربي والعجمي» و«الحاكم والمحكوم» و«الحر والعبد» القدسية.. وشدوا وثاق التثليث بقيد القدر الإلهي جيداً حتى يجعلوا نور الله الواحد في السماء مشعاً على سحنة الطبقة الوحيدة لآلهة الأرض المثلثة.

أقاموا معبد نار آزرگشسب مرة ثانية في أذربيجان حتى يشعلوا فيه نار كيخسرو «النار الأهورائية الخاصة بالملوك» ومعبد نار «خرين» أو «خره» فارس (منطقة فارس) في اصطخر حتى يشعلوا فيها ثانية النار الخاصة بالملا «رجال الدين»، ومعبد نار «مهر» في جبل ريوند حتى يحيوا فيه من جديد النار الإلهية لبرزين مهر الخاصة بالملاك.. والآن نفس نار التثليث الأهريمني التي كانت قد أطفئت من أول نفس؛ لذلك الطفل من آل إبراهيم.. فجأة ـ وبحيلة من أئمة التوحيد ـ بقيت في محراب الله من جديد.

ومن خمسين في المائة من كل أراضي الناس[٢] الذي كان الأكاسرة وأنوشيروان العادل قد أوقفوها على «المعابد» امتناناً

(١) إضافة زردشت هنا من قبيل السخرية.. فعندما لا يكون المقصود هو التوحيد فما الضرر من إضافة نبي الثنوية؟!

(٢) كانت مساحة أملاك القساوسة خمس مساحة دولة فرنسا، وفي بعض المناطق كانت ثلاثة أرباع الأرض لهم، وفي بعضها الآخر كان نصف ثروات رجال الدين يصل إلى ٨٥ مليوناً، وكان مجموع عوائد رجال الدين ما يقرب من مائتي مليون جنيه (البيرمالية)!! (المؤلف).

لمساعدة موابدة الدين «البهي» في إبادة ضعاف الدين الأشكانيين[1] وانتصار السلطة الأهورائية لأبناء ساسان خوتاي موبذ معبد اصطخر وثمناً لمذبحة عامة في يوم واحد لعشرين ألف مزدكي من الكفار بمذهب الملكية والكنز و«روافض» سنة الاستقراطية والفقر، قد أعطيت الآن حكمها لناشري سنة الرسول وحماة مذهب إبراهيم الخليل مكافأة في مقابل مذبحة عامة لأولئك الذين رفضوا البيعة لخليفة رسول الله، وخرجوا على الحكومة التي تمثل الله، وسموا مال الله، وحكم الله، وسبيل الله، مال الناس، وحكم الناس، وسبيل الناس. وهناك ضجة جديدة من دجلة والفرات وصلت إلى أسماع النيل، فقد رفع بلعم بن باعوراء رجل الدين العظيم رأسه من النيل، وغسل غبار الموت من فوق وجهه، وانبعث منه النور الروحاني الذي كان قد مات نتيجة لليد البيضاء لذلك الراعي الشريد الثوري، وأسرع إلى الأهرام، وبنفثاته الساحرة نفخ في جسد فرعون الذي كان فنانو الدين قد حولوه إلى مومياء حتى يحتفظوا به من أجل كل النبوات وكل الثورات، ويبيعوه في كل فترة، وبإعجاز روحانيته وهبه الروح ثانية، وبعد ألفي عام نجوه من تحت الأهرام بقوة الدين المنجية، وخرج كلاهما من تحت لحد التاريخ ذاك ـ وبلعم بعلمه الغيبي، ونوره القدسي، وحكمته الإلهية، ولمعته

(١) الأشكانيون هم الأسرة التي سبقت الساسانيين، وواضح أن الأسرة الساسانية قد ولدت في معبد نار زردشتي وقد كان ساسان سادناً لبيت نار اصطخر.. هذا هو نموذج دين السلطة حقيقة لا مجازاً!! «انظر إيران في عهد الساسانيين»، ترجمة يحيى الخشاب. المترجم.

الاشراقية، وعصاه الموسوية وجد فم التراب المطبق، وشقة فرعون بإمامته التي هي آية من الله، وسلطته التي هي من خلافة الله، وسحب شريكهم الثالث الذي كانت الأرض قد ابتلعته بضراعة الصبية العصاة وإمامته الراعي الثوري، وإرادة إلههم. سحبهم من بطن التراب، والآن عاد الثلاثة إلى موضعهم بأسماء جديدة وشراك أكثر جدة من يد موسى البيضاء على كتف فرعون، وعصا موسى التي بكل سحرها في يد أبي موسى وارث بلعم، وعنق العجل الذهبي للسامري هي حلقوم المئذنة الذهبية للمسجد، وكنز قارون اسمه بيت المال.. مال الله.. إذن فالله هو قارون نفسه!!!!

وآل فرعون الذين كانوا قد غرقوا في النيل. ألست تراهم قد انسحبوا الآن من بين الطين والطمى، وبدأوا في جر الأسباط إلى التعذيب والرق الجاهلي، وفي زنزانات تعذيب «الله» يذيقونهم عذاب ذنب حريتهم التي لم تدم، وعقاباً على المجهود الذي كانوا قد بذلوه من أجل حرية الناس الذين لا أصل لهم، وليس لديهم شيئاً يفخرون به!!

وألست ترى أن موسى ذلك الذي فضّل الرعي على الإمارة، والتشرد والجوع في الصحراء على رغد العيش والراحة والعيش في البلاط، ورعي أغنام شعيب في صحراء سيناء على الرعي مع أغنام فرعون السمينة على ضفاف النيل، ثم في خرقة الفقر الصوفية، وعصا الرعي الخشبية ذات العقد، هجم النبي المبعوث فجأة وحده من الصحراء على القصر الأخضر الواقع على النيل وثار على «رب الناس» و«سيده» ودفن قارون حياً في التراب، وفرعون حياً في

الماء، والسحرة خادعي الناس، والسامري صانع العجل، وبلعام المتلاعب بالدين أحياءٌ في لحود معابدهم. . ورحل القوم الأسرى نحو الحرية في الأرض الموعودة، وعلى خرائب «قصور السلطة» و«خزائن الإغارة» و«معابد الضرار والذلة» يبني «مدينة إله الناس» و«أمة توحيد الله» و«توحيد الخلق» على «الكتاب والميزان والحديد»!!

والآن: ألست ترى هذا السيطي الوحيد يهرب من مدينة آل فرعون، وقد غاص في صحراء الغربة والهزيمة والتشرد، ومثل «سفينة» على بحر من الرمال المحرقة الممتدة من تهامة السوداء حتى الفرات الأحمر يسرع نحو الموت، ووحيداً ويائساً، هارباً من السيل الأسود الذي يجتاح العالم الذي ابتلع قبل كل شيء أرض البطحاء، ويمضي حتى يموت «في أرض نوح» فهو وارث «نوح»، ومن خلفه «خيل الله» بقيادة فرعون، والملأ والسحرة خلفه، وفي المقدمة «ذئاب يوسف» المسعورة من الدماء التي شربتها من الزكاة المأخوذة من العدو والحبيب. . في انتظاره!! والحمل الثقيل لوراثة آدم على كاهله، وقلادة الموت الحسناء حول جيده، يمضي في الطريق صامتاً حزيناً. . لا يصدر عنه صوت إلا اللحن الرتيب الوتيري لسفينة تمضي على أمواج رمال الصحراء!!

لكن خوار العجل الذهبي للسامري «الزاهد» الذي يتحدث «ممثلو الله» من فمه إلى الخلق، يبلغون رسالة الوحي ويصدرون أوامر الجهاد، ويقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، ويخوفون من عذاب الجحيم، ويبشرون بثواب النعيم، ويعظون الكفرة والضالين والعصاة، ويدعون العبيد والجياع إلى الصبر والصمت في الدنيا ونجاة الآخرة والركون إليها. وفوائد الجنة إن هذا الخوار يجلجل في شرق العالم وغربه، وذلك العجل الآن في مزود بيت المال قد صار ثوراً، ورفع عقيرته بالتوحيد(!!!).

والكوخ الطيني لذلك الراعي المبعوث الذي كان يعيش في ركن من «بيوت الناس» كالعبد، هدموه من أجل نجاة دين الله وسنته هو نفسه، وعلى أنقاضه.. نفس تلك الوجوه الثلاثة الخالدة لجسد واحد: فرعون وقارون وبلعم، في الشعب الثلاثة الدائمة لمؤسسة واحدة القصر والدكان والمعبد.. كل منها مهتم مشغول بعمله الدائم: الاستبداد والاستغلال والاستحمار!!!

أجل، عاد موسى شريداً مرة أخرى، وفي أرضه الموعودة يقوم التاريخ مرة أخرى «بتنفيض» البيت، و«يهوه» بسحنة سلطان الشرك الجبار، جلس على عرش إله التوحيد، وجعل ابنه «عزير» ولياً لعهده، وبشر أعزاءه بني إسرائيل المختارين بالسيطرة بجبروت على العالم، وأخذ يحرضهم على سفك الدماء، والقسوة والسرقة، وجعل أبناء سام مختاري السماء، ويمارس حقداً مثيراً للدهشة على أبناء حام ويافث.. فجعلهم بقيد القدر الإلهي محكومين بالعبودية لهم، وولد من أبناء هارون رجال الدين في معابد موسى سحرة وسفاكين للدماء ومخادعين، أكثر شيطانية من سحرة فرعون، وحاخامات وفريسيين وأحبار أكثر

تلاعباً بالدين من بلعم[١] . . وأمة أكثر قذارة وأكثر عبادة للذهب من . . قارون، وماذا أقول؟!!

هذا قارون، الذي نجا من الأرض، وباسم «موعود» موسى ومسيح عيسى، وهب مذهب «الكنز» في «أرض إبراهيم الموعودة» «الحرمة والأمان والقدسية»، حتى يتحول صوت التوحيد حينما يصل إلى شعار للشرك وشراك له . . ويمسك الصنم في ملامح الله بتلابيب أرواح الخلق، وسيطر «ويشنو» إله التاريخ ذي السحنات الثلاثة على بلاط الله. ذلك الذي يعتبر ذوات «الأجانب والعجم» دنسة من الخليقة، وخلق من رأسه جوهر الأمراء، ومن يديه العسكر وسادة الذهب والسلاح، ومن قلبه رجال الدين والرياضة الصوفية، وخلق في النهاية من أسافل أعضائه جماهير الناس الذين لا رأس لهم من قدم، الناس الذين لا أمل لهم، ولا ذهب ولا سلاح، ولا روحانية ولا معنوية، فهم أدنياء الأصل، وهو في نفس الوقت إليه واحد!! أي أن هذا هو التوحيد، وما فوق التوحيد . . أي وحدة الوجود!!

وزيوس أيضاً . عاد، ورداء الله فوق جسده، وتربع على عرش سلطة العالم، ذلك الحارس للعرق اليوناني وعبقريته، والأرستقراطية المقدسة للأسرة الشريفة «أثينا» وعدو الغرباء،

(١) بلعم أو بلعام بن باعوراء هو كليم بني إسرائيل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، أي لم يعمل بها . . وأصبح نموذجاً عند شريعتي لكل عالم لا يعمل بعلمه أو يوظف علمه لاستحمار الخلق وخداعهم.

والخصم اللدود لأهل طروادة وفارس ودينيهما، فهم جميعاً برابرة، من نسل آلهة غريبة ومنحطة، وهو جلاد السجن الأبدي للعبيد والجياع، وهو الذي من البداية يكتب العبودية والجوع بقلم صنعه على جباه قدرهم المشؤوم، ويغلهم بقيد المشيئة الملعونة. . وهو الخصم الجبان الحسود وعدو الإنسان، الخائف من اليقظة والحرية والاستنارة على الأرض!! ألست ترى أنه شد بالأغلال وثاق برومينوس في جبل بارد وقاحل وصامت لا يسكنه إنسان بذنب أنه أتى بالنار الإلهية من السماء إلى الأرض، وحكم عليه بالسجن الأبدي بين «السكا» الوحشيين. . النار التي قبسها وارثه من شجرة في صحراء سيناء، وقمة جبل الطور، ووهبها لقوم من الأسرى، وأخذها وارثه من فوهة حراء على قمة جبل النور، وأنزلها بين الناس. . وبث النار في ظلمة الجاهلية وجمود حياة لا نار فيها. والآن ـ أيضاً بأمر زيوس ـ الذي يحكم الآن في موضع الله، يشد بالأغلال الوارث الوحيد لكل هؤلاء، وفي أرض نائية من قلب صحراء لا صراخ فيها، يحكم عليه بالعذاب الأبدي والغربة، ويسلط عليه النسور آكلة الأكباد، ويحاول أسره بجرم وراثه تلك النار الإلهية التي لا يريد أن يتركها من بين يديه، ويجاهد أن يشعلها في العاصفة حتى في ذلك الوقت الذي خيمت فيه خلافة.الظلمة والجمود على الإنسان. . هذا هو المصير المحتوم لكل الأشخاص الذين عقدوا «ميثاق الدم» من أجل حرية الإنسان.

وناشروا الفخاخ في معبد «دلفى». . وسطاء الفجوة بين الله والخلق والسماسرة بين الأرض والسماء، تلك الحيات ذات

المظهر الحسن الجميل التي تنمو دائماً من كتفي الضحاك، وتأكل من أمخاخ رؤوس الشباب[١]، القساوسة والرهبان وباعة الأرض «الممتازة» في الجنة، والقائمون يجز أصواف أغنام الله وحلب لبنها. . السحرة صنّاع إكسير الشؤم صنعوا من مسبح السلام والعشق والحق قيصر «دجّال العقل ملحد الشكل»، والسفاحون وقتلة البشر، والنهابون عادوا جميعاً من أقاصي التاريخ إلى المدينة.

«المسيح صلب من جديد»[٢]

بعل في محراب الله. . والصنم في بيت إبراهيم.

ثم ثانية جسد الشرك الذي كان قد تحول إلى مومياء، «يسكن» في ثوب التوحيد الخالي، ومن جديد. . الثنوية. . التضاد الذاتي والإلهي، ثنوية السماء أي ثنوية الأرض، ثنوية العالم. . أي ظلها: ثنوية المجتمع، ثنوية الإله في الكون أي ثنوية الإنسان: الأقارب والغرباء، الآريون والأنجاس، الإيرانيون وغير الإيرانيين، أهل أثينا وأهل طروادة، اليونان والبرابرة، العرب والعجم، الأبيض والأسود. . أي أن شعباً واحداً لا. . بل طبقتان، يعني المشاركة في الدم بين من يَمتصون ومن يُمتصون. . أي «أنا»

(١) الضحاك ملك اسطوري، قيل انه سيطر على إيران. . وكانت قد نبتت بين كتفيه حية تلدغ أعلى صدغه. . ولا تسكن إلاً إذا أكلت مخ شاب. .

(٢) يشير شريعتي إلى الرواية الشهيرة لنيكوس كازانتزاكيس وفيها يتخيّل المسيح قد ظهر ثانية على الأرض فاغتالته أيدي القساوسة والمحتلون والأغنياء. انظر الرواية من ترجمة شوقي جلال. المترجم.

و«أنت» الصادقة تكون «نحن» الكاذبة، رداء وحدة العرق على جسد ثنوية الطبقات.. أي أنني العبد وأنت السيد «كل منا عضو للآخر»[١].

وثانية: ثنوية الوجود كتبرير لثنوية الحياة، تقديس مراتب السيد والعبد، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، والروحاني والجسماني، والسعيد والشقي، ثنوية أبدية إلهية وعالمية.. والآن.. إله واحد لكنه أحول.. هذا هو شغل حواريي الرسول.. ومفتيي الفقه، ومفسري الكتاب، وحماة السنة، ورواة الحديث.. كل حديث بدينار.. بسعر خلافة ـ خليفة الله في الأرض ـ وأبو الدرداء كليم الأمة، وأبو هريرة جليس النبوة راوي أربع مائة ألف حديث، هما وارثا الهيئة الدينية طوال التاريخ في كل الأديان وكل العصور. والآن ثانية نفس التثليث الدائم والذي حدث في كل الأوقات: دين الآلهة الثلاثة: الأب والإبن والروح القدس، الملأ والمترف والراهب، كسرى والدهقان والموبذ، الشركة المساهمة للقوة والذهب والاحتيال، السياسة والاقتصاد والدين.. النظام الذي كان حاكماً على الإنسان من بداية التاريخ.. مثلث الشؤم الذي دفن فيه كل الأنبياء الصادقين.. طلسم «العبودية» و«النهب» و«الخداع».. وعقال على ساق مطية التاريخ.. مذبح الحرية والمساواة والوعي.. مدفن الشعور والعشق والإيمان

---

(١) إشارة إلى بيت للشاعر الفارسي الشهير سعدي الشيرازي بنو آدم كأعضاء لجسد واحد.. هم في الخليقة كل واحد عضو للآخر. وقد ورد في منظومته الشهيرة «البوستان». (المترجم).

والأخوة بين أبناء آدم. . مثلث «السيف والذهب والمسبحة» الأول يشد رؤوس الخلق بالأغلال، والثاني يخلي جيوبهم. . والثالث يعظه هامساً في أذنه هادئاً حنوناً بلهجة فياضة بحب الخير والحكمة، وبشكل فيه تعاطف: اصبر يا أخي، أخل باطنك من الطعام حتى ترى فيه نور المعرفة. . دع الدنيا لأهلها يا أخي. . وعمر منزل آخرتك. . أي تدبير لك مع وجود التقدير. . لقد أُعطيَ كل إنسان نصيبه من العطاء أو عدمه. . كن شاكراً فالخير فيما وقع. . الدنيا دار المحنة والذلة والفقر، وبالنسبة للمؤمن. . اجعل جوعك رأس مال غفران ذنوبك!!!

مثلث قاعدته «شبه الشيخ» وضلعاه «السيد» و«الخان الاقطاعي» على رقاب الخلق وكواهلهم، ثلاثتهم من أقارب الحق بين الخلق، رعاة الله الأمناء، والذين يقومون برعي أغنامه، أحدهما نوره أو ابنه، وأحياناً هو نفسه. . عمله رعي الرعية، عقاب المهور العاصية التي لا تقبل السروج ولا تضع لجام الطاعة، ولا تستكين لراكل، ممثل حاكمية الله، مظهر الجبروت والملكوت، ووجه غضب الحق وأنفاسه. والآخر حامل قدسية الحق، صاحب الروح القدس، الآية العظمى لرحمة إله السموات ورحمانيته بين عبيد الأرض، الواسطة بين الخالق والمخلوق. والثالث هو واسطة رزاقية الحق، صاحب مفتاح خزانة الرزق، وأمين أرزاق «الأنام كالأنعام» أي أنهم بذاتهم لا يملكون شيئاً؛ فكل شيء لله. . الدين لله، والسلطة لله، والثروة لله وهم مشرفون فحسب على العمل من جانبه وباسمه، وأداة لتنفيذ إرادة حضرة

الحق بين الخلق.. أي حق؟!

حق أصحاب الحق.. نفس ذلك الإله الدائم، في كل أرض، إله التاريخ، الإله البعيد، ساكن الناحية الأخرى من السماء، إله أرباب الأرض، إله مذهب الشرك، المذهب الحاكم على التاريخ وعلى معبد التوحيد أيضاً.. الإله الذي يعبد قومه وآله.. وخصم الغرباء.. وكاره البرابرة والعجم والأسرى والسود والأنجاس والعبيد والجياع والمهزومين والمستضعفين والمظلومين.. نسل يافث وحام.. كلهم أولاد أهريمن.. أو معجونون من أسافل أعضائه.. وهم مخلوقات «زروان» الظلمة[1].. ولا شك الملعونون إلى الأبد. سود الجوهر والأصل الأزليون.. المحكوم عليهم بقيد شقاء القدر، المطرودون طبقاً لمصائب الفضاء، المحرومون من الأصل وشرف الجوهر منذ عالم «الذر» منذ صبح «ألست»[2]. وسلطان بلاط السماء، حوله فوج من الآلة الصغيرة والكبيرة، بعيون عمياء وآذان صماء، وثياب قصيرة، ومواضع بعيدة، وقلوب ممتلئة حقداً وهوساً، وجوعاً مثيراً للدهشة، وغضباً مثيراً للهول، خائفين من بصيرة الإنسان، هاربين من ضياء الأرض، وألاعيب بلا إرادة لرؤسائها وسماسرتها.. الآلهة المثلثة في التاريخ!!

---

(١) يرى شريعتي هنا أن زروان هو إله الظلام..، زروان هو الإله الذي انبثق عنه اهوار مزدا وإهريمن في التصور الساساني المتأخر للخلق. انظر إيران في عهد الساسانيين تأليف كريستنسن ترجمة يحيى الخشاب. المترجم.

(٢) ينظر في مقتل عروة (الطبري/ ٥) والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني/ ٣.

وتحت، ظلها على الأرض، آلهتها الصغيرة، السماسرة الوسطاء، والأقارب والخواص والمقربون، والجلادون والسحرة، والنهابون من أجلهم ممثلوهم وحلفاؤهم، كلهم ذئاب غادرة، أو ثعالب ماكرة، أو ضباع آكلة للجيف، أو فئران عابدة للعملة المعدنية.. أو دود علق مصاصة للدماء.. ركبوا فوق ظهور الخلق وكواهلهم، وعلى رؤوس كل الطرق نصبوا فخ الدين، وعلى كل الرؤوس وضعوا قيد العبودية، وفي كل الأفواه وضعوا ألجمة الطاعة، وعلى كل الكواهل عزفوا بسوط الشريعة، وعلى كل القرى قاموا بحملات الجهاد، وعلى كل البيوت قاموا بغارة الزكاة.. وعلى كل الأذان قرأوا ورد النوم.. وعلى كل الأرواح نفثوا طلسم الزهد.. وعلى كل الأديان وضعوا إكسير المسخ، وعلى كل الرسل سلوا سيوف العناد، وفي كل العصور روجوا الخرافات، وفي كل الأراضي بذروا بذور النفاق، وقطعوا حلاقيم الصرخات، ومن كل مئذنة توحيد رفعوا آذان الشرك.. وفي رداء التقديس خدعوا، وبلسان الصدق نسجوا الأكاذيب.. وباسم طاعة الخالق جروا الخلق إلى طاعة المخلوق.. وفي آهورا خلقوا إهريمن.. وعلى ضوء النار المقدسة صنعوا ظلمة الكفر.. وتحت عنوان «تعظيم الشعائر» قاموا بتحريف الحقائق.. ومن آلام الناس جمعوا الكنوز التي بلا كدح، ومن الجهل العام ادعوا العلم، ومن فقر العوام وصلوا إلى الغنى، ومن جوع الجماعة وجدوا البركة، ومن خوف الذنب وجدوا أمن العصمة، ومن ركود الأمة نالوا الجاه والهيلمان، ومن عبودية العبيد «المقدّرة» أدركوا الموهبة الإلهية

للسيادة، ومن ذلة المستضعفين لبسوا خلعة السيادة!!

وضعوا «الَّلات» على قاعدته المرتفعة في صورة الله بين ثقيف، ورمى عباده وخدمه القداء؛ «عروة بن مسعود» بالسهام على مرتفعات الطائف[١]، وأعادوا «منات» مرة ثانية إلى غفار ونفوا جندب بن جنادة (أبا ذر) رائد غفار إلى الوحدة والغربة والموت الأسود في الصحراء بجرم القبس الذي كان قد جاء به من غار حراء إلى ظلمة قبيلته الجاهلية.. وبفتوى من كعب الأحبار اليهودي، وبأمر من لابس خلعة حكومة الله. وبتنفيذ من أولئك الذين نفاهم من قبل رسول الله!!

ونيف وثلاثمائة صنم من جاهلية الشرك عادت إلى كعبة إبراهيم، وانتصب كل منها في مكانه منتصراً، وعلى المنزل المحزون المهجور والقبر الدامي الصامت لمحطميهم الاثنين ـ ورثة إبراهيم ـ طفقوا يبتسمون ابتسامة التوفيق.. ويدعون رفاقهم المتفرقين من أنحاء الصحراء وماذا أقول؟! من أنحاء الأرض.. ومن أخمص قدم الزمان إلى قمة رأسه.. أخذوا يدعونهم إلى الطواف.. وبدأ السادن والحاجب وساقي الحجيج في أعمالهم.. وتحلق كل سدنة المعابد وخدم الأصنام!!

والبراهمة والمجوس والموابدة والفريسيون والحاخامات والقساوسة والبطاركة والبابوات والرهبان والمساعدون والسحرة والمفتون والأحبار.. كلهم تحلقوا حول ورثتهم: كعب الأحبار،

(١) نفس المصدر السابق.

وأبي موسى، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وشريح.. في يد كل منهم مصحف وفي اليد الآخرى قحف رأس أحد الروافض المتمردين على «سنة» التاريخ!!

وفوج لا حصر له من رجال الدين في كل مذاهب الحق والباطل والشرك والتوحيد والكفر والدين.. ما الفرق؟! كلهم في مواجهة هذا الخطر المشترك.. خروج رجل على «الإسلام» ـ مذهب التسليم ـ بقية رجل من ذرية أولئك الرعاة الثوار الذين قاموا في صمت استسلام التاريخ ورضاه حيناً من الدهر، بإثارة النار العجيبة في الصحراء وألقوا بأنفسهم على مهاجع التاريخ.. وأزعجوا النوم الهادىء لعبيد الأرض.. وطعم العسل في أفواه سادة الزمان!!

الآن: أبو جهل، وأبو سفيان، وأمية بن خلف المتخصصون في تعذيب عمار وسمية وياسر وبلال وخباب.. العبيد المتمردين «الذين صبئوا»، و«روافض سنة الإسلام» والذين نجوا بتدبير من عبد الرحمن بن عوف الصحابي الشهير للرسول الآمن وسعيه، كلهم يسرعون نحو مكة المحررة التي استردت الآن أمنها القديم، نحو الأرض التي كانت من أجل الجميع «البلد الحرام» إلا من أجل الناس.. البيت الآمن الذي بناه إبراهيم عليه السلام.. ودائماً ما سكنته تلك «الأصنام الثلاثة العظمى في التاريخ»!!

وفرعون موسى، ونمرود إبراهيم، وقيصر عيسى، وأنوشيروان مزدك، وهروديس يحيى.. وأشراف محمد.. كلهم انطلقوا خارجين من لحد التاريخ المظلم الصامت، وفي قصورهم

المهولة من طيسفون حتى دمشق والتي قاموا ببنائها من جديد بأموال الجهاد، وسرقة الزكاة، يشربون من قحوف رؤوس شهدائهم ورثة سنة هابيل ـ أول قتيل للملكية ـ شراب النصر، ومن كل نقاط العالم يقدمون هدايا النصر لوارثهم العظيم في «القصر الأخضر» في دمشق، ذلك القصر الذي بُني على عظام أبي ذر!! «عندما تلبس القوة رداء التقوى.. فإن النتيجة أعظم مأساة» وألم يكن التاريخ شاهداً على أنهم كانوا ينقلون هذا الرداء دائماً من المعابد إلى القصور؟! والآن وفي صفين.. جاء القرآن على أسنة صواري رايات معادية لقتال علي!! وسيف القدسية والتقوى قضى عليه أثناء صلاته للفجر في محراب عبادته!!

والآن.. أصحاب صنائع الدين. من بخارى حتى دمشق، منهمكون في نسج الثياب الجديدة للتقوى.. والقضاة وأئمة الجماعة، والمفتون والفقهاء، والمفسرون والمحدثون والحكماء، والعارفون والقراء والزهاد.. والجامعون بين المعقول والمنقول، وحملة العلم الإلهي، وحجج الله بين الخلق وآيات الله في الثقلين، وأصحاب المنابر والمحاريب، والمساجد والتكايا و.. ماذا أقول؟! الصحابة الكبار كتّاب الوحي، جامعو القرآن، المجاهدون في سرايا رسول التوحيد وغزواته.. كلهم بصمتهم وحديثهم منهمكون في نسج ثوب التقوى الجميل، الخلعة التي لم يكن أسلافهم ـ النساج الرسميون لأديان السلف ـ على هذه الدرجة من الفن في نسجها في أي وقت قط.. خلعة خلافة إله إبراهيم على قامة «النمرود»!!

وهناك، أحذية الصياد في قدم البابا قاتل البشر ـ وجنزير العدل الإلهي معلق في منزل قاتل عشرين ألف مزدكي، مؤسس حركة «اقتل واقتل» في اليمن[١] نعم. . لكن هنا، عمامة وارث «الحرية والعدالة ودين اليقظة» ـ الحركة المدانة في التاريخ والمستعبدة على رأس وارث «الاستعباد والظلم ودين النوم» النظام الحاكم والمسيطر على التاريخ. . فرعون وقارون وبلعم بن باعوراء ثلاثتهم في خرقة رعي موسى. . وماذا أقول؟! هادمو بيت موسى. . من أجل سنة موسى. . ومذبحة لآل موسى بعصا موسى المعجزة!!

لست أفهم، صار التاريخ دواراً في الرأس وهذياناً، واختلطت أوراق كل شيء. . واختلط كل شيء: التوحيد والشرك، والعدل والظلم، والكفر والدين، والملأ والناس، والله والصنم، والرسول والكذاب، والمذهب والسحر!! ودجلة والفرات امتزجا الآن. . ويا له من «شط عرب» عجيب. . والكعبة بيت أوثان، والمساجد معابد نار لتثليث أرباب الذهب والقوة والاحتيال، وعبيد في رق ابن الزبير. . وهو واحد آخر من «العشرة المبشرين بالجنة»[٢] ونائلة وارثة شيرين وكيلوباترة وسالومي. . بقلادة تساوي ثلث خراج أفريقية، وكعب رجل الدين اليهودي العظيم وارث كل الموابدة والبراهمة والقساوسة وسحرة مذهب الشرك. . على مسند فتوى دين التوحيد. . وعثمان وارث محمد على عرش

---

(١) المقصود حملة «الأبناء» إلى اليمن. أنظر آية الله مطهري: الإسلام وإيران الترجمة العربية ص٧٦، طبعة بيروت.

(٢) موقعة الحرة. انظر ابن قتيبة ٢/٧ وما بعدها. المترجم.

كسرى وقيصر. . ومروان الذي نفاه محمد هو نديم عثمان. . وأبو ذر ملجأ المظلومين وأنيس محمد منفي من قبل عثمان. . ماذا أقول؟! الله رب إبراهيم في صورة بعل والصنم وزيوس، وحبيب الناس، في ثوب المجد الآلهي على رؤوس أشراف قريش، والمساكين في سلاح الدين يحولون الناس إلى مساكين، والواعد بإمامة المستضعفين على الدنيا، والمبشر بوراثة المحرومين للأرض. . الآن. . ماذا أقول؟!! مع كل نداء تكبيرة. . تطأطىء رأس حبيبه. . ومع كل جهاد له يتقدم كتابه فوق أمواج من دم، ومعبده انتقاماً «لضربة أفضل من عبادة الثقلين»[١]. . تصيب صاحب ذلك الساعد ليل نهار، ومذابح الأمم تسمى جهاداً، والإغارة على الجماهير زكاة، وجبابرة الأرض المصطفون من السماء وأعداء الخلق. . أصحاب الخالق الحميمون. . و. . .

منزل محمد مهدوم

وفاطمة تدفن في السر.

وعلي في النخيل في منتصف الليل وحيداً. . رأسه في فوهة البئر[٢].

---

(١) قولة الرسولﷺ في علي عندما صرع عمرو بن ود ولما اقتلع باب خيبر. (المترجم).

(٢) من المأثور الشيعي أن علياًعليه السلام كان يشكو في بئر في نخيل خارج المدينة ما أصابه من ظلم وهضم حق حتى يُسرّي عن نفسه ولا يشكو علناً فيحدث الفتنة بين المسلمين. المترجم.

وماذا أقول؟! قتيل في محراب العبادة.. وأبو ذر جائع في صحراء الربذة.... يموت وحيداً ومرج العذراء بفتوى الدم.. ملطخ بدم حُجر، وحسن مسموم في منزله.. على أيدي «جنود الله الذين من عسل»[١].

وبلال في أرض نائية البعد، وحيد وصامت، وعبد الله بن مسعود يسلم الروح من التعذيب، والقصر الأخضر لأمير المؤمنين.. غريق في سكر الخمر وألحان الغناء والأمر بالجهاد.. وجمع الزكاة.. ونشر القرآن و«إنتاج» الحديث.. والمجاهدون منهمكون في تحطيم معابد الشرك وبناء المساجد في أرض الكفر.. والمقرئون في مشارق الأرض ومغاربها مترنمون.. وصوت الآذان يرتفع إلى عنان السماء من حلوق المآذن الذهبية!!

والسيوف مكبرة تنزل على رؤوس الإلحاد، وأفواج الأئمة والقضاة والعلماء والزهاد والغزاة والعارفين والصحابة والتابعين وتابعي التابعين والسابقين واللاحقين.. ربائب دماء الشهداء، رؤوسهم في مزاود الأغنام، أرخي لها الزمام، وأمير المؤمنين في رواح وغدو بين المزود والمرحاض.. اكتسى جنباه باللحم.. أخذ الإمارة هبة من الله.. والوفود شديدة العظمة والفخامة.. والحجيج مزدحم، وتنور الغزو متأجج.. ومسند القضاء لين ناعم، والإسلام منتشر سيار على ظهر الأرض.. والخلق.. يستسلمون فوجاً فوجاً.. أمام سيوف الله هادئين.. والمراكز

---

(١) عبارة أثرت عن معاوية «إن لله جنوداً من عسل» (المؤلف).

العلمية حامية الوطيس.. وبيضة الدين ثابتة محفوظة، والشعائر معظمة، والأحكام نافذة.. وخليفة رسول الله يغزو عاماً ويحج عاماً!!

الحج!! سنة إبراهيم محطم الأصنام.. في «بيت الناس» أو «بيت الله»، فما الفرق؟! ما الخبر هذا العام؟! دوامة من الخلق متزاحمون متحمسون في الطواف، الوجوه مضرجة بالحمرة شوقاً، والقلوب ذائبة من العشق، ودعوة الله تجاب بلبيك.. وغليان الإيمان.. ونداء الإسلام والخوف من الله، والخشية من عذاب الآخرة.. وخوف عقاب جهنم، والشوق إلى العبادة.. كلها تصيب المصطفين في الأمة بالدوار المقدس. وبين الوجوه: أصحاب الرسول والسابقون في الإسلام، أبطال الجهاد، والفاتحون لدار الكفر، المحطمون لمعابد أصنام الأرض، وحماة التوحيد، وحفاظ القرآن، والمتشددون في السنة، ورجال الدين الحنيف، كلهم يطوفون، ويجددون العهد مع إبراهيم الخليل، فارغون من الدنيا الدنية.. فهذه الدنيا تراب، وكل ما يدب على وجه الأرض حقير، ربطوا القلب بالله، يطوفون والجنة ترقص أمام أعينهم.. والحور يغمزن بأعين تحن للقاه، والملائكة من فوق شرفات العرش يصفرون لهم، وجبريل نشر أجنحته بحب تحت أقدامهم الطائفة!! من هذا الذي يشق الدوامة المتماسكة لطواف المسلمين هكذا غاضباً ومصمماً، ويخرج تاركاً وراء ظهره البلد الآمن والحرام المبارك؟! وإلى أين اتجه.. لماذا لا يلتفت لحظة وارء ظهره ليرى:

هذه الدائرة الطوافة التي يُدار فيها الناس حول بيت إبراهيم وعلى لحن التمرد، ويجعلونهم يهرولون بين الصفا والمروة علامة على سعيهم العابث، ويذبحون الأضحية إشارة إلى مصيرهم؛ لأنهم أغنام الله، وأولئك الثلاثة الممثلون الدائمون «لله» سمنوا على الدوام من أصوافهم وإيمانهم وجلودهم ولحومهم. والمزود عامر!! فهم أضحيتهم الدائمة، وهم يذبحون في كل مكان من أجل أنفسهم وهم معقودو الألسن ودماؤهم الحمراء تجري في عروق القصر الأخضر، ومسجد الضرار وبيت مال قارون، ومن عرفات حيث بداية التاريخ وموقع أول لقاء بين آدم وحواء على الأرض، يسوقونهم نحو منى، أرض تلك الأصنام الثلاثة للتثليث المشؤوم، حتى يقوموا بالرمي دليلاً على السخرية من إبراهيم، وخداع الله لمعبوديهم الثلاثة من آدم حتى آخر الزمان. . يتلاعبون بالرمي. . ويقومون بقذف سبع حصوات ظريفة رقيقة جميلة ملونة بأطراف أناملهم اللطيفة، على السحن التي طليت بالبياض لتلك الآلهة الثلاثة لزمانهم ومكانهم، بدلال وحركات عشق، وفي النهاية يحلقون رؤوسهم كدليل على تسليمها لهؤلاء الجبابرة الثلاثة، وكدليل على أن «أداة فعل الجور هو الجهل» وعلى أنهم «عباد المصلحة الذين لطخوا أيديهم بدماء الحقيقة». . وأنهم هم الذين في كل عصر وفي كل جيل «بغيبتهم» يصبحون الممهدين لأرضية استشهاد الإنسان، وأن خلف هذا النقاب للتقوى والقدسية جلاد مستتر، وأن نفس هذا الحجيج ـ هو الذي دائماً وفي كل مكان نتيجة لوسوسته تلك الأصنام الثلاثة الموجودة دائماً وفي كل مكان

ـ قاموا بذبح إسماعيل بأيديهم تحت أقدام النمرود. . وهم الذين يحتفلون يوم التضحية بالإنسان بذبح اسماعيل العصر، ثم وظهورهم إلى الكعبة، ويتجهون نحو قبلة الذلة والحياة، قد باعوا جنة الآخرة بـ«جهنم الدنيا»، ثم ينامون ثملين بنشوة «العافية» على «التراب الدافىء» لمطبخ السيد[١] ويرعون في اللذة فتات موائد الغارة!!

ستارة من الدم تنسدل أمام عيني:

انظر ألى صحراء محترقة،

ذات سماء بلون الخجل

وشمس زرقاء في حالة ذوبان

وجو يمطر النار

وبحر من الرمل يمتد من الأفق إلى الأفق

فهو يرغي من الدم الجديد الذي لا يزال يفور

وخطوة بخطوة. . رفيق الفرات الزلال في السفر

والسيوف مشرعة من كل صوب. . والسهام من كل مكان مطلقة!!

(١) اميد: معهدى إخوان ثالث (١٩٢٥ ـ ١٩٩٠) شاعر إيراني معاصر من المدرسة الحديثة. أنظر الشعر الفارسي الحديث ـ دراسة ونماذج ـ للمترجم (الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢).

والخيام قد أضرمت فيها النيران . . والأوباش يفكرون في الإغارة .

والأحقاد أخرجت لهيبها

والعدو مترصد في كل مكان

والجو ملتهب . . والغربة ثقيلة . . والأرض بور جرداء لا ثمر فيها

والرمال حارة

والعطش مؤذ للروح . ودجلة سوداء مسعورة مهاجمة

والفرات أحمر ـ أرض الحقد والموت .

مشغولة في الخصومة الجارية . . و . . .

أنا أخاف النظر في ملامحه العظيمة القوية

هو . . ضحية هذا القبح والجهل

انظر إلى قدميه . . وقد وقفت هكذا ثابتة قوية صبورة

حفظت هذا الجسد الذي تلقّى مئات الطعنات .

خائفاً ومرتعداً من الأنفعال . . أرفع أنظاري عالياً إلى حذائه وإلى طرف ردائه .

هذه يداه المبتورتان .

يد على سيف يسقط دليلاً على هزيمة إنسان . . لكن

القبضتين الغاضبتين.. بتمسك لا جدوى منه..

تجاهد حتى تحتفظ به..

وأماكن الأصابع الدامية على قبضة سيف

سقط هو الآخر..

ويده الأخرى. . كذلك بلا اتجاه

أسحب ناظري إلى أعلى

من فجوات الدرع ينبثق الدم، وبخار غليظ تمتصه شمس الصحراء لتبديه للإنسان صباح مساء وتخبر الدنيا

أسحب ناظري إلى أعلى

الرقبة التي مثل قمة حراء، انبثقت من جبل.. ونزلت عليها كل ضربات التاريخ بلا رحمة.. دقت وجرحت بشكل مهول لكنها لم تنحن.

أرفع ناظري من خيوط الدم التي تجري عليها ثانية إلى أعلى.. وفجأة.. هناك مظلة من دخان وبخارٌ كأنه كتلة متراكمة من الغبار في الفضاء كأنها من انفجار.

ولا شيء بعد!

تعتصر قبضة ما قلبي بوحشية.

وأسنان ما تنغرس في قلبي بغيظ.. ودخان حار محرق يرتفع من أعماق باطني إلى رأسي ويحرق عيني.. كل هذه «المسكنة»

وكل هذا «الحمل» بكل هذا الثقل.

والدمع لا يرحمني.. لا أستطيع أن أرى

ستارة من الدم تنسدل أمام عيني

كل شيء يرتعد أمامي في إبهام من الدم والغبار، لكني. وأيضاً بانتظار ملتهب بالعشق والخجل انظر حائراً: أجد شبحاً في قلب هذا السحاب والدخان.. مشروع أخرس غير متميز لوجه صامت.. وجه بروميثوس.. إله الأساطير. الذي تجسد الآن حقيقة ماثلة.

الانفعال والشوق يجففان عيني.. ينزاح غبار الغموض الأسود الذي كان يرتعش في أمواج الدمع، وتتضح الأمور أكثر.. وخطوط سحنته أكثر وضوحاً.. الآن سوف أرى ملامح وجهه الإلهي.

كم هي غير قابلة للتحمل رؤية كل ذلك الألم، كل هذه المأساة في ملامح ما، الملامح التي تقص كل ألم إنسان في سيرة حياته المظلومة الملامح التي..

ماذا أقول؟!

لقد أدانه المفتي الأعظم للإسلام «كخارجي متمرد على دين الله ورافض لسنة محمد» وأفتى بموته.

وليس هناك حوله سوى أجساد ساخنة مضرجة بالدم،

لا أحد يدفع عنه،

وكتمثال للغربة والوحدة والألم، تمدد من أمواج الدم في الصحراء.. ووقف على ممر التاريخ.

فلا هو يعود.. فإلى أين؟!

ولا هو يتقدم.. كيف؟!

ولا هو يحارب.. بماذا؟!

ولا هو يتحدث.. مع من؟!

يقعد؟! أبداً!!

لقد وقف.. وكل جهاده هو ألا يسقط

كأنه السندان تحت ضربات العدو والصديق.. تحت مطارق آلهة التاريخ الثلاثة، طوال التاريخ.. من آدم.. حتى هو، هو نفسه!!

أركز ثانية أنظاري على ملامحه العجيبة.. ينظر إلى نظرتي إليه صامت ومقهور، بنظرة ليست سوى حزن..

يبقى ساكتاً..

لا أستطيع أن أتحمل!!

صعب

كل «وجودي» يتكسر داخلي.. ويتحطم

أهرب

لكني أخاف أن أبقى وحدي، وحدي مع نفسي، إن تحملي لنفسي مخجل جداً، أهرب معذباً إلى الشارع.. حتى أضيع في سواد الناس.. في ضجة المدينة.. لا أسمع صوت لومي لنفسي.. كان الناس قد ازدادوا عدواً، والمدينة تبكي مضطربة متألمة.. والصراخ والضجة والأعلام والهوادج و«صليب الجريدة»[١] والسيوف والقيود التي ينزلون بها كالمجانين فوق رؤوسهم ووجوههم وظهورهم وجنوبهم ورجال بأردية سابغة.

عمامة الرسول على الرأس و...

آه.. نفس تلك الوجوه المكررة في التاريخ.. محزونة تلبس السواد.. في كل مكان.. تتقدم الخلق!! أسرع في كل صوب.. أمسك بطرف كل هذا.. التصق بطرف ردائه.. أسأله.. بكل ضراعتي أسأله.. غارقاً في أدمعي وألمي: من هذا الرجل؟!

مم يتألم؟!

هذا هو الوحيد الوريث لتاريخ الإنسان، الوريث لراية العصر الحمراء!!

لماذا هو وحده؟!

ماذا فعل؟!

---

(١) بيرق على شكل الصليب يحمله المحتفلون بعاشوراء في موكب التعزية، ويعزي شريعتي دخوله في هذا المجال إلى مؤثرات مسيحية دخلت التشيع في العصر الصفوي. (انظر الترجمة العربية للعودة إلى الذات). المترجم.

وماذا تحمل؟!

قولوا لي

ما اسمه؟!

لا أحد يجيبني . .

ستارة من الدم تنسدل أمام عيني!!

عاشوراء: ١٣٤٩[١].

(١) ١٣٤٩ هجري شمسي هو تاريخ معمول به في إيران وأفغانستان «الناشر».

كانت ليلة عاشوراء... عاشوراء عام ٤٩[١]... أية ليلة أليمة كانت[٢]..

كانت عاشوراء في حياة جماهيرنا. . . حياتهم المشحونة بأكداس الغصص والعبرات، ركام الآلام ونزيف الجراحات، والآمال اليائسة، والأماني الخائبة، والتطلعات المكبوتة، والحب المذبوح، والغضب المكظوم، وكل ما لا ينبغي، ولا يراد، ولا يقدر عليه، ولا يباح، ولا يقال، ولا يتحرك. . . ولا، ولا، ولا. .

عاشوراء ـ في هذه الحياة ـ صدر حنون ودود يحتضن رؤوس الناس المتعبة، وحضن أمين يستقبل دموعهم المنهمرة. . وترى في هذه المأساة البشرية المهولة؛ كل فرد يندب مأساته الخاصة. . .

(١) عام ١٣٤٩ هجري شمسي وهو تاريخ معمول به في إيران وأفغانستان.

(٢) سيجد القارىء الكريم أن بعض نصوص هذا الفصل مكررة في أماكن أخرى من الكتاب، وهذا يعود إلى أن الدكتور شريعتي ألقى نفس المحاضرة في أكثر من مكان، وهذا هو المجموع في الطبعة الفارسية التي إعتمدها المترجم حرفياً، عدا بحث «الشهادة» الذي صدر بكتاب مستقل عن دار الأمير عام ٢٠٠١م، لذا إقتضى التنويه. (الناشر).

عاشوراء، يعيد سنوياً للقلوب المقهورة التي سلبت ـ في هذا العصر ـ حق الاختيار، بل حتىٰ حق الاحساس، وللعيون التي سلبت حق الرؤية بل حتىٰ حق البكاء، وللحناجر التي سلبت الصراخ بل حتىٰ حق الأنين، يعيد لها حقها السليب.

وقد صنع عاشوراء من الكرامة المجروحة التي تحن إلىٰ الأنين ولكنها تأبىٰ وتستحيي. . .

ومن الابتسامة المحفورة علىٰ الشفاه بالقهر وهي تخفي في أعماقها صراخاً وعويلاً. . ومن الوداعة المفروضة علىٰ الوجوه التي تكتم في داخلها رياح التمرد والثورة. . . صنع منها: «شهيداً يتحرك ويخطو علىٰ الأرض». . وأينما يولّى هرباً فثمة كربلاء، وأي شهر يحل فهو محرم، وأي يوم يمرّ به فهو عاشوراء. . .

* * *

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩.. وأية ليلة أليمة كانت..

إنّ عمل الروح لا يختلف عن عمل الإنسان في الحياة، فلو أن إنساناً نوّع أشغاله وفرّق رأسماله في عدّة مواضع فسوف يتضاءل احتمال إفلاسه المفاجىء وفقدانه كل شيء مرة واحدة؛ لأنّه إن خسر هنا وأفلس فسيعمل هناك ويعوّض خسارته، وأمّا إذا كرّس كل وجوده في «شغل» واحد فقد تداهمه ضربة قاضية تصعقه، فيصبح فجأة «وجوداً يحسّ بعدم نفسه، أو عدماً يحسّ وجود نفسه».

وكذلك الإنسان إذا كان لروحه بُعد واحد، كان يتغذىٰ من

«مائدة» واحدة، ويرتوي من «شراب» واحد، وتقوم خيمته علىٰ «عمود» واحد، فأنّه سوف يموت جوعاً وعطشاً، ويختنق تحت أنقاض النفس وانهياراتها الداخلية قبل أن يداهمه القحط والجفاف والعواصف الهوجاء.

لقد شعرت بالحياة منذ عشرين سنة فقط، فأنا «حي» منذ ذلك الحين، وقبلها كنت «أعيش» فقط، وقد أفنيت هذه السنين العشرين التي كانت تمثل عمري الحقيقي في كلمة واحدة،.. كلمة واحدة كانت مغناطيساً تحوم حوله ذرات وجودي، ذرةً ذرة، وخيوط روحي، ولحظات عمري، وأجزاء خيالي وفكري ومشاعري... إنشدَّ إلىٰ مداره كل وجودي..

وهكذا توحدت فيَّ كل الحركات والاتجاهات والتناقضات والمتفرقات والمفارقات والاضطرابات، واتخذت سمتاً واحداً، وحملت روحاً واحدة.

وبالرغم من تمزقي وتشتتي واختلاف صوري وأشكالي، وبالرغم من البون الشاسع الفاصل بين عقلي وقلبي كما بين «الفرش والعرش» والأرض والسماء وبالرغم من أن مشاعري وعقائدي وذوقي وأفكاري وعملي ومعيشتي كانت تمتاز عن بعضها كأقنوم لذات أخرىٰ، وتختلف تماماً فيما بينها جنساً وفصلاً، إلاّ أنّها كانت في نفس الوقت شيئاً واحداً، على نفس الخط والشاكلة، وبنفس الميول والاتجاهات، وتحت هذه «الكثرة الظاهرة» كانت تكمن «وحدة باطنة»، وأخيراً توحد الجميع في هذا «العالم الصغير» ـ الذي هو أنا الحقير ـ فكانت طبيعتي وما وراءها،

ووجودي، وظاهري، وغيبي، وشهادتي، وماديتي، ومعنويتي، وعقلي، وعشقي، وديني، ودنياي، وأنانيتي، واجتماعيتي، ولذتي، وألمي، وفقري، وغناي، وطمعي، وإيثاري، وحبي، وصداقتي، وحلوي، ومرارتي، وانتصاري، وهزيمتي ـ وهذه جميعاً لم يضمها قالب ولم يحكمها نظام ولم يخضعها ظرف ـ كانت جميعاً مصبوبة في بوتقة واحدة. كانت قالباً توحيدياً يطوف في مدار منظومة واحدة، وجاذبية واحدة، وشمس واحدة.

.. كلمة واحدة.. أفنيت فيها عمري الحقيقي ولم يعد لساني ينطق أو قلمي يكتب سواها... ولم أعرف قط غيرها..

وتلك الكلمة الواحدة هي: الناس!

* * *

كان عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

وأنا حزين أقيم العزاء وأبكي نفسي.. وفي قلبي عاشوراء لمجزرة الآمال، وأنا ألمح كربلاء مصيري المظلوم، وأشهد أسر بقاياي وكل ما تخلف مني... أي مصير أليم هذا؟!...

كنت متهماً لدى الجميع.. متهماً بالتدين في وسط المثقفين (العلمانيين).. ومتهماً بالعلمانية (اللاتدين) في وسط المتدينين، ومن وراء هؤلاء فأنا ـ أيضاً ـ: «خارجي تمرّد على بيعة أمير المؤمنين»!...

فرأيت نفسي عازفاً أصم، أو رسّاماً أعمى، أو عدّاءً مشلولاً،

وعلى كل حال فانّ من كانت العقيدة كامل وجوده، وكان معنىٰ وجوده يتكرس في كونه «معلماً»، وكان الحديث أنفاسه، والكتابة حياته، أصبح اليوم محروماً من هذه الثلاثة؛ لأن:

أولئك يمتلكون المذياع، والتلفزيون، والصحيفة، ومنصة التدريس، والحزب، وغيرها. . .

والمثقفون (التقدميون) يملكون المسرح، والمؤتمر، والترجمة، والتمثيل، والمجلة، والبرامج المنوعة، والصالات، والجمعيات، ومحال الاجتماع. . .

والمؤمنون يمتلكون المحراب، والمنبر، والندوة، والمسجد، والمجمّعات، والهيئات الحسينية، وحديثاً صاروا أصحاب «مجلة» أيضاً.

وأنا الذي أردت أن أكون مؤذناً وداعياً لديني، ولا أضحّي بالحقيقة من أجل المصلحة أبداً، ولا أستسلم للنظام الحاكم علىٰ «الصحراء»، ولا أشارك الجميع في معزوفتهم وأعزف علىٰ منوالهم معزوفة الزمن الرتيبة المتكررة. دائماً شعرت بأني ديك يصيح في غير وقته المعتاد، يرفع عقيرته في جوف الليل فجأةً، ويصرخ منوهاً بشروق الشمس وغروبها. . . وقد قامت السنن منذ آلاف السنين علىٰ شؤم هذا الديك. . . ووجوب ذبحه وقطع أوداجه؛ لأنّه ينادي في الظلام المطبق مبشّراً بالصباح، وينبىء عن الشروق في منتصف الليل، ويكسر صمت «الصحراء» الآمن بصراخه، ويقلق وداعة القرية وهدوءها الراكد، ويربك النوم الهانىء، ويوقظ

«الناس» من نومتهم الهانئة المريحة في أحضان الليل وقد تلفعوا بأغطيتهم البيضاء التي جعلت الليل كالكفن و . . .

* * *

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

تدريسي . .

كتابتي . .

وحديثي ، أيضاً . . .

وانبرىٰ ، هذه المرة ، الصديق وليس العدو ليقول : « . . . أجل ، الحقيقة بل الأحق . . ولكن . . ليس من المصلحة . . . فالشخصيات المؤثرة ، والقوىٰ المتنفذة ، وأصحاب الوجاهة والمكانة الراسخة عند العوام ، والقادرون علىٰ إثارة العصبية فيهم ، ونشر الإشاعة بينهم ، وخلق العقبات ، وإقامة الموانع والسدود ، وتشويش الأفكار ، والتخطيط ، والذين تصل أيدهم كل مكان ، ولهم كلمة في كل موقف ، وارتباط مع كل جهة ، ولهم وزن في المجتمع وأتباع في الناس . . هؤلاء أغلبهم يخالفون «فلان» ـ يعنونني ـ .

وعجلة الدين إنّما تدور ـ عادة ـ بدعم من «القوة» ومساعدة «الثروة» واستجابة «العوام» .

والآن حيث اشتبك معه بضراوة ورثة كعب الأحبار[١] ، وعبد

---

(١) كعب الأحبار (أبو إسحق) (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م) تابعيّ من أقدم رواة الحديث . يمنيّ الأصل . قرّبه معاوية . (المصحح) .

الرحمن بن عوف[١]، وشريح، وأبي هريرة[٢]، يعني «سحرة فرعون» المشاركين في الجبهات الثلاثة المذكورة، وخطتهم أن يشوّهوا سمعته بين الناس ويلوثوه، ويمسخوا وجهه عند العوام المتعصبين من خلال الكذب والتآمر، والاتهام، والبهتان، والتزوير، وبثّ الإشاعات، والتكفير، والشتائم، والسباب، لكي يخمدوا صوته ويبطلوا تأثير حديثه ويبقوا الجماهير دائماً سجينة في إقطاعيات أولياء الدين الرسميين الخالدين أبداً ـ يعني أضراب بلعم[٣] ـ وعندها يبقىٰ وحيداً فريداً فيصفو الجو للفراعنة ليخرجوه من المدينة وينفوه إلىٰ الشام ثم من هناك إلىٰ الربذة حيث يحتز رأسه ويقضى عليه ببساطة وهدوء!

إذاً، فليس من المصلحة الآن. . لا سيما أن جميع هذه القبائل الجاهلية وعليّة القوم قد أصابتهم جراحات لسانه، وغلت صدورهم بالاحقاد الشخصية عليه، لأنّه لم يداهنهم قط ولم يرعَ جوانب الأمر معهم، لا يعرف «السياسة» أساساً، ولا مداراة الناس، ولا يفهم شيئاً من علم الاجتماع والقواعد الاجتماعية، بل ما زال صغيراً في شرخ الشباب ولا طاقة لشيوخ القبائل وكبار الأصحاب علىٰ تحمله أبداً وهو يدرج في الثلاثينات من عمره،

(١) عبد الرحمن بن عوف (ت عام ٣٢هـ/ ٦٥٢م): صحابي قرشي زهري. من أوائل الداخلين إلى الإسلام.

(٢) أبو هريرة (عبد الرحمن بن صخر الأزدي) (٥٩هـ/ ٦٧٨م): من رواة الحديث توفي في المدينة. (المصحح).

(٣) بلعم (بلعام): عرّاف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل، فبارك ولم يلعن. (المصحح).

لهذا فان «مصلحة الإسلام» اليوم تقتضي أن يكون «جليس داره». . .

* * *

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

وأنا الذي لمست طول عمري قول الإمام الصادق «كل شهر محرم وكل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء» أحسست أن تلك السنة وذلك الشهر وذلك اليوم بالذات كان مصداقاً لقوله عليه السلام أكثر من أي وقت مضى. . وشعرت ـ أكثر من أي وقت ـ بالوحدة وبأني أصبحت ضحية الأيام. . وأدركت ـ بحرقة وألم أكثر من أي وقت ـ.

كيف تكون الفضيلة رذيلة في آخر الزمان!

ويبدو أن كل عصر «آخر الزمان».

و«آخر الزمان» دائماً وفي كل حين!

لا يضرنا شيء من هذا؛ فضربة العدو لا توجع، بل ترسخ الإيمان وتينعه، وتروي الرجاء وتورقه، وتعطي الحياة معنىً وقوة، ولكن المأساة في خصومة الصديق؛ لأنها تبث اليأس وتزيد الضعف وتورث الوهن و. . . هي سيئة، سيئة!

وليس عبثاً أن يزأر عليّ في عرصات «أحد» وهو يغمد سيفه في جموع الأعداء، وينزل عليهم كالصاعقة ليفرق جحافل المهاجمين، فيما نراه على منبر الكوفة يلطم وجهه بعنف تحت وطأة الألم والتوجع والعجز! . . .

أحسست أني وصلت إلىٰ طريق مسدود؛ طريق يسلبني قدرة البقاء على قيد الحياة، حيث انسد عليَّ طريق الوجود والبقاء بالرغم من انطلاقي في العمل والمواجهة والحياة الاجتماعية والعقيدة والطريق والسعي نحو تحقيق الأهداف. . .

وعلىٰ العكس ممّا يتصوره المثقفون المتغربون البعيدون عن الواقع، فان المثقف الواعي المتدين الذي يبحث عن آماله وطموحاته الإنسانية في إيمانه وعقائده ونصوص ثقافته الدينية يعيش وسط المجتمع المتدين أكثر غربة ووحدة؛ لأنّ عرض الدين بشكل واعٍ يبعث علىٰ التحرك والتنوير، يغيظ ـ قبل كل شيء ـ القوىٰ الدينية الرسمية ويقحمها في مواجهة ضارية وحرب عصيبة قاسية، فالدين التقليدي المسكّن ـ كما كان علىٰ طول خط التاريخ ـ قاعدة مشتركة للاستعمار الأجنبي، والاستغلال الطبقي، والاستبداد السياسي، والاستحمار الفكري والعقلي، يتحصن فيه هؤلاء الأقطاب الأربعة متىٰ داهمهم خطر الدين الاجتهادي الثوري وهو يدعو إلى رصّ الصفوف وتوحيد الموقف ضد العدو المشترك بالرغم من الاختلافات والمفارقات الموجودة بين أتباعه. . . يتحول هؤلاء الأقطاب يداً واحدة لقمعه وإبادته بلا هوادة.

ولهذا نرىٰ السيد جمال الدين الذي شرّده الاستعمار الانجليزي هوجم في نفس تلك الأيام من قبل سلاطين الدول الإسلامية ـ وكان بعضهم يخوض يومها حرباً جدية مع الاستعمار الانجليزي ـ فحاربوه وتآمروا علىٰ قتله وجعلوه كالكرة التائهة تدوسها الأرجل والأقدام، وفي زوايا المساجد والمحافل الدينية

كانت زمزمة تعلو وهمهمات ترتفع، وقد تولّى كبرها حتىٰ المقدسون الذين لا علاقة لهم بالأجهزة الحاكمة ولا الاستعمار، حيث أشاعوا بين العوام أن السيد جمال «بابيٌ» «لم يختن» و«ليس له دين صحيح... ولا يدري أحد أين درس؟ ولا من أين جاء؟...»

وهكذا،... تماماً علىٰ العكس ممّا يتصوره المثقفون البعيدون عن الواقع فإنّ المثقف الواعي المتديّن يحارب من قبل أقطاب الدين الرسميين أكثر من المثقفين غير المتدينين، بل أكثر حتىٰ من أعداء الدين، وبدلاً من أن يسندوه ويؤيدوه يواجهونه ويوقعون فيه قبل الجميع، فيمسخون شخصيته ويشوهون سمعته، وإذا واجه العدو واشتبك معه طعنوه بخناجرهم من الخلف.

وأما المثقفون (التقدميون) فأحكامهم تصل جاهزة معبّأة في قوالب غربية موافقة للمواصفات الدولية القياسية، فإذا سمعوا أن «فلاناً» له ميول دينية أو شمّوا منه رائحة الدين، فلا يتريثون لحظة واحدة في إصدار الحكم عليه والتنكر له بدون أيّ تأمل أو تفكير، ومن ثم يصادر وتصمّ الأسماع عن حديثه، وتشيحُ العيون عن كتابه، وتنهال عليه سيول الشتائم والتهم، ويحمل علىٰ الريب والتأويل والشنآن وما إلىٰ ذلك من التدابير المألوفة من أساليب الصدّ والمواجهة، تماماً كأربابهم ومراجع تقليدهم في أوروبا القرن التاسع عشر حينما أصدروا فتوىٰ: «الدين أفيون الشعوب» و«أداة بيد الطبقة الحاكمة» ـ وهي فتوىٰ صادقة في ذلك الزمان والمكان ـ.

وهؤلاء المقلدون الموالون يفقدون الجرأة والشجاعة الذاتية علىٰ التعقّل والاجتهاد، فيبيتون في ضلالٍ لا يفرقون فيه بين «دين السيف» و«دين الصليب»، و«إسلام أبي ذر» و«إسلام عثمان». . .

❊ ❊ ❊

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

كان الجو معتماً مظلماً، والليل أسود حالكاً، والأفق مقطّباً عابساً منكمشاً، والأرض سامدة من شدّه الهول، والظلمات مطبقة تملأ الأرجاء، وإذا كان ثمة وميض فهو كبريق عيون الذئاب، وإذا كان ثمة صوت فهو عواء ثعالب، . . والمؤامرات حامية الوطيس في الأسواق والمحافل، تحيك الدسائس، وتكيل الاتهام، وتذيع الأكاذيب. . والمتفرعنون مسيطرون. . والقارونيون والبلعميون والسحرة، القوا بحبال العبودية المطليّة بزئبق الخداع. . والعدو المتيقظ المثابر، والعوام الذين أثارهم الجهل (الغوغاء)، والخواص المتاجرون بالعلم والحقيقة. . .

احتوشه أعداؤه تأميناً لمصالحهم، وأصدقاؤه رعاية للمصلحة. . . لساني مقطوع. . قلمي مكسور. . شفتاي مطبقتان. . يداي مكبّلتان. . أقدامي دامية. . طريقي مسدود، وحملي ثقيل، والعدو يحاصرني من كل مكان ويتخذني غرضاً للنبال. . والأصدقاء. . . آه من الأصدقاء. . .

. . . إنسحاب مفاجىء ورجوع إلىٰ القهقرى. . . ولعلّ

المصلحة تقتضي النفاق والعزف على أنواط الجماعة. . . أو الزحف إلىٰ الصف الآخر. . أو اللجوء إلىٰ أحضان التقية والسبات في مكمن أمين ترقّباً لأحداث الغد. . . أو الدخول في نجوىٰ السياسة: إن المصلحة تقتضي ـ الآن ـ أن نخرجه نحن من الميدان ونقذف به خارجاً ونضغط بأيدينا علىٰ حلقومه، لخمد صوته، ونطفىء صرخته، ونضع السكين علىٰ رقبته، ونطرحه أرضاً أمام أعين «أولئك» الذين أرادوا أن يسقوه كأس الشهادة ـ وهم علىٰ كل حال مؤثرون ولهم دورهم مهما كانوا ـ، ونذبحه ذبحاً شرعياً تحت أقدامهم، ونرمي بجثمانه بين يدي الجمع؛ لكي تثبت براءتنا، ويرضىٰ «أولئك»، ونتنصّل عن المسؤولية ولا نقع في الورطة، ويرضىٰ عنّا شيوخ القوم ورؤساء القبائل وسادات قريش ورؤوس النفاق وأهل الحل والعقد، فنطمئن إلىٰ متابعة أعمالنا براحة وإتقان، ونقنع الجميع ونكسب رضاهم.

ومن ثم نعقد الشورىٰ بالاشتراك مع جميع المبشرين بالجنة ـ شورىٰ من خمسة أشخاص طبعاً ـ ونقيم السقيفة المشكلة من الأشراف والأصحاب وأهل الحلّ والعقد وتحكمها الضوابط الدقيقة بحيث لا يصل إليها بحال خارجي عن المذهب، أو «رافضي» للسنة، وتكتمل الأعمال في إطار البيعة وإجماع أهل الحل والعقد وموافقة التراث والسنن والتقاليد القديمة الموروثة وطريقة السلف والمشايخ. . .

❊ ❊ ❊

كانت ليلة عاشوراء.، عاشوراء ٤٩..

وأنا جليس الدار، وضحية «المصلحة». . . !

أنا الذي لم تنذمني أنه: تحت وطأة الظلم أبداً، لم أخش الخصم، لم أقنط أو أستسلم لليأس علىٰ أثر الهزيمة. . بيد أن هذه الكلمة المشؤومة «المصلحة» كانت تعتصر قلبي ألماً. . . المصلحة! هذه الشفرة القاسية التي لا ترحم «المصلحة. . » الشفرة التي ذبحوا بها «الحقيقة» ـ دائماً ـ ذبحاً شرعياً. . . وكلّما عادت «الحقيقة» منتصرة من ميادين الصراع وأفلتت من فخاخ جرائم العدو كانت تخنقها أيدي «المصلحة» في ظلال خيام الخيانة التي ينصبها الأصدقاء. . .

ومصير علي ومآل أمره شاهد حي على ذلك!!

. . . أخذتني الرعدة وارتعشت فرائصي وانتابتني رجفة جعلتني أهتز كشجرة الصفصاف خوفاً علىٰ إيماني، حينما بلغني أن أحد أصدقائي الذين ترعرعت وكبرت في حبّه يجهد نفسه ويحاول محاولات ساقطة تهدف إلىٰ تشويه سمعتي وتلطيخ صورتي ـ لا أن يقتلني ـ بل يشوه سمعتي من أجل «المصلحة». . استولىٰ عليّ الخوف، وتوجهت إلىٰ الله بكل ما أوتيت من قوة ورجاء داعياً ملتمساً أن يحفظني الله!! . . ليس إلاّ . .

ولأول مرّة في حياتي شعرت بالحاجة والحنين إلىٰ الأنين. . . لكنّي لم أجد غابات النخيل التي أعرفها وأبثها أسراري وهمومي. . .

لم أعد أتحمل. . . تناولت قلمي لأكتب رسالة إلىٰ صديقي. . رسالة ألم إلىٰ الإنسان من النوع الرابع في تقسيماتي لمن أخاطبهم من البشر المذكورين في «الصحراء» «كوير»(١). . .

صحراء بشمس شاحبة معتمة، وسماء بلون الحياء. . . صحراء تغرق في آفاق متلاحقة. . آفاق مصبوغة بالدم. . وثمة شبح ينبع من بحر أحمر. . صدر صحرائي مقفر وحيد تمطره غيوم الألم،. . شبح، أو نُصْبٌ. . تمثال. . هيكل ينتصب قائماً في الدماء. . سِنْدان يقاوم تحت ضربات الصديق والعدو. . جريح. . دام. . كسير. . صامت. . ويد تمسك بالسيف. . وتشدّ القبضة بعنّاد وإصرار من أجل التمسك به والحفاظ عليه و. . .

واليد الأخرىٰ. . . تبقى هكذا بلا تكليف. . . !

لا يقاتل. . . فبماذا يقاتل؟!

لا يتكلّم. . من يخاطب؟!

لا يرحل. . إلىٰ أين؟!

لا يعود. . فكيف يعود؟!

ولا يقعد. . فـ. .

أبداً. .

واقف وكل همّه وجهده أن لا يتهاوىٰ ويسقط. .

---

(١) عنوان كتاب للمؤلف.

قائم.. قائم علىٰ معابر التاريخ.. يوقف الأجيال التي تمر ويصرخ فيها منادياً: أيّها المنهزمون من ساحات الشهادة، «شهادة التاريخ» علىٰ مطايا العار السوداء..!

و.. أيها الذئاب.. الثعالب، الفئران السارقة التي تعبد الذهب المسكوك!!

وأنتم أيّها الأغنام.. والدواب الذليلة التي تدفن رأسها في الوحل..

أيّها الغائبون، الفارغون، الغافلون، السفلة.. هل فيكم أحد ما زال يتذكر صورة الإنسان؟! هل ثمة عيون تستطيع أن تراه وتعرفه من جديد؟!

أولاء الذين تقلّدوا الموت قلادة مزينة بأروع وأجمل الجواهر الإلّهية... الأحياء الخالدون الذين لا ينالهم الموت.. يشهدون علىٰ كلّ ما يمر في تاريخ بني آدم.. شهداء علىٰ من يموت من بني آدم.. ومن يذبل منهم ويصير ضحية الجلادين والطواغيت!

بينما كنت غارقاً في تدوين الرسالة، ارتجفت ـ فجأة ـ وارتعدت فرائصي..!

من هذا؟ من هذا الهيكل.. مثال الوحدة والغربة والهزيمة واليأس والألم.. في صحراء مصبوغة بالدم.. يرفع رأسه من بحر الشهادة الأحمر ويقف وحيداً صامتاً؟!

لم يعد ذاك أنا! إنّما هو هابيل؟ أول قتيل مظلوم في تاريخ

الإنسان، الذبيح المعصوم، ذبيح الملكية والشهوات، التي جعلت من الأخ جزاراً يقتل الأخوان؟

. . . بروميثيوس[١] ـ الاسطورة ـ هبط بنار الآلهة المقدسة من الملكوت إلىٰ الأرض، وأضرمها في الليل الحالك الأسود وشتاء الأرض البارد القارس، وحياة الإنسان الأعمىٰ الكئيب. . فحكم عليه ـ مؤبداً ـ بالوحدة والغربة والعزلة والتكبيل والتعذيب الوحشي؟!

. . . إبراهيم في النار؟ إسماعيل في مِنىٰ[٢]؟ يحيى[٣] في بلاط هيرودس[٤]؟

. . موسى غريب في الصحراء مشردٌ في الفيافي والقفار، يخرج مترقباً خائفاً من فرعون!؟

والمسيح يرفع علىٰ صليب الجريمة والتجبّر. . صليب اليهود وقيصر؟

محمد علىٰ مرتفعات الطائف. . وحيداً، دامياً، جائعاً، طريداً، جريحاً، يُرمى بالحجارة. .؟

---

(١) بروميتيوس (برومية): إلّه النار في الميثولوجيا اليونانية. مؤسس الحضارة الإنسانية؛ اختطف النار المقدسة من السماء ونقلها إلى البشر فعاقبه «زمس» وقيده على جبل القوقاس.

(٢) مِنى: بلدة قريبة من مكة وعرفات. فيها مرمى الجمار «الرجم» وقربها غار حراء الذي كان النبي يتحنّن فيه.

(٣) يحيى: المقصود يوحنا المعمدان.

(٤) هيرودس (انتيباس) ٢٠ ق.م. ـ ٣٩: ابن هيرودس الكبير. أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان (يحيى) بتحريض من زوجته هيروديت. حاكم المسيح. (المصحح).

. . . عليّ يقعد في البيت، يرزح تحت وطأة الصمت الثقيل المخيم على بيت فاطمة الوجيع المؤلم، في صرخات بساتين نخيل الوحدة، وليل مدينة الفتوح والغنائم؟ يدخل رأسه في أفواه الآبار خارج «المدينة» سابقاً؟ يسبح في أمواج الدم الساخن المتدفق في محراب مسجد الكوفة؟

ما هذا الذي أقول؟

إرتفع وحيداً علىٰ صليب وجوده الموجع العاشق. . واستشهد؟

لمن هذا الهيكل. . الصورة والتمثال؟ لهؤلاء جميعاً؟ أجل، لهم جميعاً. .

أليس هؤلاء جميعاً شخصاً واحداً، وشخصاً واحداً في هؤلاء جميعاً. .

. . واحد اسمه «الإنسان المظلوم»؟ لماذا أخاف ألاّ أكون أنا؟

ألم يوجد «هو»(١) في كلّ أحد. . . ألم توجد ذرة منه. . .

أجل هذا «التمثال. . . الصورة» لهم جميعاً. . وصورتي أنا أيضاً، حيث أن عشقي وحبّي وألمي ومعاناتي، عشقهم وحبهم وألمهم ومعاناتهم، وعشقه «هو» وحبّه وألمه ومعاناته وإن كان في «وعاء» وجودي الحقير. . .

---

(١) يعني «الإنسان المظلوم».

إذاً فهذا التمثال هو أنا أيضاً، أجد نفسي مرتسماً في وجه هذا التمثال، تمثال الوحدة والألم والظلم والغربة، الذي يخرج رأسه من أمواج الدم في الصحراء الحمراء، ويقف قائماً في الشمس الشاحبة المعتمة. . و«هو» في أعماق فطرته، ذاك «هو» وحيد التاريخ والمتمرد المظلوم، والشهيد المقاتل في التاريخ.

أجل تمثال هابيل. . تمثال لكلّ هابيل، وكلّ عليّ. . وتمثالي أنا أيضاً. . وتمثال الحسين أيضاً. .

ذرة منه فيّ أنا، وكلّه «حسين».

تمثال الحسين؟ أجل الحسين الذي شهد ويشهد جميع مراحل التاريخ، شاهد علىٰ جميع المواقف والساحات، ضحية التاريخ دائماً وأبداً، منذ آدم وإلىٰ يوم القيامة.

هو هو واحد؛ يبعث مرّة باسم هابيل، ويروح ويغدو ـ ومرة ـ باسم إبراهيم، وأحياناً. . .

. . أي تشابه عجيب بين ركام الآلام هذه وفاجعة المصير هذه التي أئِنّ منها وأتضوّر لها، وبين ما جرىٰ في مثل هذه الليلة في التاريخ وشهده العالم يومها!. . تشابه. . ؟!

أجل تشابه كنسبة الشبة بين الكاريكاتور وواقع الحقيقة الصادقة. . وكنسبة تمثيل بعض القرويين لواقعة الطف وواقعة الطف نفسها، وكنسبة الإنسان إلىٰ الله!

انتبهت؛ كم هو مخجل أن أتحدث عن نفسي في مثل هذه الليلة، وأن أئنَّ من جراحي وآلامي الحقيرة!. . فتركت الرسالة.

بيد أنّي بقيت حائراً . . ماذا أصنع؟!

* * *

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

قلت في نفسي أذهب إلىٰ مجلس من مجالس التعزية[1] المتناثرة الليلة في كلّ مكان حيث تنبعث الأصوات من كل بيت وزقاق . . . لكنّي وجدت إيماني واعتقادي بعظمة الحسين وعظمة عمله تمنعني من سماع سيل الإهانات وتحملها[2] . . .

فانصرفت عن الفكرة . . .

كانت ليلة عاشوراء . . وكانت المدينة عن بكرة أبيها تضج بالتعازي والنياحة، والبيت يغرق بالصمت والسكوت والألم . . .

ماذا كنت أستطيع صنعه؟! استطعت أن أترك نفسي وانصرف عنها . .

---

(١) هي مجالس العزاء التي تقام في ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام .

(٢) لا شك في أن أهل البيت عليهم السلام أكدوا بأساليب وبيانات مختلفة على الاجتماع لذكر أمرهم وإحياء ذكرهم، كما ثبت ذلك في صحيح الأثر، كما لا شك في مدى أهمية الدور الذي أدّته هذه المجالس الحسينية في حفظ تراث الشيعة ونشر ثقافتهم وبيان ما وقع عليهم وعلىٰ أئمتهم من ظلم عبر التاريخ. ويبقىٰ أن بعض هذه المجالس قد تكون فارغة من حيث المحتوىٰ، أو يقع خطباؤها في مطبات اجتماعية أو تاريخية توثيقية، وقد يضطر الخطيب أحياناً إلىٰ عرض المأساة بشكل سلبي يستبطن الإساءة لأهل البيت وإهانتهم، وهذا ما يحصل بالفعل، ولكن هذا لا يعني إلغاء هذا الشعار الذي تظافرت عليه روايات أهل البيت «أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا» «أتجلسون وتتحدثون في أمرنا». . . (المؤلف).

استطعت أن أنصرف عن «التعزية»، ولكن كيف يمكنني أن أصرف نفسي عن عاشوراء؟!

أمسكت الرسالة التي كتبتها لصديقي ـ صديقي الذي كنت آوي إليه كلّما أعجزتني أيامي واضطرتني إلىٰ التوجع والأنين ـ ثم قلت: فلأجلس للعزاء مع نفسي في هذه الوحدة المؤلمة وليلة العزاء هذه. . ألا يمكن أن يقيم الإنسان «العزاء» لوحده؟. .

جلست وكتبت «تعزية» لقلبي. . ، فغيّرت ما كتبته قبل قليل عن نفسي وتصوير غربتي وألمي، وأخذت بتصوير غربة الحسين وألمه. . فعظمة آلامه ومعاناته وجلال شهادته تهوّن كلّ ألم ومعاناة في الحياة، وتنسي رزيته ومصيبته كلّ رزيّة ومصيبة أخرىٰ وتجعلها حقيرة!

فانتقلت إلىٰ الحسين، وهذا ما ستقرأوه في الصفحات القادمة.

وفي هذه اللحظات المهولة العجيبة حيث كنت أعيش في حالة من «نسيان الذات» المطلق، . . حالة من «الذهول» المطلق، والألم. . . والألم إذا اشتد وبلغ «الذروة» يتحول إلىٰ حالة من الهيام والسكر. . . حالة من السكون والهدوء والروعة، وما يدمّر ويمزق إنّما هو الألم الحقير الصغير، أمّا الألم العظيم فقد خلّف في أعماقي نشوة سكرىٰ بحيث جعلتني ساهماً ذاهلاً عن ذاتي وكأني لم أكن. . لم أكن أنا!

كان الألم. . وكان ألم يكتب نفسه. . .

وفجأة انقدحت في ذهني هذه الزيارة العميقة، زيارة «وارث».. تخاطب الحسين:

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله،

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله،

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله،

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله،

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله،

السلام عليك يا وارث محمدٍ حبيب الله،

السلام عليك يا وارث عليّ وليّ الله،

عجباً! لقد اتسعت ساحة كربلاء ـ فجأة ـ أمام عيني حتىٰ وسعت سطح الأرض، كلّ الأرض.. وامتد صف الـ ٧٢ قائماً علىٰ شاطىء الفرات بقيادة الحسين.. إمتد علىٰ طول التاريخ منذ آدم ـ بداية وجود النوع البشري على الأرض ـ وينتهي إلىٰ... إلىٰ آخر الزمان، نهاية التاريخ... صف واحد يمتد من بداية التاريخ إلىٰ نهايته!

إذاً فالحسين ليس سياسياً «حارب» يزيد؛ لأنه كان يشرب الخمر ويلعب بالكلاب فوقعت هذه «الحادثة الأليمة»...

الحسين.. وارث الراية الحمراء التي تناقلتها الإنسانية يداً بيد منذ زمن آدم، وهي اليوم بيد الحسين، وقد أعلن ـ عليه السلام ـ شعاره: «كلّ شهر محرم وكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء»،

وأودع الراية بيد قادة الناس والأحرار وجميع المطالبين بالعدالة في تاريخ البشرية. . تتداولها الأيدي يداً بيد؛ ولهذا صرخ في لحظاته الأخيرة وهو في طريقه إلىٰ الموت وتسليم الراية. . صرخ في الأجيال المتعاقبة علىٰ مرّ العصور المقبلة:

«هل من ناصر ينصرني؟!»

ثم تبين لنا فيما بعد أن «الوراثة» لم تدخل هذا النص لمحض الصدفة، ولم تكن هذه المفردة تعبيراً أدبياً ليس إلاّ. . إنّما هي مصطلح علمي تاريخي، وهي في الإسلام أصل فلسفي عقائدي[١].

ومن خلال هذا الأصل يبيّن الإسلام أن الحوادث المتفرقة

---

(١) نلاحظ أصل «الوراثة في قصة موسى أيضاً. . حيث يروى أن موسى لما فرّ من فرعون ولجأ إلىٰ شعيب وأخذ يرعىٰ أغنامه، رأى يوماً عصا نابتة في الأرض (في بستان شعيب) فأمعن النظر فيها فقرأ عليها رموزاً مكتوبة (تتحدث عن مستقبل بني إسرائيل)، فسأل شعيب عن ذلك فأجابه شعيب قائلاً: «لما مات يوسف كنت أنا كبير مصر ـ دينياً ـ وكنت شيخاً كبيراً، ولمّا قسموا تركته كنت حاضراً في زاوية المجلس، فطلبت منهم أن تبقى عصاه عندي للذكرى، ولما لم تكن لهذه العصا قيمة ذات مال عندهم وافقوا على إعطائها، فأخذتها وجئت بها إلىٰ أرضي. وذات يوم خرجت لسقي البستان فغرستها في الأرض كيما يتم عملي ثم أعود لأخذها، فلما عدت إليها وجدتها قد أورقت واخضرت ونبتت في الأرض، وكلما حاولت قلعها من الأرض باءت محاولاتي بالفشل. . وحين سمع موسى تلك القصة فهم السر المودع في تلك العصا، فذهب واستلّها من الأرض كما يستلّ الشعر من اللبن، وجعلها عصاه يتوكأ عليها، فكانت عصاه المعجزة التي لقفت ما يأفكون وصارت آيته في العالمين ومعجزة رسالته الكبرى، تلك هي العصا التي ورثها من يوسف!!

والظواهر المتنوعة التي تقع في مقاطع زمانية ومكانية مختلفة إنّما تسير بإتجاه واحد، وترتبط في ما بينها ارتباطاً منطقياً، وتولد وتموت علىٰ أساس العليّة والقوانين العلمية، تتبادل التأثير، ويؤثر بعضها في بعض، وتشكل كل واحدة منها حلقة في سلسلة متصلة منذ بداية التاريخ البشري (آدم) إلىٰ نهاية نظام التناقض والنزاع في التاريخ (آخر الزمان)، وهذا ما يطلق عليه إسم «التسلسل المنطقي والحتمية التاريخية».

وعلىٰ هذا «فالوراثة» أصل علمي منظور يسمىٰ اليوم بـ «الوحدة التاريخية» و«الاتحاد والاستمرار» التاريخي، وهذا المصطلح يعني أن الإسلام يمتلك «فلسفة تاريخية» محددة المعالم[1].

لقد استعمل القرآن الكريم كلمة «الدين» دائماً بصيغة المفرد، وأطلق كلمة «الإسلام» علىٰ جميع رسالات الأنبياء الماضين،

(١) استعار المؤلف هنا وفي أماكن أخرى اصطلاحات الفكر الماركسي، وليس مراده نفس المعنى الديالكتيكي الدقيق المقصود في الأدبيات الشيوعية، وإنّما مراده في كثير من الموارد معانٍ خاصة يقصدها ويبيّنها في نفس المحاضرة أو في محاضرات ومؤلفات أخرى، وغرضه هنا هو حالة الصراع الثابت بين دعوتي الحق والضلال، ودعوة الأنبياء وأعداء الله على طول خط التاريخ، وهذه حقيقة ثابتة لا تنكر، وقد صرح بها القرآن الكريم جلياً في سورة الأنبياء حينما عرض موقف الأنبياء الواحد تلو الآخر «اعبدو الله وحده. . .» وموقف الكفار والمعاندين الرافضين المحاربين دائماً وأبداً. وهذه المعركة بين الحق والباطل قائمة لا يخمد أُورها، حتى يظهر الحق ويرفع رايته المنقذ المنتظر وستجد مراد المؤلف في السطور الآتية حيث يبين ذلك بنفسه.

ووحد جميع «الذين قادوا الإنسان إلىٰ النور والعدالة» في جميع العصور، وربط الجميع من خلال حلقات متصلة بآدم.

وكذلك نجد كبار الأنبياء ـ في أدبيات الإسلام ـ كلهم من ذريّة إبراهيم، بل نجد شجرة النبوة متصلة متلاحقة من إبراهيم إلىٰ آدم أيضاً. . .

وبهذا يريد القرآن الكريم توضيح أن «حركة محمد ﷺ» ليست حركة مجردة مبتورة، إنّما هي استمرار لحركة واحدة في التاريخ والإنسانية، تجري في تيار الزمان وتتنقل من آن إلىٰ آن، ويصور الجميع في «وحدة تاريخية وحدة «دين» و«إسلام» و«رسالة» و«نبوة» و«منطلق» و«هدف»، . . وهي عبارة عن «حركة» رسالتها التاريخية «إنقاذ الناس» و«تكامل الإنسان».

وبتعبير القرآن الكريم: تزويد البشرية بـ «الكتاب» و«الميزان» و«الحديد» و«تعليم الحكمة» ـ العلم والوعي والبحث عن الحقيقة ـ، وتحقيق القسط ـ العدل والمساواة الطبقية والعنصرية مادياً ومعنوياً ـ.

وهذه الرسالة تتوارثها الأجيال يداً بيد عبر التاريخ والعصور المتتالية، يتسلمها الأنبياء المبعوثون للناس والناس المتطلعون إلىٰ العدل، وهؤلاء هم الورثة المتعاقبون لهذا الميراث الإلهي العظيم.

وفي مقابل هذه الحركة المتلاحقة والرسالة الواحدة تقف القوىٰ المحادّة لله، المحاربة للناس، هؤلاء الذين «يكتمون آيات الله ويقتلون الأنبياء ـ ومن يطالب بالعدل ـ بغير حق» ويصدون عن سبيل الله، ويجرّون الناس إلىٰ الاستعباد والذلة والاستضعاف،

ويدعونهم إلىٰ أنفسهم وطاعتهم وعبوديتهم وتعظيمهم والتملق لهم، بدلاً من الدعوة إلىٰ عبادة الله وطاعته وحمده والثناء عليه، ويعتبرون أنفسهم أرباب الناس، ويطغون في الأرض ويتخذون عباد الله خولا، يجبرون الناس علىٰ التسليم لهم وطاعتهم وعبادتهم وتقليدهم تقليداً أعمىٰ تحت ستار «الروحانية» ويدعون إلىٰ عبادة الرئيس وعبادة فرعون، وعبادة الروحاني «رجل الدين» إلىٰ جانب دعوتهم إلىٰ عبادة الله ـ هؤلاء الذين أطلق عليهم القرآن ثلاثة عناوين كلية «الملأ» و«المترف» و«الراهب».

وقفوا دائماً في وجه رسالات الله ومنعوا تحقق العدالة واليقظة والحرية وتكامل الإيمان والتوحيد الخالص الصادق.

الله يعطي الإنسان كرامة وفضلاً، ويجعل الناس عياله ومقربيه، ويريد لهم العزّة والحرية والنعمة والشرف والقوة والاقتدار . . .

وهؤلاء. . يجعلون الناس عبيداً مستضعفين ومقلدّين، وجهلة مطيعين. .

ولهذا قامت الحرب دائماً وفي كل مكان بين جبهتين، قطبين، محورين، محور الله، ومحور إبليس، جبهة أنبياء الناس وجبهة الملأ والمترف والراهب، معركة متلاحقة متواصلة دائماً وفي كل بقعة علىٰ الأرض، من آدم ـ يعني بداية تاريخ الإنسان ـ إلىٰ آخر التاريخ، يعني انبساط العدل علىٰ ربوع الأرض، وتحقق العدالة العالمية والانتصار الحتمي للناس والحرية وعبادة الله، وفناء

الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي والاستحمار الديني . .

ويقف للحرب في هذين الصفين الممتدين على طول التاريخ وفي كل أرض ومكان، ويتواجه الحق والباطل، العدل والظلم، التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الناس والملأ، المستضعف والمستكبر، ويقود جناحي سلسلة الوراثة أيضاً: هابيل وقابيل، إبراهيم والنمرود[١]، موسى وفرعون، يحيى وهيرودس، عيسى وقيصر، محمد وقريش ـ أو كسرىٰ والقيصر ـ علي ومعاوية و. . .

واليوم. . الحسين ويزيد!

وغداً. . . حسينيون ويزيديون آخرون في عاشوراء وكربلاء أخرى. . .

يا للعجب. . جهة فيها حملة مشاعل النور، ورثة الأنبياء وطلاب العدالة، شركاء الأنبياء في الألم والمعاناة والموقف! وفي الجهة الأخرىٰ الوسواس الخناس في السر والعلن الذي ينفث وساوسه في أعماق الناس.

يا لها من صورة عجيبة انقدحت في لحظة. . .

حينما كنت أتأمل أصل «الوراثة» وخصوصاً «وراثة الحسين» الذي ورث جميع الثورات في تاريخ الإنسان ـ من لدن آدم إلىٰ يومه ـ أحسست فجأة، كأن جميع تلك الثورات والأبطال، وجميع الجزارين والشهداء انبعثوا في مكان واحد من أعماق قرون التاريخ

---

(١) النمرود: أول جبّار في الأرض. ذُكر في سفر التكوين. (المصحح).

المظلمة، واجتمعوا من كل بقاع الأرض البعيدة والقريبة..

كأنّهم حشروا جميعاً وخرجوا من مقبرة التاريخ الصامتة المنطفئة كالجراد المنتشر علىٰ أثر صرخة الحسين التي دوّت في العالم كأنّها صور إسرافيل[1]، وقامت القيامة، واحتشدوا جميعاً في «صحراء كربلاء ـ المحشر ـ»، ووقفوا صفَّين متقابلين علىٰ شاطئي الفرات:

اصطف علىٰ الشاطىء جميع الأنبياء والشهداء وطلاب العدالة وضحايا جرائم التاريخ، من هابيل إلىٰ الحسين، وكلّهم ذرية بعضها من بعض وطينة واحدة وعنصر واحد، وأصلهم جميعاً من النصف الإلّهي من شقي الناقض في ذات آدم ـ نفخة الروح، روح الله ـ وهؤلاء يرث بعضهم بعضاً ويحملون الأمانة التي تسلمها آدم من الله.

وعلىٰ الشاطىء الآخر ـ من قابيل إلىٰ يزيد ـ الفراعنة، النمرود، كسرىٰ، قيصر، بخت نصّر، وجميع الجلادين والجزارين والقتلة وناهبو حياة الشعوب والحرية والشرف الإنساني! كلهم من طينة واحدة، ذرية بعضها من بعض، أبناء قابيل ـ الجزار الأول، قاتل الأخوة المخادع الماكر المهووس ـ أصلهم جميعاً من النصف الطيني النتن من شقيّ التناقض في ذات آدم الثنائية، روح إبليس، نفخته التي نفثها في آدم، وهؤلاء أيضاً يرث بعضهم بعضاً، وحتىٰ الآلهة والشخصيات الأسطورية أيضاً انتظمت في صفيّن وانخرطت

---

(١) اسرافيل: اسم الملاك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة. (المصحح).

في جبهتين متقابلتين، رمزاً وصورة ذهنية عن الحقيقتين الواقعيتين، فانعكاس الحقيقة البشرية «الله ـ إبليس» في العالم «أهورا ـ اهريمن» وظل الحرب الحسينية ـ اليزيدية في السماء «بروميثيوس ـ زيوس».

* * *

كانت ليلة عاشوراء.. عاشوراء عام ٤٩..

وأنا أعيش تحرر الوحدة، وحرارة الإيمان، ولهيب الحب، والقدرة المعجزة المتحررة من الألم والمعاناة، والصفاء النقي، والخلوص الصافي الذي تخلفه الهزيمة في الروح، والاستقلال الكامل والاستغناء الذي يمنحه اليأس للرجال والحرية المطلقة، والتحليق بخفة، والجولان في كل مكان، والحركة التي تملأ الفراغ الأجوف. . .

أعيش التحرر من قيود الرجاء وأصفاد الترقّب والانتظار، وأدران الاستغاثة والاستمداد، وأثقال حمل الآمال، ونشوة التوفيق، ونفث الوهن، ووساوس الضعف الموروثة من رضى العوام، واستقطاب الخواص، ومودة الأقرباء، واهتمام المؤمنين، ولعنة هذا ودعوة ذاك، ودغدغة التفكير بالخطر والضرر والمصلحة والمنفعة والمكانة والجاه، وأخيراً صياغة العقيدة، والمشاعر، والتفكير، والعقل، والدين، والإنسانية، والأنا، والناس، والواقع، والحقيقة، وتطبيقها مع مقتضيات الأوضاع والأحوال والمصالح والظروف، بمعنىً أن الكرامة التي كرّم الله الإنسان بها، والفضل والشرف والخلافة ونفخة الروح في هيكله، واسجاد

الملائكة بين يديه، وأنه لما نظر إلىٰ قامته قال: «فتبارك الله أحسن الخالقين». . كل هذا خاص بخواصه!! يعني استبدال توحد القرآن بنوع من «النرجسية» (Narcissisme) فتكون «قصة آدم» ضرباً من هذه النرجسية!

«نرسيس» ـ نرجس ـ إله اليونان ـ كان ذات يوم قرب الماء فرأىٰ فجأة صورته في ذلك الماء فطار فرحاً وإعجاباً، فعشق نفسه وهام بها وبكل ما يمتُّ إليها بصلة. . .

النرجسية: نرسيس الآلهة يعشق نفسه. . لا يرىٰ إلاّ نفسه. . يحب نفسه وكل ما يتعلق بنفسه. . ظلّه. . آياته.

إذن من هو «الله»، ذاك الذي يعاتب في القرآن أنبياءه وأقرب رسله الأمين ويهدده ويلومه ويشدّد عليه. . .؟!

ونوح. . حمّله تلك الرسالة الثقيلة ووضع أعباءها علىٰ عاتقه، فعمل وجاهد وضحىٰ في سبيله، وتجرّع الألم وقاسىٰ المعاناة تسعمائة سنة. ثم لم يستطع أب أن يكون شفيعاً لابنه الوحيد.

ويونس سجنه سنين عديدة في بطن الحوت لمجرد اشتباه بسيط صغير يرتكبه.

وينقل الرسالة عن ذريّة يوسف لمجرد تقصير. . .

وآدم. . آدم الذي امتدحه في خطاباته له وخلقه بيده، وباهى به ملائكته وسائر خلقه و. . . وإذا به يقلب العاقبة رأساً علىٰ

عقب، ويحكم عليه بالغربة والمعاناة والسعي والمجاهدة في صحراء الأرض لمجرد خطأ وانسياق نحو البطن و. . . ؟

ما الذي أقوله الآن أنا؟

صه! اسكت!

كنت مستطرداً:

في تحرر الوحدة وحرارة الإيمان ولهيب الحب، والقدرة المعجزة المتحررة من الألم والمعاناة، والزلال النقي والخلوص الصافي الذي تخلّفه الهزيمة في الروح، والاستقلال والاستغناء ـ عن كل شيء وكل أحد وكل مكان ـ الذي يمنحه اليأس، التحرر والخفة، وانطلاق الطهارة والتقوىٰ من القيود والسدود والحدود والأمواج المتلاطمة في «خلوة» «المقطوع عن الغير».

انطلق طائر خيالي دون أن يتلوّن بألوان المصلحة ويثقل بأثقال المنفعة ووساوس الطمع ومراودة الخوف، انطلق إلى الله خالياً من أفكار «العمدة» المتغطرس. . .

أقلع فجأة من شاطىء الفرات، وخفق جناحه من عاشوراء عام ٦١، ومرّ علىٰ جميع بقاع التاريخ، وزار جميع مواقع ماضي الإنسان وساحات تواجده الغابر، واخترق ـ كروح هشمت بوتقتها الطينية وعجّلت نحو حبها المعذب المثير ـ جدران القرون والعصور، وحلّق فوق أودية التاريخ العميقة السحيقة المظلمة، وجاوز الزمن فترة فترة، ومرحلة مرحلة، وتوغل في أعماق الماضي المنطفىء المظلم، وعبر حدود التاريخ، وتوسط فضاء

الأساطير الضبابي الأثيري و. . . وصل إلىٰ آدم! . . . إلىٰ منبع البشرية الأول. . . بداية أول تاريخ. . .

هناك حيث ينبع تياران أسود وأبيض (أبيض؟ كلا، أحمر) من منبع واحد ـ وهو آدم أو الآدمية ـ ويجريان في عرض الزمان وأخاديد العصور. .

ويصير آدم اثنين: قابيل، هابيل، وتبرز «الأنا» وتنقسم الـ «نحن» إلىٰ شقيّن، وتسفك الدماء، ويوجد أول جلاّد جزّار وأول شهيد، ويصبح الأخوان غريبين وعدوّين متقابلين؛ أحدهما في صف الله والآخر في صف إبليس.

ونظام المعيشة والحياة: افرزت الملكية، عبادة الذت والمال، الأنانية، السرقة، الاختلاس، التوسعية، الفقر، الخيانة الطبقية، الارستقراطية، الغربة، العداوة، الشرك، الحدود، العنصرية، القومية، الحرب، الاستكبار، عبادة الهوىٰ، اللذات، الهوس، الفساد، الخداع، الظلم والجور و«دين النوم والختل والاستسلام والتمكين والتخدير والرضا والجبر»، السياط والتعذيب، المجازر العامة، الاستبداد، الاستعباد، الاستحمار، الاستغلال، الاستكبار، الملأ، استضعاف الناس، وجعل الخنّاس حاكماً والناس محكومين. وعبادة الطاغوت والأجداد والقبور والخانات والخاجات (السادة والأرباب) ورجال الدين (جور الأديان).

والخلاصة: تبديل أبناء آدم ـ خليفة الله وأمينه الخاص في

الطبيعة ـ إلىٰ أربعة حيوانات: ذئب، ثعلب، فار، شاة.

ثلاثة منهم شركاء.. شركاء في القول والفعل والسلوك، شركاء دائماً وأبداً، ورأسمالهم الصوف واللبن واللحم والسَّمن والدم والجلود الحاصلة من القسم الرابع؛ لأنّهم أغنام الله وأولئك الثلاثة ظلّه وأقرباؤه الذين يتمتعون بحق تمثيله!!

وبديهي أن قصة كهذه لا يمكن أن تكون بدون حركة متناقضة في التاريخ، لأنّ التاريخ كالمجتمع وكالإنسان نفسه، واقع متناقض يجمع بين النقيضين.

وعلىٰ امتداد حركة الرذائل والجرائم والاستغلال والجهل والظلمات التي تجرّ الإنسان إلىٰ التفرقة والمسخ تمتد أيضاً خطوة بخطوة ولحظة بلحظة حركة تحاول الحفاظ علىٰ هوية الإنسان وتحول دون تحوّل الناس إلىٰ أغنام، ومن ثم تجتهد وتجاهد الذئاب المفترسة، والثعالب الماكرة الخداعة والفئران المختلسة الخاطفة؛ التي تهجم علىٰ المزارع وتقضم البيادر، وتصادر المخازن وتغرق في الهلع والحرص فتختطف الذهب المسكوك وتدّخره في جحورها لتلهو به وتأنس بالنظر إليه، وتلوك كل شيء لا من أجل الشبع بل من أجل تهدئة الأنياب التي أخذت تنمو نمواً مشوّهاً وغير طبيعي.

وهكذا انشطرت إنسانية الإنسان وآدمية آدم الموحدة إلىٰ شطرين، وهكذا سارت في تيار التاريخ، وهذا هو المصير الحتمي الذي ينتظر هذا التاريخ وهذا النظام الحاكم، تفرقة، تجزئة، مسخ

الإنسان، تحوّل إلىٰ «كركدن» (وحيد القرن) اليونسكو أو «مسخ» كافكا. . .

أبداً هي تلك الأنواع الحيوانية الأربعة التي ذكرتها آنفاً،

أقليّة حاكمة: ذئاب، ثعالب، فئران، وأكثرية محكومة: عوام كالأنعام، أغنام الله. . نفس تلك الدواب! . . . الرعية!

ومن هو الراعي؟ الراعي نفس تلك الذئاب تستعين بفنون الثعالب ودهائها، وثروة الفئران وأموالها.

لا تختلف إلا الأسماء: فمرة خواجه، ومرة خان، ومرة سيد، ومرة أصحاب الرساميل والمتمولين، وإلىٰ جانبهم: الساحر أو المنجّم أو الحكيم، أو الصوفي، أو الراهب، وقد يكون «المغ» والمعين والموبد والمّلا والقسيس، وقد يكون الفيلسوف أو الشاعر أو الفقيه أو الروحاني أو رجل الدين أو المنظّر. . . وقد يكون عالم الاجتماع والعالم والفنان. . .

قطعان الأغنام. . ! أغنام الله! تدعىٰ بالعبيد مرة ومرة الرعية، ومرة العمال والبروليتاريا ومادون البروليتاريا. . .

هذه كلّها أسماء تختلف في هذين الصفين من حين إلىٰ حين، ويأتي رجل كماركس[1] فيتخيّلها رسوماً وعادات وقوالب قانونية!!

(١) ماركس: (كارل) Marx (١٨١٨ ـ ١٨٨٣م) فيلسوف إجتماعي ألماني مؤسس الاقتصاد السياسي العلمي وصاحب الدعوة المادية الجدلية والتاريخية. (المصحح).

وفي الصف الإلَهي: الخلق: عبادة الله، والتوحيد، البقاء علىٰ الهوية الإنسانية، الإيمان، الحب، العشق، الاخلاص، التقوىٰ، العصمة، النزاهة، العدالة، المساواة، الحرية، الفتوّة، الوعي، الحركة، الكمال، القيم، حب الحق، الدين، حب الفضيلة، الصدق، الألم والمعاناة، الحرمان، الجوع المجازر، التعذيب، السياط، الأسر، الظليمة، النبوة، القيادة، الهداية، المسؤولية، الجهاد، الشهادة، الانكسار والهزيمة..

ومنذ انطلاقة البشرية كان ثمة تاريخان ـ لم يكتب إلاّ أحدهما؛ لأن المؤرخ والعالم والمحرر كانوا ـ أيضاً ـ يجتمعون في ذاك الجانب إلىٰ صف المطرب والمهرّج وخواجة الحرم. وفي هذا الجانب حيث كانت «الأمة» كان الجميع أميّين محرومين من الكتابة بل ممنوعين ـ وكان هذان التاريخان يجريان في حياة البشر، ويمران متوازيين متلاحقين متقابلين علىٰ جميع العصور والأجيال والأعراق والأمم والأديان والثقافات والفنون والعلوم والحِكَمْ، بل حتىٰ العقول والعواطف والسلائق والعلاقات وأنماط الحياة...

يمران علىٰ كلّ فرد وكل شيء، وكل مكان وكل زمان، وينحدران من أعالي جبال التاريخ الشاهقة البعيدة العالية ـ هناك تختفي في ضباب الأساطير والخرافات الكثيف المتراكم، ولا تُرىٰ إلاّ بشق الأنفس ـ ينحدران ويقتربان منا وما زالا كذلك إلىٰ الآن متباعدين دائماً وفي كل مكان،.. متقابلين متواجهين، وكلّما توغلا في المسير وتقدما في عرض الأرض والتاريخ توسع البون واشتد الأوار بينهما، ازداد التوسع وقوي بعضهما علىٰ البعض،

وثار الزبد والزئير أكثر فأكثر من شدة الهياج والغضب والتلاطم بينهما.

وقد يحدث في أي عصر أن تعصف عاصفة ويطغى طوفان ويجتاح فيضان، وقد يقتربان ويدنو بعضهما من بعض، ولكن هذا نادر، نادر جداً، فسرعان ما ينفصلان يستيحلان عن البعض، فلا فائدة تترتب ولا ثمرة تجنى؛ وذلك لأنّ التقاءهم لم يحدث يوماً ما أبداً، بل لم نلمحهما مرة واحدة يضعان كفاً بكف ويخطوان معاً لحظة من زمان، ويقفان في صف واحد وقوفاً عابراً، أو يتماسّان ولو صدفة... أبداً فالفواصل تتسع، والمسارات معيّنة تختلف، والألوان مميزة، وكل شيء واضح، وكل فرد يرىٰ بوضوح مواضع أقدامه.. أين هو؟ مَن عدّوه؟ مَن صديقه؟ من له ومن عليه؟ وما هو السبب؟ ومن هو المقصّر؟ أين الجلاّد القاتل؟ أين الشهيد؟ أين الحق؟ أين الباطل؟ أين القبلة التي يتوجه لها كل صفّ؟ كيف يتم التوجه وإلىٰ أين، أين هي الجهات؟...

وفجأة، يقع في التاريخ حادث عجيب!:

الإسلام!

علىٰ حين غرة انقدحت شرارة من برج حراء الشاهق، انقدحت في آفاق الصحراء العريضة المترامية، الجافة المقفرة، الظامئة، المستسلمة اليائسة. الساكتة المنطفئة... انقدحت في ليل أسود بهيم، مرعب مخيف، طويل بلا غد...

وإذا بإنفجار فوري، صاعقة، إعصار كاسح، وطوفان مهول، وفيضان جارف!..

وانهار قصر كسرى، إشارة إلىٰ انهيار جميع قصور القوة والظلم، إنهار في المدائن إشارة إلىٰ جميع «مدائن» الأرض.

وخمدت نيران معبد «پارس» المعبد الخاص بالموابدة إشارة إلىٰ جميع نيران الخداع المشتعلة بإسم الله.. إشارة إلىٰ القضاء علىٰ روحانيي (رجال الدين) التاريخ الرسميين، الذين نصبوا وجوههم إلىٰ السماء، وداسوا بأقدامهم رأس الإيمان والعقل، ومدّوا أيديهم إلىٰ الخلق «يداً للتقبيل ويداً للأخذ» وفرَّ غولا الشرق والغرب الأسودان، وأبيد ورثة فرعون وقارون وبلعم.. دفنت الجاهلية السوداء في بدر والخندق وحنين، واندكت الطبقة الارستقراطية المستعلية، والجور، والظلم، واستعمار الشعوب، وتلاشت في القادسية ونهاوند وتبوك واليرموك، وأخرست أبراج نواقيس الكذب، ودمّرت وأطفئت نيران «أهرمن» الخداع، وارتفع النداء من منائر مساجد الله شرقاً وغرباً، وأبلغت رسالة الله، وخطاب إله الناس إلىٰ اسماع جميع الجماهير المحرَّرة...

... غضب، صخب، ضجيج، صراخ، إيمان، عقائد، رجاء، آمال، غليان حماسي، ثورة الوجد، حركة العبيد والمستضعفين والمستعمرين في إيران والروم، وجلبة الأسر وأسرىٰ كسرىٰ وقيصر..

.. يتيم، راع ثائر، مبعوث، مسلح بالكتاب والسيف، من أعماق الجماهير، أمّي قام من قلب الأمة، صورة الغضب والألم والجوع ومثال لجميع آمال المحرومين. يتقدم نهر التاريخ

الأحمر، وارث جميع الأنبياء والشهداء والقادة وأئمة العدل والانقاذ في التاريخ، يحمل بيده لواء آدم، نُقل يداً بيد، ووصل إليه عبر الأجيال جيلاً بعد جيل من آل عيسى وموسىٰ، وأبناء اسماعيل وابراهيم محطّم الأصنام. . هبط من أعالي الجبل، مندفعاً عازماً مصمماً يواجه الأصنام وعبدتها وجهاً لوجه. . ويعصف بآلهة الأرض ويعزف مارش الانقضاض عليها!.

وعلىٰ أثره: الجماهير، الغرباء، العبيد، الفارّون والمشرّدون من إيران والروم، ورفقاء طريقه: المهاجرون، المجاهدون، كل واحد منهم سيف ثأرٍ لجميع ضحايا التاريخ. .

طوفان نوحي مرة.

والتأمت الشعوب، وتحطمت الحدود، وانهارت الجدران والسدود، وركعت الأبراج، وتهدّمت السجون، وتقطعت القيود، تفككت الأصفاد، وهاجت مشاعر الخلاص والنصر، وارتفعت الشعارات الحماسية المنيرة من حناجر المنائر. . الشعارات التي اختنقت خوفاً في صدور الأمم، ولم تتلجلج إلاّ في أعماق القلوب وخلوة الألم والمعاناة. . . الشعارات التي كانت الشعوب تخاف وترتعب من التفوه بها:

«التوحيد، القسط، العدل، المساواة، الحرية، عبادة الله وحده ونبذ عبادة سواه، الحمد والثناء لله وحده لا لغيره، التوكل علىٰ الله وحده، والاعتماد عليه، والخوف منه ورجاؤه وحده وحده لا أحداً سواه!. .»

﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[1].

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[2] .. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾[3] والذين أطاعوا ساداتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيلا[4].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[5].

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[6]... ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[7].

﴿.. مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[8] .. ﴿ٱشْتَرَوْا۟

---

(١) النمل: ٣٤.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) المجادلة: ٢٠.

(٤) قال تعالى في سورة الأحزاب ٦٧: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

(٥) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

(٦) التوبة: ٣١.

(٧) التوبة: ٣٤.

(٨) الجمعة: ٥.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١] وهؤلاء مثلهم.. ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[٢].

وينتهي الطوفان، وتهدأ العاصفة، ويندفع التاريخ ماشياً من جديد.

يا للعجب! تحققت الوحدة، العدالة، السلام، القرابة البشرية، المساواة الإسلامية، الأخوة الدينية، المحبة...!

اتحد النهران وصارا شيئاً واحداً.. وأصبح التاريخ اليوم يشهد تياراً واحداً: الإسلام، ومجتمعاً واحداً: الأمة، وميزاناً واحداً للتفاضل: التقوىٰ، واحداً واحداً، وهوية واحدة: الإيمان! وطبقة واحدة: المؤمنون!

مُحيت الثنائية عن سطح الأرض، وقُلع التناقض من حياة الإنسان، وانتهى النزاع الذي بدأ منذ بداية التاريخ؛ خُتم برسالة «الخاتم محمد ﷺ».

ومن الآن فصاعداً تحقق التوحيد في التاريخ، واغلق ملف قصة الحرب الطويلة بين الحق والباطل، والحاكم والمحكوم، الظالم والمظلوم، المالك والمملوك، الغني والفقير، الشريف والوضيع، ما عاد لهذه القصة وجود.. إنّما:

---

(١) التوبة: ٩.

(٢) الاعراف: ١٧٦.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١)!

أصبحت اليوم جميع الأمم تدين بالإسلام، تربطهم روابط الأخوة، وعلىٰ الجميع أن يبادروا إلىٰ معركة واحدة.. الجهاد مع الكافرين! الجهاد مع الأمم الكافرة، لنبدّل بيوت الأصنام والكنائس والبيع ونجعلها مساجد!

وهذه هي الفاجعة التي لم يشهد التاريخ البشري علىٰ طوله وكثرة مصائبه وفجائعه فاجعة أعظم ولا أكبر ولا أثقل ولا أقبح منها، ولم يسجل التاريخ في ذاكرته كذبة أكبر من هذه الكذبة، ولا نفاقاً ماكراً كهذا النفاق الخدّاع، بالرغم من أنَّ وظيفة التاريخ وعمله النفاق، وفنه ومهارته الكذب.

لقد شهد التاريخ: أنّ النهرين المتباعدين المتنافرين المتفجرين بالحقد والغضب علىٰ بعضهما البعض اتحدا منذ أن ثار طوفان الإسلام وما بعد ذلك... حقاً اتحدا!! اختلطا وتداخلا وأصبحا شيئاً واحداً.. وهذه هي الفاجعة والطامة الكبرىٰ!

اختلط الحق والباطل والظلم، التوحيد والشرك، الخدمة والخيانة، الخلافة والملكية، الجهاد والجناية، أهور وأهرمن، الدين والكفر، الخير والشر.. اختلطا اختلاطاً معقداً متشابكاً حير التاريخ حتى ما عاد يميز بينها، وهو الذي ساير هذين التيارين.. هذين الوارثين، الذاتين، الجهتين، سايرهما وعاشهما منذ آلاف

(١) الحجرات: ١٣.

السنين وعرفهما جيداً. . . إلاّ أنّه اليوم لا يميز بينهما!!. . لا يميز الله من إبليس، الجلاد القاتل من الشهيد، بل حتى الليل من النهار.

ماذا قلت؟

بل أكثر، لم تعد عينه ترىٰ ـ أيضاً ـ ولم تعد تميز، وتخلط بين بيت محمد وبيت أبي سفيان، ويربط قرآن محمد على رؤوس رماح معاوية، ويرفع راية لحرب عليّ!

ضاعت البقاع ومواطىء الأقدام والجهات!

يوجه جيش المجاهدين المسلمين لغزو المدينة دفاعاً عن قريش، وتباح نساء الصحابة وبناتهم ثلاثة أيام للأخوة المسلمين. . جنود الله! ولكي تحكم قريش يصدر أوامره للقوات الإسلامية برمي الكعبة بالمنجنيق!

ماذا أقول؟

يرتفع التكبير من حلقوم مؤمن تقيّ، ويهوي سيف الجهاد فيفلق هامة عليّ!

واليوم هو ذا الحسين! الحسين الذي كبر وترعرع في حجر محمد، ورأته عيون الأخوة في الدين علىٰ عاتق النبي وظهره وحجره! يخرج وحيداً من مدينة محمد. . يخرج من مكة إبراهيم في موسم الحج. . يخرج علىٰ وارث النمرود. . يخرج وليس له أحد!

أجل، اختلط الحق والباطل، الجلاّد القاتل والشهيد، أبو

سفيان ومحمد، معاوية وعليّ، يزيد والحسين، اختلطا حتى ضيع التاريخ آثار هذين الصفين الطويلين علىٰ الأرض. . ضيع آثار هاتين الوارثتين المتخاصمتين عبر التاريخ. . .

مزج أهورا وأهريمن، وعجنا معاً، وهكذا تحقق «التوحيد الإسلامي» في «تاريخ الإسلام»!

والعاقبة؟

مرة أخرى جهل الناس، قرون أخرىٰ من الجهل، حتى متىٰ؟ فبعد قرون من الجهاد والسعي وتحمل المشاق والآلام، وبعد كل تلك الحركات والنهضات والنبوات عرفوا النمرود، واليوم متى سيعرف النمرود من جديد وقد عاد إلىٰ الميدان في صورة ابراهيم وأصبح وارثاً لسنّة ابراهيم؟!

وقرون أخرىٰ من الهزيمة والانكسار والشهادة!

هذا هو «الإسلام في التاريخ» ومن ثم قصته ومصيره في التاريخ. . تاريخ الإسلام «إسلام الخلافة»!

ولكن. .

لا شك أنّ القدر قد حدد موقفه واتخذ قراره وعزم علىٰ أخذ الثأر لدم هابيل من ورثة قاتله، واستنكار سيطرة الظلم والغصب والخداع المستمرة علىٰ الأرض. . انتصار الحق. . واستقرار العدل والمساواة البشرية في ربوع العالم، وتحرير جميع مستضعفي التاريخ وإستلامهم زمام الأرض ووراثة الزمان، وتحقيق رسالات

الأنبياء وطلاب العدالة والمجاهدين والشهداء الذين سعوا وجاهدوا للدفاع عن الإنسان وحمايته من السقوط وإعادة العدل والحرية للأرض، وهذا هو مصير التاريخ، المصير المحتوم، هذه إرادة الله والقانون التاريخي الحتمي.

وعلىٰ الرغم من دوام الظلم والجور وقوته، فإنّ الحرية والمساواة الإنسانية ستعود إلى حياة الإنسان في نهاية المطاف المشؤوم، كما كانت تعمّ الأرض في بداية حياته..

ولكن من البديهي اختلاف المساواة الإنسانية، التي كانت في المجتمع الأول غير الطبقي، عن المساواة التي ستوجد بعد الثورة العالمية الكبرى في آخر مراحل تاريخ التناقض والتفرقة والتمييز، فتلك كانت غريزية بدائية عن غير وعي، وجامدة ليس لها هدف ولا رسالة، بينما ستكون هذه عن وعي ومتطورة وإنسانية ومتحولة متغيرة، متحركة باتجاه المثل السامية، وتحمل رسالة ثقيلة ألا وهي «خلافة الله» في الطبيعة.

كنت أستعرض تاريخ الإنسان في ذهني وأحيي أحداثه في خاطري، وأفكر في قصة ذينك التيارين المتلاحقين المتلازمين، حيث نبعا من العين الآدمية الأولىٰ، وتبدلت وحدتهما الذاتية والزمانية والمكانية إلىٰ إثنينية عدائية دائمة وفي كل مكان، وافترقا عن البعض وتباعدا علىٰ طول حركة التاريخ.

ثم حدثت ثورة الإسلام العظيمة التي كانت تطالب بالعدالة وترفع شعار السلام والمساواة والغاء الفواصل والامتيازات،

وهدأت الثورة وخمد أوارها. . ففتحنا أعيننا لنرى ما كنّا نأمل: إنعدام الثنائية التاريخية في ظل النظام الإسلامي ـ دين الأخوة والمساواة ـ تماماً كما كنّا نتوقع وننتظر، وتوحد التياران الخالدان في التاريخ!

وانتصرت البشرية، وانقذت الجماهير المقهورة دائماً، وتحققت آمال التاريخ. . تحققت أهداف التاريخ. . تاريخ الإنسان!!

وهذا أعظم نفاق. . أكبر نفاق يصدر عن التاريخ. . وأكبر كذبة مخيفة مرعبة قيلت في حياة بني آدم.

صحيح. . أجل لقد توحد التياران. . اتحدت الحركتان. . التيار الهابيلي ـ القابيلي، الابراهيمي ـ النمرودي. . .

والآن، ومنذ عصر الإسلام وما بعده سوف نرىٰ تياراً واحداً وحركة واحدة. . . الأخوة والعدالة الإسلامية كما كنّا نتمناها. . . كما كنّا نطمع في الإسلام ونتوقع منه، ألم يكن الإسلام قد جاء من أجل هذا؟ وها هو ذا. . . بيد أنه «إسلام الخلافة».

ومن يدري ما استبطنه هذا الإسم من جرائم ورذائل وخشونة وشراسة مقززة مقرفة يندىٰ لها جبين الإنسانية؟! ـ وأي دماء امتصها هذا الحيوان الوحشي المفترس؟! أي دماء طاهرة! دماء أروع المخلوقات وأحلاها وأعز الورود والرياحين التي خلقها الله!. . .

هزّني العجب مرة ثانية! هذا هو التاريخ! تاريخ آدم إلىٰ الحسين؟ وماضي النهرين المتخاصمين الذين كانا واحداً ثم صارا

اثنين، وبعد الثورة الإسلامية وفي ظل نظام الخلافة الإسلامية الكاذبة اتحدا اتحاداً كاذباً وأصبحا شيئاً واحداً. . .

والآن هذا الحسين شهيد هذا النفاق العظيم والغفلة والاستغفال العظيم. . . ؟

وقد لا يكون كذلك، لم يكن تاريخ وراثة الحسين، وإنّما جغرافياً أرض الحسين؟. . بين النهرين! يا له من توافق عجيب!

بين النهرين. . . ليس تاريخاً فحسب بل يبدو أنه «فلسفة التاريخ» تجسدت في صورة الجغرافيا. . بين النهرين ـ عراق اليوم ـ أرض تقع بين نهري دجلة والفرات!

شمال بين النهرين تركية وأرمينية. . جبال هذه الأقاليم مغطاة بالجليد والثلوج. . لا تناقض ولا تبعيض. . وحدة باردة ومساواة جامدة. .

وهكذا كانت بداية التاريخ.

ومن هذا المنبع الواحد والعين المشتركة يتدفق النهران دجلة والفرات وينحدران باتجاه الجنوب، ومن العجيب أن أعظم الوقائع والأحداث الخطيرة، أعظم الأنظمة والحضارات والحكومات والوجوه التاريخية المهمة والشخصيات العظيمة الصافية كلها كانت تعيش في هذه المنطقة، وهي ليست تصويراً رمزياً لتناقض التاريخ وفلسفته وحتميته ومصيره بل هي أرض التاريخ حقيقة. . .

في الشمال، الامبراطورية البيزنطية أو الروم الشرقية، قيصر

والقسيس، وديوقليتيانس[1]، وأصحاب الكهف. . .

سفينة نوح في جبال الآرارات. . الآشوريون شمال بين النهرين، حضارة أكد وبابل في المركز. . وسومر ـ أعظم وأقدم حضارة عرفناها ـ في الجنوب، ومن ثم قصة نوح وابراهيم ودانيال[2]، وبخت نصر (بكدنذر) وذو القرنين[3] وأسر اليهود في بابل، وصابئة يحيى. . .

وأخيراً، خسرو (كسرى) والمدائن، عاصمة الامبراطورية الفارسية على شاطىء دجلة الشرقي، وفي مقابلها على الشاطىء الغربي «بغداد» عاصمة الخلافة الإسلامية! . . كلاهما في صف واحد وتيار واحد. . . وعلى الجانب الآخر من بين النهرين. . على شاطىء الفرات ثمة كربلاء، الحسين!

توافق وتطابق عجيبان، هذان النهران ينبعان من عين واحدة، ويجريان على طول التاريخ ويتباعدان بيد أنّهما يتقاربان على مقربة من بغداد مركز الخلافة الإسلامية المعبرة عن «إسلام الخلافة»، ومن ثم يمتزجان معاً ويصيران شيئاً واحداً، ويكونان «شطاً كبيراً». . «شط الإسلام»؟ كلا، «شط العرب»!

يا للروعة! الجغرافية أصدق لهجة من التاريخ، وطبيعي هذا؛

---

(١) ديوقليتيانس Dioclétien (٢٤٥ ـ ٣١٣): من كبار أباطرة الرومان. أعاد تنظيم الامبراطورية. بدأ أعنف اضطهاد للمسيحيين (٣٠٣ ـ ٣٠٤م). (المصحح).

(٢) دانيال: من أنبياء إسرائيل الكبار. عاش مسبياً في بابل. (المصحح).

(٣) ذو القرنين: في القرآن، لقب ملك عادل كاد يُعدّ نبياً. (المصحح).

لأن الجغرافية طبيعة الله والتاريخ طبيعة «الخان» ـ آلهة الأرض أو الطاغوت ـ.

وبالرغم من النجاح الكبير الذي سجلته جبهة الجور والظلم والدين الرسمي الحاكم، إلاّ أنّ القدر الحاكم علىٰ الطبيعة والتاريخ يؤكد انتصار العدالة وتحقق أمنية المساواة الإنسانية وزوال النفاق وانتهاء المعركة الوحشية. . . معركة ثعالب التاريخ البشري وذئابه. . .

وإنّما تُملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما تُملأ ظلماً وجوراً، أليس كذلك؟ . .

ولهذا يصب «شط العرب» في «البحر»!

كانت ليلة عاشوراء... عاشوراء عام ١٣٤٩ (هجري شمسي)

جلست للتأبين والعزاء وحدي، كتبت رثاء وتعزية لقلبي؛ شرح «زيارة وارث»! الوراثة من آدم إلىٰ الحسين، الوراثة من آدم إلىٰ يزيد! انبعث التاريخ من أعماق الأرض، واصطف على شاطئي الفرات. . رأيت التاريخ ماثلاً أمامي. . انبعث من أعماق الأرض كل الجزارين القتلة. . كل الشهداء. . أنّه محشر التاريخ! . . قيامة التاريخ.

تراءت لي كل مشاهد التاريخ. . فجأة غطت نواظري غمائم الدماء، فغاب عني كل شيء فلا أرىٰ سوى صحراء بسعة الوجود كله! صحراء مشبعة بالدم. . غارقة بالدم، و . . .

في قلب الصحراء نصب تمثال دام. . صامت هامد. . ساكت منطفئ. . نبع من الدم. . ينمو في الدم!.

ارتعدت فرائصي من الخوف ارتجفت واهتز كياني، انتبهت، عدت إلىٰ نفسي، كانت الساعة التاسعة صباحاً، هربت إلىٰ الزقاق، لا أدري ماذا يجري في المدينة. . كان صبح عاشوراء، عاشوراء عام ٤٩.

طهران/ اسفند/ ١٣٥٠ (هجري شمسي) علي شريعتي

ليلة عاشوراء

الإمام الصادق:

«كل شهر محرم، وكل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء».

كانت القبائل العربية تنهشها الحرب دائماً، بيد أن مكة «الأرض الحرام» و«رجب، ذي القعدة، وذي الحجة ومحرم» «الزمن الحرام» بمعنى حرمة القتال في هذه الأشهر، فإذا تحاربت قبيلتان ودخلت الأشهر الحرم أخمدتا نيران الحرب مؤقتاً ريثما تمر هذه الشهور «ولكي يعلنوا عن استمرار الحرب فيما بعد وأنهم في حالة حرب وأن هذه الموادعة ليست من المهادنة وإنما شهر حرام يُنتظر قضاؤه ثم الحرب من جديد»، لكي يعلنوا عن عزمهم ونيتهم كانوا ينصبون راية حمراء علىٰ خيمة رئيس القبيلة ليعرف الأصدقاء والأعداء والناس أجمعون «أن الحرب لم تضع أوزارها بعد».

أولئك الذين يذهبون إلىٰ كربلاء يرون أن الحرب خُتمت بانتصار يزيد، وخيم علىٰ ساحة الحرب سكون الموت وهدؤه، بيد أنّهم يرون راية حمراء تهتز خفّاقة علىٰ قبة ضريح الحسين.

فلتمر هذه «السنين الحرام»! ولينتظرنا منتظرون.

غطت نواظري غمائم الدماء.

في أرض التاريخ.. ألمح ذينك النهرين اللذين تربطهما روابط القربىٰ عبر التاريخ.. ماء واحد، وانطلاقة واحدة، وسير حثيث نحو نهاية واحدة.. ثم يفترقان في طريقين ويبتعدان عن بعضهما البعض.. ويتباعدان.. وعلىٰ مشارف «بغداد» يتقاربان.. ثم يتقاربان، حتى يلتئما في نهاية أرض التاريخ، ويتحدا: «شطّ العرب».. وفي نهاية المطاف يؤوبان إلىٰ الهدوء والوداعة الرتيبة السرمدية.. لم يعدوا إلى جمود الصخور المتحجرة، إنما إلىٰ سيولة البحر المتحركة[١].

ينسابان من أعماق الثلوج، وينحدران من أعالي جبال الشمال التي ما زالت تحتضن في تضاريسها ذكريات شاحبة لسفينة نوح[٢]، والكهف القديم لأصحاب دقيانوس[٣] لمّا هربوا نحو الحرية...

(١) كانت ثمة قرابة ومساواة في بداية التاريخ البشري ولكنها كانت قرابة ومساواة تشبه تماماً السلام والمساواة المهيمنة علىٰ الثلوج التي يتفجر منها هذان النهران «دجلة والفرات»، مساواة ميتة، خامدة، جامدة، بيد أن المساواة التي سوف تحكم دنيا الإنسان في مستقبل التاريخ بعد أن ينتصر العدل، إنما هي المساواة المنسابة المتحركة المتفجرة بالحياة والعطاء...

(٢) قيل: ان سفينة نوح رست واستوت علىٰ جبال شمال ما بين النهرين «الجودي» و«الجودي» قمة في سلسلة جبال «أرارات»، وهي سلسلة يتفجر منها «دجلة والفرات» وكذلك يعتبر نوح ـ في تاريخنا ـ انطلاقة جديدة في حياة البشرية.

(٣) سبعة أنفار آمنوا وكانوا واعين، هربوا في سلطة دقيانوس لئلا تتلوث أيديهم بالجريمة، وإيمانهم بالكفر، فهربوا بأنفسهم وحريتهم وشرفهم.

يمران عبر خطي التاريخ . . يتباعدان تارة ويتقاربان أخرى . . يسيران معاً ويقتسمان الفرحة على مدن الجبابرة والأنبياء، القصور والأكواخ، المعابد وأقبية التعذيب، الآلام والآمال والكنوز، في روما، وآشور، وكلدة، وأكد، وبابل وأور و«نيب پور»[1]، ومدائن كسرى، وبغداد الخليفة . . .

يحطمان بصراخهما وغضبهما وضجيجهما سكوت «الفلاة بين النواويس وكربلا»[2] . . ومن ثم يغرقان معاً في عرض الخليج المسترسل الهادىء، ويزمان شفتيهما في صمت عميق.

غطت نواظري غمائم الدماء . . .

وفي خضم تلاطم هذين الخصمين القريبين اللذين يتوغلان سبعة آلاف سنة في التاريخ ويسافران فيه معاً . . انبعثت ضوضاء وجلبة . . غوغائية مروعة . .

انبعث فرسان آشور المتوحشون الذين كانوا يغرسون العبيد والمهزومين في الأرض، ويدفنونهم إلى تراقيهم، ويطأون مزرعة مهولة كهذه ـ مزرعة الجماجم والرؤوس ـ بسنابك الخيل . . انبعثوا من مقبرة التاريخ المنطفئة، وهاجوا هياجاً مجنوناً،

---

(١) «نيب پور» مدينة سومرية تقع في جنوب العراق بين النهرين اكتشفت مؤخراً.

(٢) «وكأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني اكراشاً جوفا وأجربة سغباً لا محيص عن يوم خط بالقلم»: يتحدث الإمام في هذا المقطع عن مصيره المحتوم الذي ينتظره في طريقه الذي انطلق فيه، طريق «الاختيار الواعي للشهادة».

وانحدروا من شمال بين النهرين . .

أقاموا من جديد «برج بابل»(١) الذي انهار علىٰ مر القرون . . رمّموا مراصد قلاعه، ثم كمن علىٰ كل مرصد منها حراس «القصور» و«المعابد» و«الكنوز» حراس مرعبون.

عاد «بعل»(٢) كبير الآلهة إلىٰ معبده . . بعل الذي أحاط سلطة الطواغيت المتجبرين بهالة قدسية لقرون متمادية . . طواغيت الاستكبار علىٰ دين الناس ودنياهم في أرض «بين النهرين»، ثم فرضهم علىٰ العبيد والمستضعفين الذين فقدوا دينهم ودنياهم، وحمل حماته وأولياءه علىٰ ظهور المساكين والمواطنين، وكان يستمد قوته من وجوب الطاعة لآلهة السماء ثم يمنحها لأرباب الأرض فيفرض على الخلائق طاعتهم والتسليم لهم . .

عاد «بعل» إلىٰ معبده ـ الذي كان من عجائب الدنيا السبع ـ وتربع علىٰ الكنوز الموفَّرة من الأوقاف والنذور والنهب وأسلاب الأعداء والأصدقاء، والتف عليها كأنّه تنين أصفر بسبعة رؤوس . .

---

(١) بابل: مدينة علىٰ شاطىء الفرات بالقرب من الحلة تبعد عن جنوب شرق بغداد ١٦٠ كيلومتر تأسست عام ٢١٠٥ق.م، حكمها سلسلة من السلاطين، وقد جعلها حمورابي عاصمة الأمبراطورية (القرن التاسع عشر ق.م) المتحدة ـ سومر وأكد ـ وقلباً للحضارة الشرقية، وجعلها الاسكندر عاصمة الشرق أيضاً.

(٢) بعل: إسم يطلق علىٰ عدة آلهة معروفة لدى الساميين، وكان أكبرها «بعل الكبير» إله «الفينيقيين»، و«بعل» إله الشمس وقد يكون عند بعضهم إله المشتري، و«بعلبك» التي اطلق عليها اليونانيون إسم «هليوپوليس» ـ أي مدينة الشمس ـ كانت معبداً من معابد «بعل»، وكان للأنبياء الساميين جهاد طويل مرير مع هذا الصنم الكبير.

أقاموا قصر «نبوخذنصر»[١]، واستخدموا فيه آلاف العبيد وطرزته من جديد وجوه الجلادين الكالحة. آكلي لحوم البشر، الذين يكنزون الذهب والفضة. . عاد الجلاوزة بعد أن أتىٰ عليهم النسيان ودفنهم تحت أسوار القرون الخالية. .

تربع «نبوخذنصر» علىٰ عرشه، يسوق الأسرى المتحررين

---

(١) نبوخذنصر: ملك بابل المتجبر الظالم، أسر اليهود واذلهم وعذبهم وحرمهم من جميع الحقوق البشرية. وقد ذكرت التوراة سنين الأسر وذكرت أن النبي دانيال كان مع الأسرى، يعيش معهم ويعدهم بالحرية ويمنيهم بها، وتنبأ بالحرية والنجاة في رؤياه المعروفة في التاريخ فرأينا ظهور «قوچي دوسر» «ذي الرأسين». نسب لقب «ذو القرنين» الوارد في القرآن للإسكندر وهذا باطل لا أساس له من الصحة، ذلك لأن القرنين لم يعاصر الإسكندر وليس له أي عين أو أثر في تلك الفترة أضف إلى أنه ليس له دور سياسي أو عسكري يذكره التاريخ يتعلق بأسر اليهود في بابل أو أي عمل آخر تجاههم.

يعتقد بعض المؤرخين والمحققين ومن بينهم «أبي الكلام آزاد» وزير الثقافة الهندي (المحقق المسلم المعروف، من دعاة الحرية): ان ذا القرنين هو كوروش، واعتمدوا فيما ذهبوا إليه علىٰ عدة قرائن تاريخية وقرآنية يمكن تطبيقها علىٰ شخصيته السياسية، منها أن «فره ايزدي» الإله الذي وهب السلطة لملوك إيران القديمة علىٰ شكل العنز «قوچ» الحيوان الاسطوري الذي اتخذه الحخامنشيون شعاراً لهم.

ومنها: ان هيكلية كوروش صممت علىٰ شكل له جناحان مفتوحان أفقياً ويمتدان علىٰ كلا الجانبين، ومنها: انه كان معاصراً لتلك الفترة، وهو الذي اسقط بابل وحرر اليهود، وأعادهم إلىٰ فلسطين وبنى لهم معابدهم المهدمة، ومنحهم الحرية الكاملة في إقامة شعائرهم الدينية، فذكرته. التوراة باعتباره منقذ اليهود، وكان تأويل رؤيا دانيال حيث ظهر من فارس ـ شرق بابل ـ المادية وهو الذي يحطم القوى المادية وينهي الحكم البابلي، أعظم القوى السياسية والحضارية الشرقية في عصره ويضمه إلىٰ الامبراطورية الحخامنشية العظمىٰ. . .

هذا القول يبقى في حدود النظرية التاريخية ليس إلاّ. بيد أنه جدير بالالتفات.

من أرض الحرية الموعودة ويكبلهم بأصفاده القديمة.

إنتُشلت «أور»[١] من تحت أنقاض التاريخ، وأُقيم معبد أصنامها من جديد.. وعاد كبير الأصنام الذي علّق إبراهيم فأسه علىٰ عاتقه ليتهمه بتحطيم الأصنام الصغيرة.. عاد منتصباً علىٰ قدميه وأصدر أوامره بترميم كل الأصنام الصغيرة.. وأمر باشعال اتون النار التي تحولت من قبل وردة حمراء وصارت برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم.. أمر بتأجيجها وإيقادها بـ «فضلات جديدة غير تلك القديمة»، وقذف محطم الأصنام التاريخي الذي ثأر علىٰ قومه وذويه وتمرد على آلهة السماء وأرباب الأرض[٢].

أمر بقذفه بمنجنيق «الدين» في نار «القداسة» ليلقن ورثته درساً ويقول لهم: «لا ينبغي لكم التحرش بالأصنام الصغيرة والتعرض لتحطيمها» ومن ثم عاد منتصراً من معركته التي هزم فيها إبراهيم بعد أن رمّم الأصنام المحطمة وجدد بناء معبده المنهار...

عاد محفوفاً برفاقه وشركائه: الرهبان والأولياء، الدراويش، الوسطاء بين الله وعباده، الحراس الرسميون المؤتمنون علىٰ الروح والأخلاق والتراث والتقاليد والعبادات.. تربعوا الآن علىٰ أريكة

---

(١) اور: مدينة ولد فيها إبراهيم، تقع جنوب العراق «بين النهرين».

(٢) آزر ناحت الأصنام: كان عم إبراهيم أو أباه أو زوج أمه، وكان إبراهيم ينحت الأصنام أيام طفولته لتباع علىٰ الناس، بينما كان هو أول من فجر ثورة تحطيم الأصنام وهذه المظاهر يسميها القرآن «آية» حيث ثار إبراهيم ثورة التوحيد ضد آلهة السماء التي كانت ظلاً لآلهة الأرض، ودمّر أساس التفرقة والتمييز العنصري الناشىء من مذاهب الشرك.

«الدين والدنيا» و«الإيمان والأمان» فقد انقضىٰ أمر الفتى الخارجي الثائر «ابن آزر ناحت الأصنام».

عادت الحاشية وانهمكت في تشييد قصر «النمرود» وأحاطته بهالات الجلال الإلّهي . .

* * *

والمدائن:

عادت أبوابها الضخمة الكثيرة مشرعة . . مداخلها ومخارجها العظيمة مفتوحة . . عاد إلىٰ المدينة الأشراف والتجار والدهاقين[١] والموابدة[٢] الذين أبيدوا قبل أربعين عام[٣] وطوردوا وشرّدوا في الأرض، حيث لاحقتهم سيوف الحفاة من الطبقة المنبوذة المسحوقة، وعوام الناس الذين لا يملكون شيئاً ولا يستحقون الحياة؛ لأنّهم أراذل لا يجري الشرف في عروقهم ولا يتحدّر في أنسابهم . .

دخل المدينة كسرىٰ متوّجاً بعمامة الرسول، في موكب

(١) الدهاقين: طبقة راقية تلي طبقة الأشراف في النظام الاجتماعي الفارسي القديم.

(٢) الموابدة: جمع موبدان رجل الدين عند المجوس.

(٣) كانت ثورة الحسين في أواخر سنة ٦٠هـ وكانت عاشوراء في العشرة الأولى من محرم سنة ٦١ هـ.

وكانت سنة (٦١) الذكرى الأربعين لفتح المدائن، أي أن المسلمين فتحوا المدائن قبل أربعين سنة من تاريخ هذه السنة، والآن تثأر المدائن من الذين فتحوها «المدائن تضحي بالفاتحين».

مهيب، أربعون ألف بعير يحمل أثقال المطبخ الملكي.. اثنا عشر ألف جارية حسناء.. آلاف الغلمان والمغنين والراقصات والمخصيين والمهرجين والشعراء ووعاظ السلاطين وغيرهم من الآلات العاملة في خلوة[١] السلطان ومجالسه الخاصة والعامة...

دخل في جوقة موسيقية، تحفه جلبة الإيقاعات والأنغام وأصوات المغنين: «باربد» و«نكيسا»[٢].

عاد بعد أن ولّى مدبراً ولم يعقّب قبل أربعين عاماً، فاراً من صوارم «القادة والجنود العراة»[٣] المنهومين، لا يسد جوعهم «لبن النياق والضباب»[٤].

جاء كسرىٰ ومعه رجال العنصر النبيل «الأشراف» من أسرة «قارون» العظمىٰ ولاحقوا «العبيد السذّج الذين طمعوا في عرش فارس فقتلوا شهريار»[٥].

قدموا جميعاً ليستردوا سلطانهم من العوام المنبوذين،

---

(١) انظر الإحصائيات في تاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي..

(٢) «باربد» موسيقار، «نكيسا» مغني معروف في بلاط كسرى.

(٣) من شعر الفردوسي في وصف الجيش الإسلامي على لسان قائد إيراني في الحرب.

(٤) مقالة «رستم فرخزاد» في الجيش الإسلامي (شاهنامه فردوسي).

«وصل الأمر إلىٰ أن العرب الذين يتغذون من لبن الإبل والضباب يتمنون الحصول علىٰ تاج فارس، فقف علىٰ دولاب الزمن»، مضمون بيتين من الشاهنامه. والضباب جمع ضب. (راجع صفحة ٧٢ من هذا الكتاب) ـ (الناشر).

(٥) تنبؤ «رستم فرخزاد» لعاقبة الحرب مع المسلمين حيث يهزم الساسانيون ويحكم المسلمون: (يصبح «شهريار» عبداً عاجزاً ويبعد العنصر النبيل والشريف عن الحكم) ـ مضمون بيت من الشاهنامة ـ.

وتقدموا الركب بخيولهم المزينة بالذهب والفضة، وغلمانهم الموشحين بالذهب والمجوهرات يحملون كنوز كسرىٰ الخمسة والثلاثين، «كنز العرائس»، و«الكنز الذي حملته الرياح» و. . .[١].

ومن ثم نهبوا «سجادة بهارستان» المزينة بالذهب والفضة والمجوهرات والزمرد واللؤلؤ والألماس[٢].

وأخذوا كل الجواهر الثمينة التي حملتها الرياح ليفرشوا قصر المدائن «المائل» في دمشق[٣].

---

(١) كان الفردوسي يثني علىٰ الساسانيين ويتعصب للملوك والأسر المالكة في إيران القديمة انطلاقاً من زهوه القومي، ووقف في وجه الخلافة العربية والسلطنة التركية ولكنه مع ذلك لا ينكر الحقيقة حينما يصل به الحديث إلىٰ كنوز كسرى «الخمسة والثلاثين» ـ كسرى «خسروپرويز» الذي مزق كتاب النبي وأمر عميله الذي ولاّه علىٰ اليمن قائلاً: «من هذا الغلام الذي تجرأ إلىٰ هذا الحد؟ ألق القبض عليه وابعثه مخفوراً إلىٰ العاصمة!» ـ أجل حينما يصل الفردوسي إلىٰ هذه الكنوز يحاول أن يتعرض لما صار إليه الناس بعد هذه الكنوز، ويحاول أن يبرر انحراف «خسروپرويز» وابتلاءه بمرض «عبادة المال» التي وصلت إلىٰ حد الجنون في أواخر أيامه، وأخذ يجد لها المبررات الاجتماعية، وحاول بيان الآثار التي تركتها تلك الكنوز علىٰ الحياة الاجتماعية وعلىٰ مصير «خسرو» نفسه.

(٢) انظر الطبري.

(٣) قصر المدائن المعروف بـ «طاق كسرى» ما زال موجوداً وفي بنائه اعوجاج، أوعز السبب في ذلك إلىٰ أن خارطة القصر كانت تقضي بتهديم بيت امرأة عجوز، ولما رفضت العجوز أن تبيع بيتها أمر كسرى انشروان ـ لشدة عدله ـ أن يبني القصر ويبقى البيت لئلا يجبر المرأة علىٰ الخروج منه بالقوة، فكان قصره أعوج!! والعجب أن هؤلاء المهندسين الذين خططوا البيت لم يفكروا من قبل ولم يعترض عليهم أحد ليقول لهم «لماذا لم تخططوا قبل الخوض في البناء؟! لماذا شرعتم في البناء قبل كل شيء ثم تورطتم في بيت العجوز؟ لماذا لم تحددوا الأرض من قبل؟!

والملاحظ: ان ابطال هذه القصص دائماً العجائز! لماذا؟

وتناثرت كنوز الذهب والمجوهرات، وتمزقت قطع السجاد، وتوزعت المكتنزات التي عصفت بها الرياح قبل أربعين عاماً بأيدي جياع العرب والعجم، وأصبحت قطعاً بيد المجاهيل المغمورين المنبوذين الذين يعوزهم «الشرف» في دمائهم و«النبل» في أنسابهم[١]. . بيد أنها استردت بسيف «الله»، واستخرجت من حلقومهم ولو كانت قد تحولت لقمة خبز في فم طفل صغير أو جرعة لبن في ثدي أم!

ألقوا القبض على طحاني بلخ لما دخلوا المدينة مستغيثين بالعدل[٢]، حصدوا رؤوسهم ورؤوس من والاهم وواساهم وناصرهم. وحتى صبي الاسكافي الذي تمنى دخول قاعة الدرس

---

(١) بناءً على نظرته العنصرية القومية الإقطاعية أوعز الفردوسي السبب في خيانة السلطان محمود إلى خسته العنصرية قال:

«لأنه لم يحمل النبل والشرف والعظمة في دمه. . فمن البديهي أن لا يصبر على سماع أسماء العظماء»!! (مضمون بيت من الشاهنامة).

فالشرف والعظمة في قاموس الفكر الإقطاعي أمر لا علاقة له بالإنسانية لأنه جزء لا يتجزأ من الدم ومكوناته، وينتقل بالوراثة.

(٢) في بلخ قتل الطحانون الإيرانيون قاتل «يزدجرد» الملك الساساني الذي وقف في وجه الزحف الإسلامي، وفي المدينة قتل الطحان الإيراني «أبو لؤلؤة» عمر بن الخطاب، حيث جاء «أبو لؤلؤة» يشكو لعمر فلم يلتفت إليه وقال له ماذا تعمل؟ قال: اصنع رحىً. فقال له عمر: اصنع لنا واحدة إذن. قال: سأصنع لك رحىً يتحدث بها الناس إلى يوم القيامة. وهكذا نرى ابن عمر يجرد سيفه في مجزرة عامة شملت مجاهيل الفرس جميعاً دونما محاكمة أو تريث، وهذا مثال الإنقلاب المفاجيء في بدايات القرن الأول من التاريخ الإسلامي.

جنباً إلى جنب مع ذرية الملوك والأشراف[١] . . انقضّوا عليه وأخرجوه رغم حكم «أنشروان» العادل ووزيره «بزجمهر» النابغة . . انتزعوا منه كل شيء وأعطوه مخيط أبيه الاسكافي، فله أن يرزح في «ولاء» العنصر الأفضل، ويُقْتَلَ أبوه بتهمة الفسق والزندقة، وتصادر أمواله في غنائم الجهاد، وتسبىٰ أمّة لتُباع في أسواق النخاسة البعيدة.

عجباً . . لقد برزت جماجم العشرين ألف مزدكي المقطوعة[٢] ـ ضحايا «العدل الإلّهي» ـ مرة أخرى علىٰ أطراف الأسنة والرماح. وتدلى جرس العدل الكسروي من دار أمير المؤمنين «دار الخلافة» وتحلق حوله المظلومون السذّج، خلف الحمار الوحيد الذي صدق يومئذٍ وجاء يتظلم[٣].

أزاح الموابدة غبار الهزيمة والخذلان عن وجوههم، فسطع

---

(١) تورط كسرى في حرب مع الروم جرّته إلىٰ عجز اقتصادي فادح، فاغتنم الاسكافي الإيراني هذه الفرصة وقدم ما يملك للملك مقابل السماح لولده بالتعلم فرفض الملك اقتراحه قائلاً: «لا يمكن أبداً . . عمومية القانون غير قابلة للاستثناء. ولد الاسكافي يتعلّم ويصبح فيما بعد معلماً متفوقاً قد يضطرّ إليه أبناء الملوك في المستقبل وتكون النتيجة حينئذٍ أن يحتاج ابناء الملوك لإبن الاسكافي . . وماذا سيحدث لو تصورنا النتيجة»؟!! (راجع صفحة ٧٧).

(٢) قتل أنشروان العادل عشرين ألف مزدكي يخالفون الملكية الخاصة حماية لطبقة الحاكم وطبقة علماء الدين الزردشتيين.

(٣) بعد تلك المجزرة جلس كسرى للمظالم وأمر بتعليق سلسلة ذات أجراس علىٰ باب القصر يحركها المظلومون فيخرج لهم الملك ويرد مظالمهم عليهم.
قيل: ان حماراً عجوزاً «عجوز أيضاً!!» أعرض عنه صاحبه وأهمل تغذيته فجاء الحمار وحرك سلسلة العدل، فخرج له كسرى بنفسه وقضى على صاحبه أن يخدمه ويداريه ويعلف عليه!

منها النور الأهورائي الباهر، وهرعوا من مخابئهم المظلمة بأرديتهم الفضفاضة وأكمامهم العريضة الواسعة ولحاهم الطويلة المرسلة، وسارعوا إلىٰ المساجد يتبعون موبد الموابدة، تغمرهم لهفة الإيمان.. دخلوا يؤججون نيران معابدهم الخامدة الباردة، ويضرمون ـ مرة أخرى ـ لهيب جمر الشرك والتضليل في مواقد النيران «مهرابها»[١] ـ التي أخمدتها أعاصير التوحيد ـ بنفخاتهم الواهية.

أشرق «أهريمن» الذي هوى من قمة الملكوت، وسقط من علو ارتفاع الإله الحاكم علىٰ النصف الأكبر من الكون بعد أن قهره «أهورا ـ مزدا» في صراعهما المرير، فجعله عاجزاً خاسئاً يوسوس خانساً مختفياً في أعماقي وأعماقك.. عاد مشرقاً في جبين الموبدان وتربع مرة أخرى علىٰ أريكة الآلهة التي تحكم الكون[٢].

(١) ذهب بعض علماء اللغة إلىٰ أن «محراب» معرّب «مهراو» وهو المكان المقدس لدى عبّاد الشمس «الميزائيسم» ولاحظت هنا في استعمالي اللفظة اشتقاقها المعنوي والتاريخي بغض النظر عن اشتقاقها اللغوي.

(٢) في كتاب «أوستا» [«كتاب زردشت المقدّس يشتمل علىٰ عدة أقسام منها: گاثاها، بسنا، خرد أوستا..» المعرّب] قسم «گاثاها» الذي يعدّ أقدم أقسام «أوستا» ويحتمل احتمالاً قوياً أن يكون من نظم زردشت نفسه يقرأ: ان «اهورا مزدا» «الإله الواحد الذي خلق الكون كله».. ومن ثم كلما سار التاريخ وقويت شوكة الموابدة ورجال الدين الرسميين تجد في كتب «الاوستا» المتأخرة: ان أهريمن بدأ يكتسب شخصية جديدة ويتأصل أكثر فأكثر حتى تجده ينافس أهورا.

فلما جاء الإسلام هوى «أهريمن» من عرشه وصار عدواً للإنسان ولم يعد ينافس «أهورا». حينما جاء الإسلام هوى «اهريمن» إلىٰ حضيض العبودية لله عاد ـ خلال تاريخ الإسلام ـ إلىٰ مقام «أهريمن» العالم وأخذ يرتفع ويعلو ولكن كان في هذه المرة يعلو مختفياً تحت «قناع الله».

الله. . . كان نور «أهورا» الوجود كله[١] وكان قرابة الإنسان[٢]، وكان الكل عنده سواء[٣] وكان إلىٰ جانب[٤] عياله[٥] «الناس، الجماهير التي لا يملكها إلاّ الله» وكان أرأف بهم وأكثر غيرةً عليهم[٦]، وكان ينظر إلىٰ الأعراق والعناصر بعين واحدة[٧]، كلهم «ناس»، والناس ينقسمون عنده إلىٰ تقي وفاجر[٨]، وكان

---

(١) قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ (النور/ الآية ٣٥).

(٢) قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (ق/ الآية ١٦) ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر/ الآية ٢٩).

(٣) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات/ الآية ١٣).

(٤) كما ذكرت سابقاً في «إسلام شناسي ـ معرفة الإسلام»: حين يكون الكلام عن التقسيم الاجتماعي والتناقضات التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية «ولا نقصد اللحاظ العقائدي والنظرة الفلسفية للكون» فإن الله والناس يكونان في صعيد واحد ومحور واحد، ونلاحظ ذلك واضحاً في الآيات الاجتماعية، حيث يمكنك استبدال كلمة «الله» بكلمة «الناس» في تلك الآيات. وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالىٰ: عبدي قد استطعمتك في الدنيا فلم تطعمني واستكسيتك فلم تكسني؟! فيقول: إلهي كيف ذلك؟ يقول الله تعالىٰ: مر بك فلان جائعاً وفلان عارياً فلم تعطه، وفلان كان في جوارك فلم تعده من فضل الذي انعمت بها عليك، وعزتي وجلالي لامنعنك اليوم فضلي كما منعته» [ذخيرة الملوك: ٤٢ ط الهند (المعرّب)] وهكذا يسأل الله لنفسه عن العباد ويجعل الأفراد مسؤولين قبالة تلك الموارد والمفردات. (المؤلف).

(٥) في الحديث: «الناس عيال الله ولا أحد أغير من الله علىٰ عباده».

(٦) نفس المصدر السابق.

(٧) في الحديث النبوي ﷺ: «المؤمنون كأسنان المشط».

(٨) قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ . . .﴾ (الحجرات/ الآية ١٣).

يواجه الثراء، القوة، التضليل «زر وزور وتزوير»[١] ويسخط أولاً بأول على الثالث «فمثله كمثل الكلب...» «كمثل الحمار...»[٢].

والآن مُحِق هذا الإله من الأذهان بقوة «الجهاد» وأموال «الزكاة» و«زهد الإمام».. استبدلوه بالشرك المشؤوم الذي صبه أولياء الدين الرسميون في قوالب من توحيد إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وزردشت[٣].

ألبسوا الثنوية[٤] قباء «مشيئة الله» ليغطوا بالقداسة علىٰ كل الثنويات.. ثنوية «الجنس الآري والنجس»، «العرب والعجم»، «الحاكم والمحكوم»، «الحر والعبد».. وشدّوا الثالوث[٥] بوثاق

---

(١) مفردات عبر عنها القرآن: «المترفون، الملأ والرهبان والأحبار، قارون، فرعون، بلعم بن باعورا».

(٢) يذكر القرآن الطائفة الثالثة بإستنكار وتحقير شديدين:
﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (الاعراف/الآية ١٧٦).

(٣) كانت هذه المذاهب توحيداً خالصاً في بداية انطلاقها ثم بدلها رجال الدين الرسميون والأنظمة الحاكمة إلى الشرك من أجل تبرير الشرك الطبقي والعنصري (انظر: «جامعة شناسي شرك» محاضرات في كلية الآداب جامعة طهران، درسهاى توحيد در اسلام شناسي) محاضرات (مؤسسة الإرشاد). (المؤلف).

(٤) «Dualisme» الثنوية تقسم الوجود إلىٰ ذاتين: «خير وشر» (ماني وزردشت الساساني...).

(٥) «Trinité» الثالوث: من قبيل الكاثوليك «الأب، الإبن، الروح القدس» والوجوه الثلاثة لـ «زاگره» إله اليونان، و«شيوا» إله الهند، والمعابد الثلاثة «بيوت النار» المقدسة في إيران الساسانية. (المؤلف).

«الجبر» الإلهي شذاً محكماً[١]، فسطع نور الإله الأحد في السماوات وتلألأ في جبين طبقة الآلهة الثلاثية في الأرض.

أقاموا معبد «آذرگشب» بيت النار في آذربيجان ـ مرة أخرى ـ واشعلوا منه نار «كيخسروا» «نار أهورا الملكية». . . وهكذا اشعلوا النيران في «خرين» أو «خره» «نار أهورا الملائية الروحانية» في «اسطخر» فارس، وكذلك أججوا النيران في معبد «مهر» علىٰ جبال «ريوند» ليحيوا «نار أهورا الاقطاعية»[٢] «برزين مهر» وها هي ذا نار الثالوث الأهريمني التي خمد لظاها بالنفس الأول لفتى آل إبراهيم[٣]. . هي ذا تندلع من جديد في محراب الله، وتتسلل ـ مرة أخرى ـ من خلال مكر أئمة التوحيد وحيلهم.

ملوك فارس ـ كسرىٰ العادل ـ يمنحون صكاً بـ ٥٠٪ من

---

(١) إبتدع الأمويون القول بالجبر واستعانوا بعلماء البلاط على ترويج هذه الفكرة ليبرروا التقسيم الطبقي الثلاثي في نظام الخلافة بإعتباره أمر أرادته المشيئة الإلهية وحكم به القضاء والقدر فلا محيص عنه البتة. (المؤلف).

(٢) احتوى المذهب الزردشتي في عصر الساسانيين ثالوثاً يمثل التبرير الإلهي للثالوث الطبقي «المال، السلطة، التضليل»، وذلك من خلال النيران الثلاث «المعابد المقدسة» الخاصة بالطبقات. (المؤلف).

معبد «رضائية» خاص بالملوك وابنائهم، معبد «فارس» خاص بطبقة رجال الدين، ومعبد ثالث قريب من «سبزوار» علىٰ سفوح جبال «ايوند» في قرية يقال لها اليوم «مهر»، خاص بالملاكين والاقطاعيين. (المؤلف).

(٣) روي في ذكر ولادة الرسول ﷺ: «انهار طاق كسرى في المدائن وانطفئت النار في فارس، وجفّت بحيرة ساوة» وهذه هي تلك القوى الثلاث نفسها. (المؤلف).

أراضي الشعب(١) لموابدة «الدين البهي»(٢)، ويوقفون أريعها على معابدهم، خوتاي»(٣) ـ مؤبدان معبد اسطخر ـ وتقديراً لموقفهم في المجزرة العامة التي أعدم فيها عشرون ألف مزدكي في يوم واحد. . . المزدكيون الذين كفروا بدين الاكتناز والثراء والمالكية والاقطاع(٤)، ورفضوا سنة(٥) التمييز بين «الأشراف والفقراء».

واليوم. . . وهبوها ـ تلك الأراضي ـ لمروجي سنّة النبي وحماة دين إبراهيم الخليل في مقابل القضاء على من تمرّد على

(١) بعد المجزرة العامة التي قتل فيها المزدكيين وفرح لها الموابدة فرحاً شديداً توجه كسرى إلى اعمار المعابد وتقديم النذور. .
انظر قائمة املاك الموابدة والقساوسة في تاريخ آلبرماله و«إيران في عصر الساسانيين» لكريستنسن.

(٢) لم يولِ الأشكانيون ـ الذين كانوا من الأقوام الخراسانية ـ أية أهمية للجهاز الديني الزردشتي والذي كان بدوره مرتبطاً بالهخامنشيين الفارسي الأصل، وفي نهاية الأمر كان هذا الجهاز الديني هو العامل الأساس في انهيار حكومة الملوك الأشكانيين، فظهر بعد ذلك الساسانيون كنتيجة لهذه الحركة.

(٣) روحاني معبد اسطخر الكبير في فارس وكان يمثل نموذج طبقة رجال الدين، والساسانيون من عقبه، وما اعظم الشبه بين الساسانيين والصفويين.

(٤) لفظ «الكنز» معرّب «گنج» بالفارسية بمعنى ادخار الذهب والفضة والأموال وقد نزلت «آية الكنز» تذم الأحبار والرهبان اليهود والنصارى حيث كانوا جزءاً من الطبقة الحاكمة والمالكة، كما اتخذها أبو ذر شعاراً لحركته ونهضته: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة/ الآية ٣٤).

(٥) يسمي علماء البلاط الشيعة بـ «الرافضة» بينما ينعتون أنفسهم بالأوفياء «لسنة النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ» كلاهما صحيح! ولكن السنة، هي السنة الحاكمة على التاريخ أي سنة الكنز! أي نظام الطبقية الدائمي!. (المؤلف).

البيعة لخليفة الرسول وخرج علىٰ حكم خليفة الله وقال: ان «مال الله» و«حكم الله» و«سبيل الله» إنّما هو «مال الناس» و«حكومة الناس» و«سبيل الناس»[١].

* * *

ضجيج دجلة والفرات ـ الأخير ـ يطرق مسامع النيل:

شقّ بلعم بن باعوراء ـ كبير العلماء الروحانيين[٢] ـ أمواج النيل، وأخرج رأسه من عباب مياهه، وغسل غبار الموت عن وجهه، وتلألأت في محياه أنوار اليد البيضاء.. يد الراعي المشرّد الثائر... عاد النور الذي إنطفأ من قبل..

بادر بلعم مسارعاً نحو «الأهرام».. نفث نفخته الساحرة في هيكل فرعون ـ الهيكل الذي حنطته أيدي رجال الصناعة الدينية واحتفظت به في المومياء[٣] لتبعثه من جديد متىٰ شاءت وتوقفه

(١) قال معاوية: «المال مال الله وأنا خليفة الله، اعطي من أشاء وأمنع من أشاء» ثار عليه أبو ذر قائلاً: «المال للمسلمين». هذا تفسير أبي ذر للقرآن كما ذكرت سابقاً: حينما يكون البحث في المجال الاجتماعي والإنساني يكون «الله» و«الناس» حكمهما واحد والمراد منهما واحد: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ (التغابن/الآية ١٧) أي: ان تقرضوا الناس وكذلك الإنفاق في سبيل الله يعني: «الانفاق في سبيل الناس». (المؤلف).

(٢) كبير رجال الدين اليهود الذي خان دينه وقومه من أجل مصالحه الخاصة وتغافل عن روابطه القومية والدينية، والقرآن يذكره كنموذج لرجل الدين الخائن في دين التخدير ورمز لاستحمار الناس إلىٰ جانب فرعون وقارون. (المؤلف).

(٣) كان التحنيط بالمومياء عملاً دينياً خالصاً وكان لا يعرف هذا الفن سوى رجال الدين فكان هؤلاء يحنطون اجساد الفراعنة بالمومياء لتبقى خالدة آلاف السنين.

سداً أمام النهضات والحركات على مر العصور. . بعث الهيكل من جديد بإعجازه الروحاني وانتشله من تحت الأهرام بعد مضي ألفي عام[١]. . بعثه بقوة الدين المنقذ.

شقّ بلعم فم التراب بعلمه الغيبي ونوره القدسي وحكمته الإلهية وبوارقه الإشراقية وعصا موسىٰ التي يحملها بيده. . وفرج فرعون الأرض لينبعث بقوة خلافته الإلٰهية مقتدياً بإمامة بلعم «آية الرب»، وأخرجا شريكهما الثالث[٢] الذي ابتلعته الأرض تنفيذاً لإرادة الله وارضاءً للعبيد المتمردين بقيادة الإمام الراعي الثائر. . أخرجاه من قلب التراب. . والآن عاد هؤلاء الثلاثة جميعاً إلىٰ مواقعهم بأسماء حديثة ومصائد ومكائد أحدث. . يد موسىٰ البيضاء علىٰ عاتق فرعون «ذي النورين»[٣]. . عصىٰ موسىٰ التي تبطل السحر بيد أبي موسىٰ[٤] وأرث بلعم. عنق عجل السامري الذهبي[٥] زينة المآذن في المساجد. . وكنز قارون سميّت «بيت المال». . «مال الله».

---

(١) عاش موسى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والآن هو القرن السابع بعد الميلاد (كانت الهجرة سنة ٦٢٢م).

(٢) يقصد «قارون» رمز «القدرة المالية والاستكبار الاقتصادي» عند الكاتب.

(٣) لقب عثمان بذي النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات النبي علىٰ التوالي: «رقية وأم كلثوم».

(٤) أبو موسى الأشعري.

(٥) صائغ من اتقياء اليهود صنع عجلاً ذهبياً في فترة غياب موسى ثم دعا الناس إلىٰ الشرك وعبادة الأصنام (العلاقة بين الشرك والكنز)، كان العجل أجوف فكان يختفي فيه عدة من رجال الدين فيتحدث الناس للعجل ويجيبهم أولئك من بطن العجل نيابة عن الله.

إذن فالله.. هو قارون؟!

ألا ترى الأقباط[١] ـ غرقى النيل ـ قد انتشلوا اليوم من بين الأوحال، وهيمنوا على الأسباط[٢]، وأسروهم أسر الجاهلية، وقهروهم بالاستذلال والاستعباد والتعذيب في بيوت التعذيب.. «بيوت الله».. ليذوقوا وبال الحرية الزائلة وعقاب الجهاد من أجل التحرير.. تسلطوا على العوام والسواد الذين لا عزّ لهم ولا شرف ولا أنساب.

ألا ترى موسى الرجل الذي رجح الرعي على الملك، والجوع والتشرد في الفيافي والقفار على الوداعة والاسترخاء والعيش في البلاط، ورعي اغنام شعيب في صحراء سيناء على السوم مع أغنام فرعون المدجنة على شاطىء النيل، وفضل العيش الخشن في أردية الفقراء الصوفية مع عصاه العاملة المعجزة.

ألا ترى الراعي المبعوث ينطلق من قلب الصحراء يهجم لوحده فجأة على قصر النيل الأخضر.. ينتفض ثائراً على «رب الناس»[٣] و«ربّه الذي اكتنفه»[٤]، يدفن قارون حياً في التراب.. يغرق فرعون حياً في الماء.. يقبر السحرة المضللين، والسامري

(١) الأقباط «Colte» أقوام مصريون قدماء كان الفراعنة منهم.

(٢) يطلق على أولاد يعقوب «اسباط» وعلى أولاد إسماعيل «قبائل» ويطلق «السبط» في اللغة العربية على العقب سواء كان من الأولاد أو البنات، ويطلق «السبط» على أبناء النبي وهم جميعاً ذرية فاطمة.

(٣) قول فرعون الذي حكاه عنه القرآن: «أنا ربكم الأعلى».

(٤) تربى موسى في بلاط فرعون صغيراً وثار عليه كبيراً.

ناحت العجل، وبلعم المتلاعب المموه بالدين. . يقبرهم احياء في أقبية معابدهم، ويسوق القوم المأسورين نحو الحرية إلىٰ «الأرض الموعودة» ليشيدوا مدينة «إله الناس» و«أمّة التوحيد» و«توحيد الأمة»[١] تأسيساً علىٰ «الكتاب والميزان والحديد»[٢]. . لشيّدوها علىٰ أنقاض «قصور القدرة» وخرائب «كنوز السلب والنهب» و«معابد الضرار والاستذلال»[٣].

والآن، ألا ترى هذا السبط وحيداً يتسلل من «المدينة» القبطية ضارباً في صحراء الغربة والتشرد، مسارعاً إلىٰ المنية كسفينة[٤] تمخر عجلىٰ في الرمال الحارقة، التي تمتد من تهامة

---

(١) المظهر الاجتماعي المضاد للطبقية الناتج عن توحيد الله في قبالة الشرك الاجتماعي الطبقي الناتج عن الشرك بالله. (المؤلف).

(٢) وردت في سورة الحديد ثلاث إشارات رمزية تكفي المجتمع البشري المثالي ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد/ الآية ٢٥).

الكتاب رمز «الإيمان، العلم، الفكر، الثقافة» الميزان رمز: «المساواة، العدل»، الحديد رمز: «القوة العسكرية والاقتصادية والتمدّن المادي» انظر هوامش «سيماي محمد» في الفصل الأخير من «اسلام شناسي». (المؤلف).

(٣) اجتمعت شبكة من المنافقين واقامت مسجداً بعيداً عن المدينة تدبر فيه المؤامرات، وتحيك فيه الدسائس بعيداً عن رقابة الصحابة، ثم طلبوا من الرسول أن يصلي فيه ركعتين تبركاً واحتفالاً بافتتاحه، وكان الرسول ينوي الخروج إلىٰ احدى الغزوات فأجل الأمر إلىٰ حين عودته منها. . . وعند رجوعه أمر أصحابه أن يضرموا النار في المسجد فاحرقوه فنزل الوحي في ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة/ الآية ١٠٧).

سمي المسجد «ضرار» لدوره الخياني في تخريب المجتمع. . . وكم بنيت من مساجد عظيمة علىٰ غرار «ضرار» فيما بعد!

(٤) «ان الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة».

السوداء[١] إلىٰ الفرات الأحمر. وحيداً يائساً هارباً من سيل الظلمات الذي اجتاح البطحاء[٢] قبل كل مكان.. ميمّماً وجهه شطر «أرض نوح»[٣].. «وارث نوح» يحتضن رسل الموت القادمة علىٰ «خيل الله»[٤]..

فرّ من سيل الظلمات الذي يلاحقه بإمامة فرعون والملأ والسحرة وهو يلمح في الأفق «ذئاب يوسف» المفترسة التي توحشت لادمانها علىٰ دماء الأعداء والأصدقاء المسفوكة في الجهاد والزكاة. يلمح تلك الذئاب تتربص به لتنتهشه.. تشق السفينة طريقها في حصار.. يلاحقها سيل الظلمات وتنتظرها الذئاب..

الحمل الثقيل «وراثة آدم» علىٰ عاتقه.. قلادة الموت تزين جيده[٥] والركب يتهادى صامتاً حزيناً يقطع الصحراء.. لا تسمع

---

(١) تهامة: لفظ يطلق علىٰ الوادي الواقع بين الجبل والبحر. والجانب الغربي من الجزيرة العربية البحر الأحمر الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب وتحاذيه سلسلة جبلية تفصل البحر عن الصحراء، وتقع مكة والمدينة في هذه السلسلة الجبلية.

(٢) البطحاء: وادي مكة.

(٣) حدث طوفان نوح في أرض بين النهرين، ويحتمل أن يكون ذلك علىٰ أثر فيضان دجلة والفرات وقد اكتشفت أخيراً طبقات رسوبية ضخمة هناك، وجبل الجودي الذي صرح القرآن بإستواء السفينة عليه يقع في سلسلة جبال «ارارات» في الشمال الغربي من إيران.

(٤) قول عمر بن سعد أمير الجيش في كربلاء: «يا خيل الله اركبي» يحاكي في ذلك قول الرسول لما خاطب الجيش الإسلامي بهذا الخطاب.

(٥) قال الحسين عليه السلام: «خط الموت علىٰ ولد آدم مخط القلادة علىٰ جيد الفتاة».
واضح جداً أن هذا الكلام علىٰ أي لسان ومن أي ذات صدر.. لا يتكلم أحد قط=

منه سوى الأنغام والإيقاعات الرتيبة المنبعثة من اصطكاك السفينة بأمواج رمال الصحراء.. بيد أن خوار عجل السامري «الزاهد» يكسر الصمت ويدوي في أرجاء العالم شرقاً وغرباً.. عجل السامري الذي اضحى بوقاً يتحدث من خلاله وكلاء الله مع الناس ويبلغونهم الوحي، ويصدرون حكم الجهاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وينذرونهم من عذاب الجحيم، ويبشرونهم بنعيم الجنّة ويعظون الكفار والضالين والعاصين، ويحثون العبيد والجياع علىٰ الصبر ويعدونهم العوض في الآخرة والموائد التي تنتظرهم في الفردوس والجنان.. كبر العجل الآن وأصبح في معلف بيت المال بقرة ترفع عقيرتها بنداء التوحيد(١)..!

هدموا الكوخ الطيني القائم في زاوية من زوايا «البيت الذي وضع للناس»(٢).. هدّموا بيت الراعي المبعوث الذي كان يعيش عيش العبيد(٣) من أجل إنقاذ دين الله وحماية سنّته (سنّة الرسول) هدموه وأقاموا علىٰ أطلاله تلك الوجوه الثلاثة الخالدة.. وجوه

= مثل هذا الكلام عن الموت إلاّ الحسين أو رجل من ذرية عليّ.. قد يقول الأحرار: «ان الموت خير لنا من الحياة مع الظالمين» ولكن التعبير هنا يختلف تماماً فالشهادة تزين الإنسان كما تزين القلادة جيد الفتاة... (المؤلف).

(١) توجه الحسين خلال هذه الفترة إلى الموت في كربلاء حيث كانت طبول الجهاد تقرع شرقاً وغرباً والمعابد تنهار وصرخات التكبير تملأ الآفاق.

(٢) وبعبارة أخرى «بيت الله = المسجد» هكذا عبّر القرآن عن «بيت الله = الكعبة»: «ان أوّلَ بيتٍ وُضِعَ للناسِ لَلّذي ببكّةَ...».
انظر «خانة مردم» مذكرات الحج للمهندس بازرگان. (المؤلف).

(٣) قال الإمام الصادق يصف الرسول ﷺ: كان رسول الله يجلس جلوس العبد ويأكل أكل العبد ويعلم أنه عبد.

ثلاثة ينتظمها محور: «فرعون» و«قارون» و«بلعم». . فروع ثلاثة لسمسار واحد: «القصر» «الدكان» «المعبد» عاد كل واحد منهم يزاول عمله الأبدي: «الاستبداد» «الاستغلال» «الاستحمار». . عاد الثالوث.

أجل هو ذا موسى مشرّداً مرة أخرى في «أرضه الموعودة»، والتاريخ يعيد ترتيب الأوراق ويتمخض دائماً ليلد نفسه ويعود من جديد.

تربّع «يهوه»[١] بوجه العابس وجه السلطان الجبّار من سلاطين الشرك علىٰ عرش إله التوحيد، وجعل عزيراً ابنه علىٰ ولاية العهد[٢]، وأخذ يبشر شعبه المختار «بني إسرائيل» بحكومتهم العالمية وخضوع البشرية لهم، ويؤلبهم علىٰ امتصاص الدماء والسرقة والقسوة والتقتيل. .

جعل أبناء «سام» أصفياء السماء وعادى أبناء «حام» و«يافث» وحمل لهم حقداً مهولاً، وصفدهم بسلاسل «التقدير الإلهي»، وحكم عليهم بالعبودية لابناء «سام»[٣].

---

(١) إله اليهود، له وجه غاضب خشن.

(٢) حارب القرآن ما ذهب إليه اليهود من أن «عزيراً» ابن «يهوة».

(٣) الكل يعلم أن جميع الأقوام ـ بعد الطوفان ـ من نسل نوح، وعلىٰ ما ورد في التوراة «فان نوحاً كان له أبناء ثلاثة: حام، يافث، سام؛ واليهود ساميون من نسل سام «Semite»: وذات يوم كان نوح نائماً وعورته مكشوفة، فلما رآه حام ويافث خرجا من الخباء ولم يقولا شيئاً لأخيهما، فلما رأى سام عورة أبيه بادية غطاها بخرقة بهدوء وسكينة واحترام، ثم خرج من الخباء وكتم الأمر كأن شيئاً لم يكن. فلما استيقظ نوح=

جعل أبناء هارون ـ رجال معابد موسى ـ سحرة مجرمين قتلة، وأبناء مضللين وأكثر جدلاً وأمهر من سحرة فرعون[١] . . والحاخامات والفريسيين[٢] والأحبار يراوغون بالدين. ادهى من بلعم. . والأمة أنذل وأفسد. . تعبد الكنوز والأموال أكثر من قارون و. . .

= لعن حاماً ويافث ودعا عليهما قائلاً: اللهم اجعل ذريتهما عبيداً لذرية سام».
تبين أن الأب لم يكن نائماً وإنما كانت خطة ليضع الورقة الرابحة بيد اليهود فيحكمون العالم ويعتقدون بسيادتهم وأفضليتهم علىٰ البشرية اعتماداً علىٰ تلك الورقة! «ويبدو أن السيادة التي كانت لليهود في التاريخ ناشئة عن هذا الأصل!!»، والصهيونية التي تعتقد بالشعب المختار وتؤمن بالتفضيل العنصري وتجهد من أجل التسلط علىٰ الشعوب المكونة من ذرية يافث وحام تحتج «بآلة» الأب لتبرر ما تذهب إليه. دليل، وأي دليل. . .؟! (المؤلف).

(١) هارون أخو موسىٰ وشريكه في الرسالة، وقد جاء في التوراة فصل «في ٧٠ صفحة تقريباً» يتحدث عن آداب التضحية وأدواتها والصندوق والمذبح وما شاكل وهناك صرحت التوراة أن إجراء هذه الطقوس خاص برجال الدين الرسميين ورجال الدين يجب أن يكونوا من نسل هارون.
سحرة فرعون الذين غمسوا الحبال بالزئبق ثم حركوها تحت أشعة الشمس ليقدموا معجزة تقابل معجزة موسىٰ، هؤلاء السحرة يعتبرون من وجهة نظر علم «تاريخ الأديان» رجال الدين الرسميين في عصر فرعون، لأن الدين كان في تلك العصور مزيجاً من السحر والشعوذة، وبالرغم من أن الأديان المتطورة كانت تحارب هذه الظاهرة رسمياً ولكن رجال الدين كانوا يتقنون شيئاً من تلك الفنون ليستخدموها في تخدير الشعوب تحت ستار الطقوس الدينية والأدعية والأوراد وغيرها. (المؤلف).

(٢) فرقة خاصة من رجال الدين اليهود، يحاربهم عيسىٰ من أجل الإصلاح، لأن عيسىٰ (المسيح) هو موعود الدين الموسوي، ومن الطبيعي أن يحارب رجال الدين الرسميين الذين حرفوا الدين ومسخوه ولوثوه بالشرك.
وقد ورد في الروايات الشيعية أن الإمام الغائب مهدي الإسلام وقائم آل محمد إذا ظهر يقتل من علماء الدين الفاسدين خلقاً كثيراً حتى تجري دماؤهم جداول في الأرض. (المؤلف).

ماذا؟!

هو ذا قارون تحرر من الأرض فجعل ـ بإسم «الموعود» موسى و«المسيح» عيسى[١] ـ لدين «الكنز» في أرض إبراهيم الموعودة[٢] «حرمة وقداسة وأمناً». . ليسافر الشرك مع التوحيد أينما حلّ وارتحل. . . أينما ارتفع نداء التوحيد صار الشرك «شعاراً ودثاراً» وانقض الصنم ينخر روح الأمة باسم الله. . .

«وشنو»[٣]. . إلّه التاريخ ذو الوجوه الثلاثة إحتلّ مواقع الله

---

(١) «المسيح» ليس إسماً لعيسىٰ، المسيح صفة عامة تعني «الموعود المنتظر» واليهود كانوا ينتظرون ظهور «المسيح» دائماً فلمّا بعث عيسىٰ قال لهم: أنا «المسيح» وانكر اليهود أن يكون عيسىٰ هو المسيح وقالوا: ان المسيح الحقيقي لم يظهر بعد.

ذهب جملة من المستشرقين وبعض المسلمين إلىٰ أن لفظتي «المهدي» و«المسيح» لهما جذر واحد ويقولون أن موعود الشيعة «المهدي» لم يشتق اسمه من «هدىٰ يهدي» ويشهد لذلك أن معنى «المهدي» لا يتناسب مع شخصية الإمام القائم ورسالته.

(٢) «فلسطين» «الأرض الموعودة» حيث وعد موسىٰ أسرى اليهود في مصر أن يرجعهم إليها وينقذهم من الأسر، فيتحررون في الأرض الموعودة وتنتظم أمورهم ويتحسن حالهم. مكة أيضاً أرض إبراهيم الموعودة كما عبّر القرآن عنها علىٰ لسان إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ (إبراهيم/الآية ٣٥).

(٣) وشنو إله الهند، توجد له صورة جسد واحد له ثلاثة وجوه «التثليث» لهذا الإله ثلاثة وجوه وأربعة عناصر: «الأشراف» رأسه، «رجال الدين» قلبه، «الجند» يده، «الطبقة العاملة» أسافل جسمه، خلق العناصر الثلاثة الحاكمة علىٰ المجتمع من اعضائه الثلاثة الرئيسة وعامة الناس من عناصره المرؤوسة، يلزم أن يكون الناقصون من الهنود الذين يطلق عليهم «النجسين» من «برازه».

اشد وأقوى من «التوحيد» لأن التوحيد يؤمن بوحدة الإله فقط بينما تعني «وحدة الوجود» وحدة الإله والطبيعة وكل شيء. . . وهكذا نرى الشرك يصوّر بأجمل صورة!! (المؤلف).

وهيمن عليها. . «وشنو» الذي يعتقد بنجاسة ذات العجم. . ويخلق من رأسه الملوك وابناءهم من ذوي الأنساب والشرف. . ومن يديه الجند والعساكر وراجات الذهب والسلاح. . ومن قلبه رجال الدين والارتياض. . ، وبالتالي من مؤخرته عامة الناس السفلة الأوباش الذين لا حسب لهم ولا نسب ولا سلاح ولا ذهب ولا وجود معنوياً أو اشعاع روحانياً. .

مع هذا فلا يزال هو الإله الواحد. . بمعنى التوحيد. . بل ذهبوا أكثر من التوحيد. . إلىٰ: «وحدة الوجود».

* * *

عاد «زيوس» أيضاً إلى العرش يحكم العالم مرتدياً زي الله. .

«زيوس» حامي شرف العنصر اليوناني[١] وقدسية الأسر الأثينية الشريفة[٢] وعدو الغرباء والناقم على الشعب والدين في

(١) زيوس إله العالم، ولكنه يعدّ اليونانيين بشراً وغيرهم «برابرة» و«البربري» هو الذي يعجز عن الكلام وإذا نطق لا يتفوّه إلا بـ «ورور» وذلك لأن «زيوس» لا يفهم إلا لغة اليونان، أو أنه لا يعتبر سوى لغة اليونان لغة ويعتبر غير اليونانيين صمّاً بكماً لا يعقلون، مثل العرب الذين يسمون غير العرب «عجماً»، وكان زيوس يشارك في الحروب ويخوض المعارك بكل ما أوتي من قوة ضد أعداء اليونان وآلهتهم.

(٢) توجد في «أثينا» ثلاث أسر نبيلة وكما قال ارسطو: «فريدة لا تتكرر»، لأن بقية النبلاء، والأشراف في باقي الأمم خاصين بأممهم بينما لا تتحدد الأسر الاثينية بأمة دون أمة إنما هي للأمم جميعاً، وهم ثلاثة لا يضاف إليهم بتاتاً لأن ذاتهم وطينتهم وفطرتهم تختلف عن باقي الموجودات، وليس للمال والثروة علاقة بشرفهم وأفضليتهم بل الأمر كله راجع إلىٰ الدم والوراثة.

طروادة وفارس(١) لأنهم جميعاً «برابرة ولدوا من آلهة غريبة سافلة».

زيوس.. جلاد السجون الخالدة للعبيد والجياع، الذي جرىٰ قلمه علىٰ نواصيهم المشؤومة مذ خلقهم، فكتب عليها العبودية والجوع، وكبلهم بسلاسل المصير الملعون.

زيوس.. المنافس الحقود الحسود، عدو الإنسان(٢)، الخائف المتوحش من اليقظة والوعي والحرية وانتشار النور في الأرض.. ألا تراه كيف كبّل «بروميثيوس» الذي يحب الإنسان لأنه هبط بالقبس الإلٓهي من السماء، فنفاه وحيداً إلىٰ الفلوات الباردة المنطفئة الساكتة، واعتقله هناك بين أقوام «السكا» المتوحشين ليرزح في سجن «الغربة والوحدة» إلىٰ الأبد(٣)!

---

(١) نلاحظ «زيوس» يحارب «لاوكون» «Laocoon» في الحرب التي وقعت بين «أثينا و«طروادة» «Troie»»، ويسمي الإيرانيين «برابرة» ويسمي حرب «سالامين» بحرب اليونانيين والبرابرة.

(٢) توجد منافسة شديدة بين الآلهة والإنسان في الأساطير اليونانية، خصوصاً زيوس الذي يحاول دائماً أن لا يصل الإنسان إلى مقامه ولا يحصل على أسرار الوهيتة. ولأن زيوس سيطر علىٰ الطبيعة وأخضعها له فهو يخشىٰ دائماً من الإنسان، لئلا يسخر الطبيعة ويسيطر عليها من خلال علمه ومعرفته فيضعف زيوس حينئذٍ علىٰ العكس تماماً من «الله» الذي اسجد ملائكته جميعاً لآدم (الملائكة مظاهر القدرة في الكون) وجعله خليفته وسخر له السماوات والأرض. (المؤلف).

(٣) بروميثيوس ـ مظهر المحبة للبشر ـ من الآلهة، بيد أنه في منتصف إحدى الليالي اختطف النار من السماء حين كان الآلهة بمن فيهم زيوس يغطون في نوم عميق، ثم هبط بها إلى الأرض وأخفاها في قصبة لتقع بيد الإنسان فيتغلب على ظلمة الليل وبرودة الشتاء (رمز الوعي والقدرة). =

القبس الذي أمسك به وريثه من علىٰ الشجرة في صحراء سيناء فوق قمة جبل الطور(١) ثم منحها للقوم المأسورين . .

ثم أمسك بها وريثه من غار حراء علىٰ جبل النور(٢) وهبط بها إلىٰ الناس، وأشعل النار في ظلمات الجاهلية والحياة المتجمدة الخامدة(٣).

والآن أصدر زيوس ـ الحاكم باسم الله ـ فرمانه بتكبيل الوريث الوحيد لأولئك وكل الذين جاءوا معه، وحكم عليهم بالتعذيب في الأرض النائية في قلب الصحراء الصماء الخرساء

= ولأن زيوس كان يخشى من وعي الإنسان وقدرته دائماً ألقى القبض على «بروميثيوس» ونفاه إلى أقصى نقاط اليونان، في جبال القفقاز وتركه مكبلاً بين أقوام «السكا» المتوحشين، ووكل به طيراً جارحاً ينقر كبده بمنقاره الخشبي ويقضمه حتى يأتي عليه، ثم يعيده زيوس بإرادته ويكرر الطائر نقره وقضمه إلى الأبد.

وهذه هي عاقبة من يسعى في ظل حكومة زيوس من أجل تحرير الإنسان وتوعيته النفي، الوحدة، الغربة، الحجر، الوحشية، وبالتالي التعذيب الأبدي. (المؤلف).

(١) كان موسىٰ ماراً بالصحراء فرأى «النار المقدسة» على قمة جبل الطور، وهناك تلقى الخطاب الأول في رسالته.

(٢) كان النبي جالساً في ظلمات غار حراء وفجأة ومض نور فرأى النبي في النوم أو في اليقظة أو في النوم واليقظة صفحة مكتوباً عليها بخط من نور.

وغار حراء في قمة جبل يبعد عن مكة فرسخاً واحداً إلى الشرق وينصب كالمخروط الناتيء من الأرض يطلق عليه الآن «جبل النور».

(٣) من الواضح أن توحيد القبس الذي هبط به «بروميثيوس» مع ما هبط به موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله فيه نوع من المسامحة في التعبير، ولعله مبني على أن الدكتور ينظر إلى عقائد الأمم نظرة واقعية بما هي عقائد لها وجود على صفحة الواقع بعض النظر عن اصلها، وما إذا كانت ناشئة عن أساطير أو أنها أديان حقيقية، المهم أنه دين يدين به الناس. ولهذا فهو لا يريد الخلط بين الحقيقة والأسطورة وإنما هي محظ استعارة وربط لأواصر الواقع ليس إلا.

ليتجرعوا الآلام غصة بعد غصة، ووكل به الصقور والنسور والجوارح والكواسر التي تأكل الأكباد، لتوقعه في الأسر بذنبه الذي ارتكبه لمّا ورث ذلك «القبس الإلٰهي» ورفض إطفاء نوره وإلقاءه من يده، وهو يسعى من أجل تأجيج الشعلة وسط الإعصار وإشعال النار في ظل أجواء خلافة الظلمات والجمود والتحجر المخيمة علىٰ الإنسان. .

وهذا هو المصير المحتوم الذي ينتظر جميع أولئك الذين تعاهدوا وتعاقدوا «بلعقة الدم»(١) علىٰ تحرير الإنسان.

* * *

وانبعث من أقصى التاريخ رجال معبد «دلفي»(٢) بفخاخهم وشراكهم وانبعث معهم الوسطاء بين الله وخلقه، والسماسرة بين الأرض والسماء. . هذه الأفاعي الجميلة المرقطة التي تنمو دائماً وأبداً علىٰ عاتق «الضحاك(٣) وتتغذى من أدمغة الشباب وجهل

---

(١) «لعقة الدم»: كان العرب إذا أهمهم أمر وأرادوا أن يتعاهدوا عليه عهداً مبرماً لا يقبل الفسخ بحيث يدافع بعضهم عن بعض إلىٰ آخر قطرة دم، جمعوا افرادهم وجاءوا بقدح فيه دم ثم يغمسون أيديهم فيه.

(٢) معبد مشهور في أثينا كان بيتاً للأصنام، كل صنم لإلّه وكان رجال الدين يختفون وراءها ويحدثون الناس ويحاورونهم من هناك. من هناك كان أرسطو يتحدث.

(٣) انظر قصة الضحاك في بداية الجزء الأول من تاريخ الطبري.

الضحاك. . ملك كانت الأفاعي تلتف علىٰ عنقه وتعذبه، وكلما قطعت تنمو من جديد وتقوى وتشتد عليه وتبقى تعذبه حتى يقدم لها «مخ» شاب تلتقمه، فتهدأ مدة ثم تعود إلىٰ جوعها، ولا تهجع حتى تلتقم «مخ» شاب آخر، وهكذا في كل مرة، جوع واقتطاف رأس شاب والتقام مخه، وابتلاعه، مخ الشباب كان طعمة الأفاعي التي كانت تعذبه وتسلب راحته ما لم يقدمه لها.

الشيوخ. . هؤلاء القساوسة والرهبان الذين يتاجرون بصكوك الغفران، ويبيعون المواقع الممتازة في الجنان[١]، ويجتزّون أصواف «نعاج الله»[٢]، ويحتلبون ألبانها. . . هؤلاء السحرة الذين يصنعون الأكسير المشؤوم الذي يجعل من مسيح المحبة والسلام قيصراً دجالاً في هيئة الملحدين. . . يصورون المسيح باكسيرهم هذا سفاحاً قاتلاً يسفك الدماء وينهب الأموال[٣]. .

جاءوا من أقصى التاريخ والتقوا جميعاً في «المدينة» مرة ثانية. . و«صُلب المسيح من جديد»[٤].

* * *

ها هو ذا «بعل» في «محراب الله»، والصنم في «بيت ابراهيم»، والجثمان المحنط بالمومياء يدلف في الرداء الأجوف للتوحيد.

ها هي الثنوية أيضاً: ثنائية التناقض الذاتي والإلّهي في السماء يعني ثنائية الأرض. . ثنوية العالم. . ظله. . ثنوية المجتمع أي إلّهين في الوجود. . ثنائية الإنسان. . القوم والغرباء، الآريين والنجسين، الإيرانيين واضدادهم (غير الإيرانيين)، الاثينيين

(١) كان القساوسة يبيعون «أراضي الجنة» بيعاً رسمياً.
(٢) «اغنام الله» [أو نعاج الله] يعني الناس.
(٣) النص من حافظ (ذكر المؤلف بيتاً من شعر حافظ).
(٤) عنوان كتاب جيد جداً لمؤلفه «كاز انتزاكيس» اليوناني ترجمه [إلى الفارسية] محمد قاضي المفكر «المترجم».

والطرواديين، اليونانيين والبرابرة، العرب والعجم، الأسود والأبيض. . يعني «وحدة القوم» لا «تعدد الطبقات». . يعني وحدة الدم بين مصاصي الدماء وضحاياهم. . يعني: لا «أنا» ولا «أنت» الحقيقيان وإنما «نحن» المزيفون.

قميص «التوحيد العنصري» علىٰ جثة التعدد الطبقي يعني: أنا «العبد» وأنت «المولىٰ» كلنا أعضاء بعضنا البعض. .

ثنوية الوجود تبرر ثنوية العيش في الحياة وتقدّس مراتب السادة والعبيد، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، والروحاني والجسماني، والسعيد والشقي. . ثنائية سرمدية أزلية للإلّه والعالم. .

والآن إلّه واحد بيد أنه. . أحول! هذا هو النتاج الذي صورته أيادي حواريي النبي، ومصدري الفتاوى الفقهاء، ومفسري الكتاب، وحماة السنّة، ورواة الحديث. . كل حديث بدينار. . تسعيرة الخلافة. . خلافة الله في الأرض. . أبو الدرداء[١] حكيم الأمة. . أبو هريرة نديم النبوة (يروي أربعين ألف حديث). . . هؤلاء هم ورثة الروحانيين في كل الأديان والأزمان منذ القديم وعلىٰ مدى التاريخ. . .

هو ذا التثليث الأبدي الخالد. . دين الآلهة الثلاثة: الأب

---

(١) أبو الدرداء (عويمر بن مالك) (ت عام ٣٢هـ/ ٦٥٢م): صحابي خزرجي أنصاري من رواة الحديث. قاضي دمشق.

والإبن والروح القدس[١]، الملأ والمترفون والرهبان[٢]، كسرى والدهاقين[٣] والموابدة... الشركة العامة للثروة والقدرة والتضليل «زر وزور وتزوير»، السياسة والاقتصاد والدين.. النظام الحاكم علىٰ البشرية منذ فجرها الأول... المثلث المشؤوم الذي دفن فيه كل الأنبياء الصادقين الأبرار... طلسم «العبودية» و«النهب» و«التضليل».. عقال يكبل مقاديم التاريخ.. مذبح الحرية والمساواة والوعي.. مقبرة العواطف والشعور والإحساس والحب والإيمان والأخوة بين بني آدم.. مثلث «الشفرة، الذهب، المسبحة»... كان الأول يمسك بجماجم الناس وينزح الثاني جيوبهم ويهمس الثالث في آذانهم بوداعة وحنين وحكمة وحرقة مواعظه:

«أصبر يا أخي.. حافظ علىٰ فراغ جوفك من الطعام لتلمع فيه المعرفة.. دع الدنيا لأهلها... يا أخي عمّر دار آخرتك..

---

(١) تثليث المسيحية «Trinité» تعني: الله واحد والواحد ثلاثة والثلاثة واحد. الله «الأب» وهو يتجلى في الإبن أحياناً «المسيح» وفي «روح القدس» أحياناً أخرى. واعتقد أنا أن التثليث لا بدّ أن يكون في جميع الأنظمة الطبقية المتطورة، حتى لو كانت بظاهرها أدياناً توحيدية «مثل المسيحية» أو ثنوية «مثل الزردشتية» وذلك لأن وحدة الطبقة الحاكمة في هذه المرحلة تتجلى في ثلاثة أبعاد: السياسة، الاقتصاد، الدين.

(٢) المصطلحات القرآنية في الأبعاد الثلاثة للطبقة الحاكمة هي:

الملأ: السواد الأعظم، كثرة تملأ العين، الأشراف (حواشي فرعون في مقابل موسىٰ). المترف: مغرور يختال في مشيته، يرى نفسه حراً من كل قيد لما يمتلكه من ثروة طائلة، حمار يحمل أموالاً. الرهبان أو الأحبار؛ رجال الدين في اليهودية والمسيحية، القاعدة الاجتماعية لتثليث الدين.

(٣) دهقان في الفارسية القديمة تعني «الاقطاعي» لا «المزارع».

ماذا يعني التدبير مع جريان قلم التقدير؟! ولكل فرد نصيب فلا تفكر فيما أُعطيت وما مُنعت وكن على كل حال من الشاكرين.. الخير فيما وقع.. والدنيا دار ابتلاء ومحنة وفقر وذلة للمؤمن.. إجعل جوعك سبباً لغفران ذنوبك...».

مثلث امتطى ظهور العباد وأحكم قبضته على أعناقهم.. قاعدته «أشباه الملالي» وساقاه الآخران: «السادة والعبيد ـ الخواجة والخان» ثلاثتهم أقرباء الخالق، المنتجبون من خلقه... الرعاة المأمونون، خوّلهم الله رعي «نعاجه»...

أحدهم: قبس الله ونوره أو ابنه وقد يكون ذاته أحياناً... مهمته رعاية «الرعية»[1] وسياسة «ترويض» الخيل المتمردة[2]، التي ترفض السرج ولا تستسلم للجام ولا تعطي ظهرها للراكب... مظهر الجبروت والملكوت وسيماء الحق في غضبه وسخطه وانتقامه...

والآخر: فيه قدسية الحق... صاحب روح القدس، الآية العظمى لرحمة إلّه السماء وروحانيته في عبيد الأرض... الوسيط بين الخالق والمخلوق..

وذاك الآخر: وسيط الرزق الرباني، بيده مفاتيح «كليدار» خزائن الله والأمين على أرزاق «الأنام كالأنعام»[3].. يعني أنهم

---

(١) «الرعية» مصدرها «الرعي» بمعنى رعي الأغنام.

(٢) السياسة: التربية والترويض وزجر الفرس الصغير ليعطي ظهره للركوب.

(٣) تثليث خاص في التوحيد!

بذاتهم لا يملكون شيئاً والملك كله لله! الدين لله، والقدرة والسلطان لله، والثروة لله.. وما هؤلاء إلاّ منفذون يباشرون العمل باسم الله ونيابة عنه.. إنهم آلات وأدوات تنفذ إرادة الحق في خلقه[١].

أي حق؟

حق ذوي الحق.. يعني إلّه التاريخ الخالد في كل مكان... الإلّه البعيد القابع وراء السماء.. إلّه أرباب الأرض.. إلّه دين الشرك، الدين الحاكم على التاريخ وعلى معابد التوحيد أيضاً! إلّه «القوم» الذي يعبد ذاته، عدو الغرباء، يشمئز من «البرابرة» و«العجم» و«الاسراء» و«المسودة وجوههم» و«النجسين» و«العبيد» و«الجياع» و«المهزومين» و«المستضعفين» و«المضطهدين» و«أعقاب يافث وحام».. فهؤلاء جميعاً نتاج «اهريمن» وقد يكون فطرهم من مؤخرته.. هؤلاء جميعاً خلقهم «زروان»[٢] الظلمة...

(١) منطق بني أمية والعلماء المرتبطين بالجهاز الحاكم حيث وضعوا نظرة كونية دينية فلسفية اخلاقية للدين تحت غطاء المعارف الإسلامية والتفسير والحكمة، ومن العجب أن هذه الأفكار الموضوعة أثرت في المسلمين إلى الحد الذي جعلتها عاملة ـ نسبياً ـ في الشيعة الذين يعتبرون خصوم سياسيين واعداء ألداء لهذا النظام، انها قصة عجيبة مؤلمة!

(٢) «زروان الظلمة» و«زروان النور» ذاتان أزليتان [إلّهان] في النظام الثنوي المانوي، الزروانيون هم الذين يعتقدون بزروان إلّه الزمان المسمى باليونانية «Chron» وبالعربية «الدهر» وفي نهج البلاغة يصرح أمير المؤمنين أن «الدهر»، إسم من أسماء الآلهة. تقسيم «زروان» إلى ذاتين مستقلتين «خير وشر» «نور وظلمة» يدل إلى أن المخلوقات من النور مصيرها إلى خير، والمخلوقات من الظلمة مصيرها إلى شر، وهذا مصير محتوم لا يتبدل ولا يتغير، مصير جبري.

ولا جرم فهم الملعونون أبداً، وجوههم مسودة وذواتهم قذرة منذ الأزل، مقيدون بسلاسل الشقاء و«القدرة»، مطرودون خاسئون بحكم «القضاء»، محرومون من النبل وطهارة الذات والشرف منذ عالم الذر[١].. منذ «صبح ألست؟»[٢]، الإلّه.. سلطان أعتاب السماء تحفه حشود من الآلهة الصغيرة والكبيرة، أعمى العينين، أصم الأذنين، بعيد المنال، غاص قلبه بالحقد والطيش والبطش، جائع وجوعه مدهش، غاضب وغضبه مهول، خائف من يقظة الإنسان ووعيه، هارب من النور في الأرض، دمية بلا إرادة يلعب بها جلاوزته، شفعاؤه، سماسرته: أي أرباب التاريخ الثلاثة، وتحت ظلاله في الأرض: الآلهة الصغار والسماسرة والوسطاء والأقرباء والمقربون والجلاوزة والجلادون والسحرة وقطاع الطريق والناهبون والشفعاء والخلفاء والوكلاء.. كلهم ذئاب غادرة، ثعالب ماكرة، جوارح تنهش الجثث، فئران تكتنز

---

(١) عالم سابق عالم الخلق، تكون فيه الموجودات على شكل ذرات. (قد يكون تعبيراً عن الفطرة والجوهر الحقيقي للأفراد).

(٢) في هذا العالم خاطب الله بني آدم جميعاً فرداً فرداً ـ من وجدوا ومن يوجدون فيما بعد ـ قائلاً: «الست بربكم قالوا بلىٰ» ثم خلقهم وهذا الميثاق الذي عبّر عنه الإمام علي عليه السلام أعمق تعبيره «ميثاق الفطرة» يدل على أن الإيمان بالله موجود في أعماق الفطرة البشرية، والانحرافات ومشاغل الحياة والتضليل تنسي الإنسان ذلك الميثاق، فيأتي دور أنبياء التوحيد في تذكير الناس حيث إنهم لم يوجدوا الإيمان بالله ولم يعلموه للبشرية إنما يذكرونهم وينبهونهم من غفلتهم عن ذلك الميثاق، ولهذا تجد القرآن يؤكد تأكيداً ملحاً على كلمة «الذكر» ويعتبر رسالة النبي الكبرى «فذكّر إنما أنت مذكّر». (المؤلف).

الذهب، قراد يمتص الدماء.. أمسكوا جميعاً بخناق الناس وركبوا ظهورهم، ونشروا لهم الفخاخ علىٰ كل المعابر، وكبلوا أعناقهم بأصفاد العبودية وألجموا أفواههم بلجام الطاعة، وألهبوا ظهورهم بسياط «الشرع»، وداهموا القرى بخيول «الجهاد»، وأغاروا على البيوت بمطايا الزكاة، ونفثوا في الأذان أوراد النوم وفي الأرواح نفثات الزهد، وصبوا علىٰ الأديان إكسير «المسخ»، ومرّروا الأنبياء علىٰ سيوف العناد واللجاجة، وختموا علىٰ نواصي العباد بختم الذلة الأبدية.. وأشاعوا الخرافة في كل زمان، ونثروا بذور النفاق في كل أرض، وكبتوا الصرخات في كل الحناجر، ورفعوا أذان الشرك في مآذن التوحيد، وضللوا الآخرين بلباس «القداسة»، وحاكوا حبال الأكاذيب بلسان الصدق، وأجبروا الناس علىٰ طاعة المخلوق باسم طاعة الخالق، وارتكبوا فعال «أهريمن» باسم «أهورا»، وزجوا ظلمات الكفر في نور الإيمان، وزيفوا الحقائق تحت مظلة «تعظيم الشعائر»، وأقاموا الكنوز على آلام الناس، واستلوا أثقال العلم من افرازات الجهل المخيم علىٰ الأمة، وملأوا جيوبهم من فقر العوام، وزادوا بركاتهم من جوع الآخرين وخواء بطونهم، وخوّفوا الناس من ارتكاب الذنوب فاكتسبوا العصمة، وجمّدوا الأمة فأخذوا يكرون ويفرون، وامتلكوا ناصية السيادة من عبودية العبيد التي كتبها لهم «مقدّر العبودية»، وارتدوا رداء العزّة والجلال المنسوج من ذل المستضعفين...

أقعدوا «اللات» بسيماء الله على منصته الشامخة في ديار ثقيف، واحتوش عباده وخدامه الأقدمون عروة بن مسعود وجعلوه غرضاً لنبالهم[١] فوق مرتفعات الطائف. . .

أعادوا «مناة» إلىٰ غفار مرة أخرى ونفوا جندب بن جنادة[٢] رائد غفار[٣] بتهمة القبس الذي أخذه من جذوة حراء ليضيء به ظلمات الجاهلية في قبيلته. . نفوه إلى حيث الوحدة والغربة والموت الأسود في متاهات البيداء. . . نفوه بفتوى «كعب احبار اليهود»[٤]

---

(١) عروة بن مسعود كان من رجالات ثقيف، عاش في الطائف وعبد اللآت، ثم اسلم وبعثه نبي التوحيد ليدعو قبيلته إلىٰ الإسلام فصعد علىٰ مرتفعات الطائف ودعا ثقيفاً للإيمان، وكانت ثقيف معروفة بعنادها وتعصبها بيد أنه دعاهم إلىٰ التوحيد ونبذ الأصنام والدخول في الإسلام، وناداهم نداءً مخلصاً حاراً بحرارة الإيمان فأجابه قومه بالحجارة والنبال، وبقي صامداً صارخاً فيهم يدعوهم وهم يرشقونه بالحجارة والنبل حتى قضوا عليه فاسكته الموت. (المؤلف).

(٢) الإسم الأصلي لأبي ذر الغفاري.

(٣) الرائد: من يرسل طليعة للقبيلة طلباً للماء والكلأ والمنزل المناسب فيجدها ثم يعود مخبراً أهله وقبيلته ليدلهم علىٰ ذلك.

(٤) الحبر بالعربية: المداد تكتب به والمحبرة الدواة. حبر بفتح الحاء وكسرها العالم الكبير والجمع: أحبار تطلق علىٰ رجال الدين اليهود وكان كعب الأحبار من رجال الدين اليهود المبرزين اسلم بعد النبي، فقرّبه عثمان حيث كان المجتمع الإسلامي بعد لم يعهد ظاهرة «رجال الدين» بينما كان نظام عثمان (نظام الثروة والقدرة وحكومة البلاط والمترفين) بحاجة ماسة إلىٰ هذه الأدوات والآلات لتعمل في الوسط الديني، من هنا كوّنت له شخصية في البلاط حتى أصبح «كعب الأئمة وكعب الأصحاب» وأسند إليه مقام «روحاني الإسلام» يصدر الفتاوىٰ ضد أبي ذر الصحابي الكبير وخاصة الرسول والمقرّب عنده! (المؤلف).

وفرمان المتقمص لحكومة الله(١)، وتنفيذ طريد رسول الإنسانية(٢). . .

عاد أكثر من ثلاثمائة صنم من أصنام جاهلية(٣) الشرك إلىٰ كعبة إبراهيم، وانتصب كل واحد منها مزهواً بنصره، فخوراً يتباهى بموقعه الذي استرجعه، يبتسم متهكماً، يبتسم ابتسامة الرضا بالنصر علىٰ البيت المهجور، بيت الأحزان، بيت المقبرة الدامية المنطفئة، بيت البطلين الذين هشماها من قبل، وريثي إبراهيم(٤).

---

(١) عثمان: أول من بدّل الخلافة إلىٰ سلطنة وملكية، قرب أقرباءه ووزع المناصب علىٰ أشراف الأمويين، وأوجد السجون السياسية والنفي ولم يكن من قبل في الإسلام، أوجد البلاط، وضع الحجاب، أحاط نفسه بحماية وحرس، جعل للبلاط «روحانياً رسمياً» من رجال الدين، اعتبر الخلافة منحة إلّهية وهو مختار الله لها، علىٰ العكس من عمر وأبي بكر حيث كانا يعدان خلافتهما انتخاباً من الأمة (وحين لا يكون للأمة دور في انتخاب الخليفة فمن الطبيعي، إذن ـ أن يقوم الله بهذا العمل!!!) ولهذه الأسباب هجم المضطهدون المسلمون من مصر والبصرة و. . . وحاصروه وطالبوه بالإستقالة عن الخلافة وإلا قتلوه فأجابهم: «إن الخلافة قميص البسنيه ربي فكيف أخلعه بأمركم؟».

(٢) مروان بن الحكم، سافل طرده الرسول ﷺ وأباه إلىٰ الطائف، ولم يجرؤ أبو بكر وعمر علىٰ إعادته إلىٰ المدينة رغم الوساطات المكثفة التي قام بها أقرباؤه، وكلما جاءهما وسيط قالا: لا ندخل إلى المدينة من أخرجه النبي ﷺ منها، أرجعه عثمان واتخذه وزيراً، وطرد أبا ذر من مدينة الرسول ونفاه إلىٰ الربذة، ومنع علياً من توديعه فاستهان به عليّ وأبعده جانباً ثم خرج يودع أبا ذر. (المؤلف).

(٣) كان في الكعبة ثلاثمائة وثلاثون صنماً ونيّف، وكان لكل قبيلة نسخة عن صنمهم الموجود في الكعبة، وبهذا كانت الكعبة تمثل جميع العرب وتبرز نظام التفرقة والتفكك القبائلي والطبقي والتمايز الأسري في المجتمع العربي.

(٤) بناءً على الرواية الشيعية فأن علياً صعد علىٰ منكب النبي عام الفتح ورمى بالأصنام إلىٰ الأرض فهشمها، والآن أودع محمداً التراب في زاوية بيته في المدينة التي فقدت حيويتها بعد أن انتقلت العاصمة الإسلامية إلىٰ دمشق القصر الأخضر، وبات عليّ غارقاً بالدم في ظهر الكوفة (النجف حالياً).

أخذت هذه الأصنام تلم شتات أنصارها وتجمع فلول خيلها ورجالها، تدعوهم من أقاصي الصحراء، بل من أرجاء الأرض وأرجاء التاريخ، تدعوهم للطواف في البيت..

عاد رجال الحجابة والسقاية والرفادة[١] إلىٰ مزاولة أعمالهم، واجتمع الكهنة وخدّام بيوت الأصنام وأولياء المعابد حول بعضهم، وها هم البراهمة والموابدة والفريسيون والحاخامات والقساوسة والبطارقة والبابوات والرهبان والسحرة ومطلقو الفتاوى والأحبار...

أحدقوا بورثتهم: كعب الأحبار وأبي موسى وأبي هريرة وأبي الدرداء وشريح، وكل واحد منهم يمسك بيده «المصحف»[٢] وبالأخرى جمجمة «رافضي»[٣] متمرد على «سنن» التاريخ.

أفواج جرارة من رجال الدين في كل الأديان، أديان الحق والباطل، الشرك والتوحيد، الكفر والدين، ليس ثمة فرق فالكل يواجه خطراً مشتركاً...

---

(١) الحجابة والرفادة والسقاية مناصب رسمية خاصة بقريش، كانت مناصب اعتبارية تفتخر بها قريش، الغاها النبي إلاّ السقاية التي كانت تعد عملاً مهماً في تلك الأيام والعصور حيث كان الحجيج بحاجة ماسة إلىٰ الماء.

(٢) المصحف: القرآن.

(٣) اطلق جهاز الخلافة لفظ «رافضي» علىٰ الشيعة، والرفض يعني الترك والامتناع، يقصدون بذلك أن الشيعة تركوا «محبة الشيخين» وشقوا عصا الإسلام وجماعة المسلمين، وبالمقابل فهم سنة أي أنهم أهل السنة والجماعة ومحبة الشيخين! وهذا الرفض ليس رفضاً لسنة الرسول، إنما هو رفض لسنة التاريخ، سنة أولئك النفر الثلاثة!! (المؤلف).

رجل خرج على الإسلام «دين الاستسلام»[١]، رجل من بقايا ذرية الرعاة الثائرين، الذين أضرموا النيران في الفلوات والقفار وأهاجوها، واقتحموا الظلمات في ليالي التاريخ فزعزعوا وسنة عبيد الأرض وازعجوا أرباب التاريخ[٢].

عاد أبو جهل، وأبو سفيان، وأمية بن خلف[٣]، هؤلاء المتخصصون بتعذيب عمار وسمية وياسر وبلال وخباب[٤]،

---

(١) الإسلام من التسليم وهذا المعنى احتفظت به أجهزة الخلافة أكثر من عصر الرسول بيد أنها غيرت ما يلي التسليم ففي السابق كان التسليم «لله» وفيما بعد أصبح التسليم «لخليفة الله»! (المؤلف).

(٢) هذه نظرية اشرت إليها في «تاريخ الأديان» و«إسلام شناسي» فصل «سيماي محمد» وخلاصتها: ان أنبياء الهند والصين وإيران وحكماء اليونان كانوا جميعاً من الأشراف والمترفين الكبار وطبقة الحكام، بينما كان الأنبياء الحقيقيون الإبراهيميون رعاة كما قال النبي: «ما من نبي إلا قد رعى الغنم» (ابن هشام) وأثبت ذلك التاريخ أيضاً إلاّ بعضهم كانوا أصحاب صنعة «نوح كان نجاراً وداود كان فناناً يصنع الدروع والحصران». وحتى نبينا أيضاً كان يرعى الغنم لأهل مكة. (المؤلف).

(٣) أمية بن خلف مولى بلال، عذب بلالاً تعذيباً مروعاً، أصر بلال على قتله في معركة بدر، ومانع عبد الرحمن بن عوف، وكان مسلماً ولكنه كان شريكه في الطبقة الارستقراطية، واحتال عبد الرحمن ليخلص أمية بحجة أنه أسره وابنه فلا بد أن يكون معه وبهذا يفتح له طريق الفرار من ميدان المعركة، بيد أن بلالاً كان يصرخ: «أمية... أمية... رأس الكفر أمية... لا بدّ أن أقتل أمية» حتى قتله وافشل حيلة عبد الرحمن. (المؤلف).

(٤) سمية إمرأة زنجية كانت في بداية الأمر أمة في مكة، وياسر عربي من اليمن وعمار ولد هذين الزوجين، اسلمت هذه الأسرة وليس لهم في مكة ظهر ولا معين، فعذب أفرادها أبو جهل أشد تعذيب حتى استشهد ياسر وسمية وعمار ينظر إليهما.
بلال: عبد حبشي أسلم، كان مولاه أمية بن خلف الذي عذبه أشد تعذيب فصبر له بلال صبراً عجيباً حتى أمر النبي أبا بكر فاشتراه من مولاه وحرره.
الخباب بن الإرث: صحابي مات تحت التعذيب. (المؤلف).

وغيرهم من العبيد المرتدين عن دين الآباء[١] والعصاة المتمردين والروافض لسنة الإسلام . . .

عادوا بفعل جهود الصحابي المعروف عبد الرحمن بن عوف الصحابي المعروف للنبي الأمي ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ[٢] وتدبيره وسياسته، فسارعوا إلىٰ مكة «المفتوحة» التي استعادت «أمنها» القديم . . . سارعوا إلىٰ الأرض التي كانت «بلداً حراماً»[٣] للجميع إلاّ الناس، البيت الآمن الذي رفع قواعده إبراهيم، بيد أنه كان دائماً موطن الأصنام الثلاثة الكبيرة في التاريخ . . .

---

(١) اغلب الذين آمنوا بالنبي في بادىء الأمر من المحرومين والمستضعفين ضحايا الارستقراطية والاسترقاق والتعصب القبلي القرشي، ولهذا كان كبراء العرب يستهزؤن بالنبي ويستهينون بالذين آمنوا به ويعبرون عنهم كما حكى ذلك القرآن بـ «اراذل الناس» ولما كان الدين والارستقراطية شيئاً واحداً في رأي الطبقة الحاكمة لهذا كانوا يسمون من يؤمن بالإسلام «صابئاً» ويقولون: «صبأ فلان من الدين»!!

(٢) الأمي صفة للنبي، أختلفوا في معناها فقال بعضٌ إنها مشتقة من «أم القرى» إسم مكة وأمي يعني أنه مكي، وقال آخرون (وهم الأكثر) الأمي يعني من لا يقرأ ولا يكتب (انظر «تفسير نوين» لمحمد تقي شريعتي، ومقالة الشيخ المطهري في كتاب «محمد خاتم پيامبران ج٢» إلا أني اعتقد أن كلمة (أمي) تعني من انبثق من بين الأمة وعامة الناس، من بين الأكثرية أي أنه ليس من الخواص والنخبة والطبقة الممتازة، لأن لفظ «الأمي والأمة والإمام» تشترك بجذر واحد. وهذا المعنى يحمل ضمناً معنى عدم القراءة والكتابة، لأن التعلم كان من مميزات الطبقات الراقية كما يطلق اليوم لفظ العوام على عامة الناس بمعنى أنهم غير متعلمين ودارسين. (المؤلف).

(٣) الأشهر الحرام أربعة شهور يحرم القتال فيها، و«البلد الحرام» مكة ويحرم فيها القتال والاعتداء بل حتى اصطياد الحيوانات أو اقتلاع النباتات، «بلد آمن»، ولكن حرمة هذا البلد وأمنه كان في تاريخ الإسلام دائماً سوراً لمصالح الحكام والتضليل وهذه الحرمة مصونة من قبلهم ما دامت لا تتضارب مع مصالحهم. (المؤلف).

فرعون موسىٰ، نمرود إبراهيم، قيصر عيسى، أنوشروان مزدك[١]، هيرودس يحيىٰ، مترفو محمد. . . انبعثوا جميعاً من أقبية التاريخ المظلمة المعتمة الهامدة وتسابقوا إلىٰ قصورهم المهولة؛ القصور التي شيدت أخيراً بأسلاب الجهاد ونهب الزكوات، وأخذوا يعبون خمرة النصر في جماجم الشهداء من ورثة سنّة هابيل، وتعالىٰ نداء النصر «الصلاة جامعة ودوى في أرجاء المعمورة صارخاً بالوارث الكبير في قصره الأخضر في دمشق[٢] الذي بناه علىٰ عظام أبي ذر.

«حينما يلبس الظلم رداء التقوى تولد أعظم فاجعة»[٣]!

ألم يشهد التاريخ دائماً انتقال هذا الرداء من «المعابد» إلىٰ «القصور»؟!

واليوم زحفت المصاحف في صفين علىٰ أطراف بيارق

---

(١) مزدك: داعٍ فارسي ظهر في أواخر القرن الخامس. دعا إلى إصلاح ديني وثورة إجتماعية. نتج عن دعوته اضطرابات وفتن فأعدمه كسرى أنوشروان. (المصحح).

(٢) أول من بنى قصراً في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، اهتم معاوية ببنائه غاية الاهتمام، واستخدم في بنائه معماريين من الروم وإيران وكان يشرف عليه شخصياً ويحضر هناك يومياً يطيل النظر إليه تلذذاً، وكان أبو ذر يحضر عنده في كل يوم ـ وكان يومها منفياً في الشام ـ ويصرخ فيه: «ان كان هذا من مالك فقد اسرفت وان كان من مال الناس فقد خنت» سمي «القصر الأخضر» نسبة إلى لونه. (المؤلف).

(٣) «مذهب در شرق وغرب» ـ [الدين في الشرق والغرب] لـ «رادها كريشنان».

معاوية لتحارب علياً[(١)] . . اختطفه سيف «القداسة» من محراب العبادة مع انفلاق عمود الفجر وارتفاع صوت الأذان[(٢)] . .

---

(١) صفين حرب وقعت بين عليّ ومعاوية، وكان جيش عليّ على أعتاب النصر النهائي، فواجهوه بحيلة تضلل العوام والضعاف قلبت الحرب لصالح اعداء الدين الحقيقيين. وكانت الخطة لعمرو بن العاص، وزير معاوية، حيث أصر بوضع المصاحف على أطراف الرماح ورفعها وسط الجيش، ثم أخذ الجيش ينادي ـ «الله الله بالدماء، نحن أبناء أمة واحدة فلا يقتل بعضنا بعضاً تعالوا إلى القرآن نجعله حكما بيننا وبينكم، فتراجع جيش الإمام عليّ على حين غرة ونادى جماعة من «البهائم» المقدسين «لا نشهر سيوفنا على القرآن. . فقال لهم عليّ: انها خدعة، هذه المصاحف ادوات لتبرير الشرك والرذائل وحفظ أجهزة الظلم والجريمة «كلمة حق أرادوا بها باطلاً» أنا القرآن الناطق، غير أن هؤلاء القوم كانت عقولهم في عيونهم فكانوا يعيدون الظواهر والمظاهر والأشياء المقدسة بالباطل، والعصبيات المتجمدة في قوالب محددة، فأنى لهم الإدراك لحقيقة الأمور والتفكير بعواقب المواقف والتدبير في المسائل وتحليل القضايا وحساب النتائج المترتبة على هذه المؤامرات والحيل؟! واجهوا الإمام واعلنوا أنهم سيقتلونه أو يسلمونه إلى عدوه إن هو استمر في الحرب ولم يذعن لحكم القرآن! فطلبوا إليه ان يرسل إلى مالك الأشتر ليترك الحرب! وفي الجهة المقابلة وقفت طائفة أخرى تشترك في نوعيتها مع تلك «البهائم» المقدسة وقالوا: لو رضيت بالتحكيم قتلناك، قاتلهم ما دمت على الحق! لا حكم إلاّ لله.

اضطره أولئك إلى التحكيم وخرج هؤلاء «الخوارج» عليه وحاربوه في النهروان لقبوله التحكيم. وكلا الطائفتين من المتدينين المتعصبين المقدسين المؤمنين المعتقدين الملتزمين حتى كانوا من أشهر الناس بالعبادة [ذوي الجباه السود] إلا أن ثمة نقطة ضعف كانت فيهم وهي «الجهل، وعدم الاحساس بالمسؤولية» وهذا عيب لا اشكال فيه شرعاً!!

طائفة ارادت رعاية حرمة القرآن، وطائفة أرادت رعاية حرمة الآية المباركة «لا حكم إلا لله» وكلاهما عدو لمعاوية! وبين هذا وذاك يصبح عليّ الضحية ومعاوية الفائز.

انظر ما كان يتحمله الإمام عليّ. . لا من الأعداء بل من الأصدقاء. (المؤلف).

(٢) ابن ملجم المرادي من الخوارج المتعصبين العميان الذين يتظاهرون بالقداسة ضرب الإمام عليّ في محراب مسجد الكوفة وهو يؤدي صلاة الفجر. =

والآن ينهمك أرباب الصناعة الدينية من بخارى حتى دمشق بنسج مسوح التقوى الحديثة؛ القضاة، أئمة الجماعة، المفتون، الفقهاء، المفسرون والمحدثون، الحكماء والعرفاء، القراء والزهاد، علماء المعقول والمنقول، حملة العلم الإلّهي حجج الله في الناس، آيات الله في الثقلين، أرباب المنبر والمحراب والمسجد والخانقاه و. . . بل كبار الصحابة وكتاب الوحي وجامعو القرآن، ومجاهدو غزوات نبي التوحيد وجند سراياه. . كلهم جميعاً شركاء مباشرون ـ بصمتهم وكلامهم ـ اشترك الجميع في حياكة أثواب التقديس الجميلة الخلابة، الخلعة التي عجز اسلافهم ـ الحياك الرسميون في أديان السلف ـ عن بلوغ مستوى الأداء والاتقان والمهارة التي قدمها الخلف في التزويق والتنميق، خلعة خلافة إلّه إبراهيم تفصّل على قياسات قامة النمرود[1] . . .

= الخوارج كانوا من الشيعة وخرجوا على الإمام عليّ على أثر التحكيم واتفقوا على اغتيال عليّ ومعاوية باعتبارهما السبب في تفريق الأمة وجرها إلى القتال!! وقتلهما يؤدي إلى وحدة الأمة واستقرار «حكومة الله» على أساس شعارهم «لا حكم إلاّ لله»، وأوكلوا الأمر إلى رجلين (فدائيين) فلم يفلح المكلف باغتيال معاوية واغتال ابن ملجم الإمام علياً، ومن العجب أن هؤلاء الخوارج كانوا حديث الناس في العبادة والورع والتدين، وكانوا يحفظون القرآن ويؤمنون بأن الذنوب الصغيرة تخرج المسلم عن ربقة الإسلام ويحكم عليه بالارتداد (والارتداد اشد من الكفر وحكمه القتل) ولكنهم مع ذلك صاروا ضحية للمؤامرات والدسائس السياسية والتوجيه غير المباشر من بني أمية فقتلوا علياً باسم الدفاع عن التقوى والإيمان والإسلام، وكانت النتيجة لصالح أجهزة الكفر والخيانة والفساد الأموي، وبالتالي أزاحوا علياً عن طريق معاوية!! (المؤلف).

(١) محمد من سلالة إبراهيم وهو وريثه الذي أتم حركته، فالإسلام دين إبراهيم، الملقب بأبي الأنبياء، الذي وضع أسس حركة التوحيد، وإبراهيم ـ كباقي الأنبياء=

هناك نرى البابا القاتل يحتذي نعال صياد الأسماك[(١)]، ونرى

= الإبراهيميين الذين كانوا يواجهون مظاهر القدرة في زمانهم ـ واجه النمرود الذي ادعى الربوبية، وادعاء الربوبية يعني الاستبداد والاستكبار والتسلط واستعباد الناس وبكلمة «أنه ربّ الناس من دون الله» وهذا معنى ادعاء فرعون الربوبية «أنا ربكم الأعلى» فهو لم يدّعِ أنه خالق الكون أو أنه أنكر وجود الله وأثبت نفسه مكانه كما قد نفهمه اليوم.

ما نقرأه في القرآن من وجود نماذج تعبد الرؤساء أو رجال الدين من دون الله لا يعني ما نفهمه اليوم من معنى محدد للعبادة، بل يعني أن كلٍّ من أجبر جماعة على اطاعته اطاعة محضة فقد اضطرهم إلىٰ عبادته وبالتالي ادعى الربوبية، وكذلك كل من اتخذ جماعة أو صنفاً معيناً متكأً، واستسلم أمامهم خاضعاً، وقلدهم تقليداً محضاً، وسلك معهم سلوك العبيد مع أسيادهم، فقد عبدهم واتخذهم ارباباً من دون الله.

أنظر «جامعة شناسى شرك» محاضرات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية في جامعة طهران «قاعدة الإيدلوجية التوحيدية تقوم علىٰ أربعة أبعاد في حياة الإنسان: النظرة الكونية التوحيدية، فلسفة التاريخ، علم الاجتماع، معرفة الإنسان أو الأخلاق التوحيدية» أنظر: درسهاى إسلام شناسى» حسينية إرشاد. (المؤلف).

(١) بطرس المقدس «Saint Pierre» حواري مشهور، كان صياداً يصيد السمك، وهو أول من أسس الكنيسة في تاريخ المسيحية ويعدّ «البابا» الأول، و«البابا» و«بطرس» أو «الشيخ» يؤدون إلىٰ معنى واحد وهو «الأب»، وجميع البابوات الكاثوليك يحذون حذو «بطرس المقدس» ليرثوا مقامه الروحاني وتمثيل الله في الأرض أي مقام المسيح في الأرض.

ويشهد التاريخ علىٰ المجازر التي أقامها بابوات القرون الوسطى ضد الفرق المسيحية لاسيما «البروستانت»، وضد المسلمين خلال الحروب الصليبية، وفي أمريكا وأفريقيا، والشرق الأقصى والشعوب المتخلفة والمتمدنة، كل ذلك من أجل استتباب سلطان الكنيسة، والأمر بالمعروف ومحاربة الكفر وعبادة الأوثان، والدعوة إلى المسيحية دين الروح والنور والحب والمودة والسلام.. لقد فاقت مجازرهم جميع المجازر التي أقامها الجلادون المعروفون في التاريخ البشري من قبيل أتيلا (ملك الهون) ونيرون (الطاغية الروماني الذي أحرق روما) وأشوربانيپال (ابن اسرحدون الذي دمّر طيبة) وجنگيزخان (الفاتح المغولي الذي أخضع جميع=

«أجراس العدل الإلهي» تتدلى في بيت الدموي الذي قتل عشرين ألف مزدكي ورفع شعار «القتل، القتل» في اليمن[١].

طيب.. وماذا نرى هنا؟!

نرى عمامة وريق «الحرية والعدالة ودين الوعي واليقظة» ـ

= الدول بين الصين والبحر الأسود).. وإذا أردنا أن نضيف إلى ملفهم المذابح التي أقامها الاستعمار الغربي تحت مظلة الكنيسة وبمباركتها وتأييدها لوجدنا أنفسنا في جهنم.

حذاء الصياد هذا أصبح قبل كل شيء جزمة في أقدام المستعمرين، ولطخ بدماء الأبرياء والمظلومين والجماهير التي لم ترتكب ذنباً سوى أنها لم تكن من «الكاثوليك». والمسيحية! تعني المحبة، ان يحب بعضنا بعضاً ونضمر لعدونا حباً في قلوبنا، وإذا ضربنا أحد على خدنا الأيمن نقدم له الأيسر!! (المؤلف).

(١) كانت اليمن قبل ظهور الإسلام مستعمرة إيرانية، بعث انوشروان العادل [كسرى] جيشاً لليمن لحمايتها من هجوم الأحباش وكان يتكون من السفلة والسراق والقتلة والمجرمين المحترفين المحكوم عليهم بالإعدام في سجون إيران «گروه سرتر»، بعثهم ليحاربوا الأحباش في اليمن فان مات منهم أحد فقد نفذ فيه حكم الإعدام الصادر في حقه، وإن انتصروا على الأحباش وهزموهم فلهم حق الحياة في اليمن بعيداً عن إيران، وبالفعل فقد هجم هذا الجيش وهزم الأحباش وسيطر على اليمن فأصبحت رسمياً مستعمرة للساسانيين، وكان الملك الساساني يبعث إليها والياً حتى ظهر الإسلام فتحرر اليمنيون.

قيل: إن انوشروان العادل بعث إلى اليمن والياً سفاحاً متوحشاً، وكان من عاداته أنه إذا ركب على صهوة جواده لا يتحرك حتى يؤتى بإنسان ويشق له نصفين فيمر من بينهما!! وجاء في نص الكتاب الذي سلمه انوشروان العادل إلى قائد جيش الإنقاذ! الذي بعثه إلى اليمن:

«أقتل من وجدت من الأحباش في اليمن، كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً شيوخاً واطفالاً وشباباً، شقّ بطون الحوامل من نساء الأحباش واقتل أجنتهن، ومن وجدت في شعره جعدة ولم تعلم أنه من الأحباش فاقتله، واقتل على الظن والتهمة من شككت أنه يميل إليهم بهواه، واقتلهم حتى لا يبقى لهم في اليمن باقية». (المؤلف).

الحركة المضطهدة المحاربة في التاريخ ـ علىٰ رأس وريث «الاستعباد والظلم ودين التخدير» ـ النظام الحاكم في التاريخ.

فرعون، قارون، بلعم، ثلاثة يشتملون خرقة الرعاة.. رداء موسى و... ماذا؟!

هادم بيت موسى من أجل السنَّة الموسوية، إبادة ذرية موسى بعصا موسى المعجزة.

لا أدري ماذا يجري!.. لا أفهم.. فقد اختلطت أوراق التاريخ تماماً وغدا متاهات بلا بداية؛ التوحيد والشرك، العدل والظلم، الكفر والإيمان، الملأ والناس، الله والأصنام، النبي والمتنبيء الكذاب، الدين والسحر...!

طغى دجلة والفرات علىٰ بعضهما واختلطا، فياللعجب من «شط العرب».

الكعبة بيت الأصنام، المساجد بيوت النار لثالوث رب «المال والقدرة والتضليل» «زر وزور وتزوير»، العبيد في ولاية سيدهم الزبير[1]

---

(١) الزبير بن العوام صحابي معروف، مال إلىٰ علي بعد النبي وكان له رحم معه، فأم الزبير صفية بنت عبد المطلب جد النبي والإمام علي (فهو ابن عمة الإمام) ولكنه خدع في أيام خلافة الإمام علي فشارك في تجييش الجيوش وإيقاد النار في حرب الجمل إلىٰ جانب طلحة وعائشة، وقد كان يومها من ذوي الأموال والثروات الطائلة بحيث كان له ألف عبد يعملون ويدفعون إليه أجورهم بناء علىٰ قانون «العبودية»! وهذا يكشف بوضوح سبب ابتعاده عن علي!

ناقشني، ذات يوم، أحد الشخصيات العلمية وكانت له ميول دينية قوية عن فهمي لحركة أبي ذر وأصل «العدالة» عند الشيعة ومعنى «القسط» في القرآن، ومعركة=

أحد العشرة المبشرة بالجنّة[(١)]، نائلة ـ وريثة شيرين وكيلوباترة وسالومة[(٢)] ـ . . نائلة حرم الله ذي النورين عثمان تتباهى بعقدها الذي يعادل ثلث خراج أفريقيا.

= «قابيل وهابيل» التي تمثل صراع الملكية الشخصية (قابيل) وغيرها من آرائي الشخصية، وقال: إنني واقع تحت تأثير الإيديولوجيات الجديدة التي تحارب الطبقية، وإلاّ فهذه القضايا أخلاقية وإنسانية وليست اقتصادية وطبقية، ثم ساق لي الآية تلو الآية والحديث تلو الحديث والقصة التاريخية بعد الأخرى، وأخذ يستدل استدلالاً علمياً ومنطقياً وأنا ساكت لا أجيب، وبعد أن انتهى من استدلاله العلمي المفصل قلت: سماحة الاستاذ الدكتور كم هو دخلك الشهري؟ فوجم ولم يجب، فأجابني صديقه ضاحكاً: مجموع ما يستلمه من هنا وهناك إضافة إلى مرتبه الشهري ثلاثون ألف تومان! فقلت: نعم، لك الحق! (المؤلف).

(١) عشرة أفراد بشروا بالجنة بناء على حديث روي عن النبي، وهذا الحديث من موضوعات أهل السنّة ولا سند له، وذلك لأنه لا ينتظر صدور هذه البشارة من النبي لغير المعصومين أولاً، ولأن أكثر الأشخاص المبشرين تفوح منهم رائحة «السياسة» أكثر من رائحة «السنة»، وأحدهم الزبير المولى الذي أثار حرب الجمل ضد عليّ.

ثم كيف يبشر النبي هؤلاء العشرة بالجنة والحال أن بعضهم من أصحاب الجحيم قطعاً بناءً على الموازين الدينية، والنبي يصرح بأنه لا يعلم الغيب ويقول: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ (الأنعام/ الآية ٥) ولو كان يعلم الغيب فكيف يبشر بالجنة من لم يكن من الناجين طبق الموازين؟! أولئك النفر الذين خرجوا على إمام زمانهم وقاتلوه في حرب الجمل وتسببوا في قتل ما يقارب من عشرين ألف مسلم كان بينهم الصحابة الاتقياء الصالحون. (المؤلف).

(٢) شيرين: ملكة مسيحية إيرانية زوجة «خسروپرويز» ملك إيران معشوقة فرهاد مهندس إيراني.

كيلوپاترة: ملكة مصر عشقها أنطونيو وهام بحبها وانتحرت بعد هزيمة عشيقها في اكسو (٣٠ ق.م) بلدغة أفعى.

سالومة: امرأة غانية كانت سكرى في احدى الليالي فطلبت من هيرودس أن يحضر لها رأس يحيىٰ بن زكريا (يوحنا المعمدان) فاستجاب وأحضره أمامها.

كعب ـ كبير رجال الدين اليهود ووريث الموابدة والبراهمة والقساوسة والسحرة في مذاهب الشرك ـ تربع إلى جانب عثمان علىٰ منصة الافتاء في دين التوحيد، وعثمان وريث محمد تربع علىٰ عرش كسرىٰ وقيصر[(١)]، ومروان ـ طريد محمد ـ نديم عثمان، وأبو ذر ـ كهف المظلومين وأنيس محمد ـ أضحى طريد عثمان و . . .

ماذا؟!

الله إلّه إبراهيم يؤدي دور بعل وباقي الأصنام[(٢)]، وزيوس في

---

(١) كسرىٰ: معرب «خسرو» لقب الملوك الساسانيين. قيصر: معرّب سيزار لقب امبراطور الروم، وهما نظامان يمثلان قوى الشرق والغرب وحكومتان تقابلان نظام الحكومة الإسلامي «الخلافة أو الإمامة».
عثمان أول حاكم إسلامي أدخل مظاهر الحكم الكسروي والقيصري في الخلافة الإسلامية، كان له وزير معين رسمياً هو «مروان بن الحكم» وأوجد مقاماً رسمياً لرجال الدين «روحاني الخلافة» وهو «كعب الأحبار» كما كان له حواش ومقربون وشبه بلاط (أكمله معاوية فيما بعد) وجماعة خاصة مكلفة بحمايته (لم يكن لعمر حماية ونرى قاتله يجرح اشخاصاً آخرين ويتمكن مع ذلك من الهرب)، وهو أول من أوجد السجون السياسية في الإسلام، وأول حاكم ألقى القبض على خصومه السياسيين ومنتقديه في القضايا السياسية والاجتماعية ونفاهم، بل حتى التجأ إلى إتخاذ أساليب التعذيب. وأول من حصر المناصب السياسية في أهله وقومه. وأول من قطع عطاء خصومه السياسيين من بيت المال. وأول من استغل بيت مال المسلمين في مصالحه الشخصية وخدمة أفراد أسرته الخاصة وروّج الرشوات السياسية.
والخلاصة: كان عثمان أول من أحدث كثيراً في الخلافة وأكثر من حاز لقب «الأول» في كثير من الموارد المبتدعة، وحاكم كهذا يسمى خليفة راشداً. أما الإمام الحسين! فلا!

(٢) يقصد أن إلّه إبراهيم كما صوّره اعداء الدين أضحى يؤدي دور بعل وباقي الأصنام.

رداء «فره إيزدي»[١] يظل على رؤوس أشراف قريش[٢]، ورب

(١) النور الإلّهي الخاص بالملوك.

(٢) الجاهلية عصر الأرستقراطية، عصر «الأشراف» عصر أصالة العرق والنسب، فالعرب أفضل من العجم، وقريش أفضل من قبائل العرب الباقية قاطبة.

وهذه النظرة حكمت في السقيفة أيضاً، فالأنصار اجتمعوا لانتخاب الخليفة بعد الرسول «سعد بن عبادة» ولكن أبا بكر احتج عليهم بقول الرسول «الأئمة من قريش» (مقطع من حديث ورد في المصادر الشيعية وبعض المصادر السنّية يحدد فيه الرسول الأئمة الإثني عشر لدى الشيعة، وليس المقصود منه أن ملاك الخلافة هو مطلق الانتساب لقريش)، فأبو بكر رضي بفكرة الانتخاب لخليفة الرسول، لكن بشرط أن يكون المنتخب رجلاً من قريش، الأمر الذي أخرج الأنصار عن ساحة الترشيح لأن مرشحهم «سعد بن عبادة» أوسي مدني، وعيبه الوحيد أنه لم يكن قرشياً وإلاّ فالأكثرية (الإجماع) كانت معه لأن المهاجرين كانوا أقلية ضئيلة في المدينة بينما كانت الأصوات لصالح سعد كثيرة من قبيلتي الأوس والخزرج، فحرم سعد من الخلافة لأنه يفقد «النسب الشريف» ليس إلاّ.

وبناءً على هذه النظرة أصبحت ديمقراطية «البيعة والشورىٰ والاجماع» ديمقراطية «ارستقراطية»! تماماً «كالكوسج عريض اللحية» وذلك لأن الديمقراطية ضد الارستقراطية والارستقراطية ضد الإسلام ولا تنسجم معه بحال، بغض النظر عن الاتجاهات والفرق والآراء سنّية كانت أو شيعية بعد أن أكد الإسلام كل التأكيد علىٰ أصالة التقوى والمساواة ووحدة العنصر والمنشأ الإنساني.

ومن هنا قلنا إن الإمامة وتنصيب عليّ في الخلافة بالشكل السائد في أذهان الشيعة ليس من التشيع العلوي في شيء لأن ملاك الإمامة ليس النسب والقرابة والسيادة العشائرية والعنصرية، بل أن ما رشح علياً للإمامة هو القيم والفضائل الإنسانية التي انطوى عليها شخصه وجعلته أهلاً لأن يضعه الله ورسوله في هذا المنصب، فلا علاقة للنسب أو القرابة أو المصاهرة بهذا الأمر، نعم إن وصية النبي معلولة لإمامة عليّ وليست علّة لها. هذا ما قلته وسأبقى أقوله حول الإمامة في التشيّع العلوي، ولن اتراجع عنه تحت ضغط الاتهامات والشتائم والضجيج والمؤامرات وإثارة العوام ضدي وتكفيري من قبل الجماعة المعروفة، وإن كانوا يحرّفون ما أقوله لصعوبة إدراكه نسبياً على قليلي الفهم من العوام فينسبون لي ما يشاؤن ويتهمونني في آرائي حول الإمامة والتشيّع. . فليقولوا ما يشاؤون وليتهموا ما استطاعوا فان كان=

المستضعفين[١] ينطلق من فوهات أسلحة الأرباب المستضعفين (بالكسر)، الرب الذي وعد المستضعفين أن يمنّ عليهم ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين[٢] والآن. . .

ماذا أقول؟!

مع كل صرخة تكبِّر الله يسقط رأس أحد أحبائه، ومع كل عملية جهادية تجتاح «كتابة» أمواج الدماء، وفي كل فجر وغروب ترتفع في معابد الرحمن زعقات الثأر للضربة التي رجحت علىٰ عبادة الثقلين[٣]،

= التشيّع هو ما يقولون ويعملون فأنا لا أرفض عقائدهم فحسب، وإنّما أشعر بمسؤولية خطيرة في وجوب محاربتها بكل وجودي وحياتي من أجل حبي وتعلقي بهذه «الأسرة» العظيمة وإيماني بالحسين وشدّة تعلقي بفاطمة، وعواطفي التي أعجز عن وصفها تجاه علي، وهذه مسؤولية كل «شيعي علوي» يعيش في «مجتمع أموي» وان كان إسمه «شيعياً».

أنظر: «الشهادة» «مكتب سجاد» «انتظار مذهب اعتراض» «جامعة شناسى أمت وأمامت» «أربع ندوات في حسينية ارشاد» كتاب «فاطمة فاطمة است» «مسؤوليت شيعه بودن» «آرى اينچنين بود برادر» «على حقيقتي برگونه أساطير» محاضرات «إسلام شناسى» في كلية الآداب ـ مشهد «تحليل تاريخي سقيفه»

(١) «رب المستضعفين» ورد كان أبو ذر يكرره دائماً. (أنظر هامش) «از كجا آغاز كنيم» ـ جامعة شريف واقفي.

(٢) قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ (القصص/ الآية ٥).

(٣) ضربة عليّ الشاب قضت على عمرو بن ود العامري بطل قريش في معركة الخندق، فغيّرت نتيجة الحرب وكسرت الحصار وانقذت المدينة من فناء حتمي كان متوقعاً بعد تكتل العرب واليهود ومحاصرتها بـ اثني عشر ألف مقاتل. فقال النبي يومها: «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين».

أجل فالعبادة تنجي الفرد والجهاد ينجي المجتمع.

وتلعن[١]، صاحب اليد التي فلقت هامة الشرك و . . .

صارت المجازر العامة وإبادة الأمم جهاداً، ونهب الشعوب زكاة، وطواغيت الأرض اصفياء الله، وأعداء الناس أحباء الله المخلصين و . . .

بيت محمد يهدم، وفاطمة تدفن سراً، وعلي يتخذ جنح الليل جملاً، يتسلل به إلىٰ غابات النخيل ليبث أشجان قلبه في حلقوم البئر، وأخيراً يقتل في محراب العبادة، وأبو ذر يلفظ أنفاسه وحيداً جائعاً في صحراء الربذة[٢]، وتصطبغ أرض (مرج عذراء) الخضراء بدماء حجر[٣] لتنفيذ حكم الدين فيه. ويسمّ الحسن في

---

(١) صدرت الأوامر من العاصمة الأموية بلعن الإمام عليّ بعد الصلوات! وبقيت هذه السنة إلى أيام عمر بن عبد العزيز، كانت في بداية الأمر طاعة لأمر العاصمة الأموية، ثم تحولت بالتدريج إلى سنة عبادية أتبعها الكثير من جهلة المسلمين الذين لا يعرفون السياسة ولا التاريخ، وإنما يعملون بالسنن المتبعة مادامت طقوساً يزاولها المتدينون في المساجد والمحافل الدينية!! ولا يقبلون النقاش فيها أبداً ومناقشتها تعد خلافاً للإيمان!

(٢) ثار أبو ذر من أجل العدالة الاجتماعية ومحاربة الاستغلال الطبقي والنظام المستحدث في الإسلام، أيام خلافة عثمان الذي أوجد طبقة اجتماعية جديدة، وكان شعاره في هذه الحرب «آية الكنز»، فخاف منه عثمان وبعث به إلى معاوية ومعاوية إلىٰ عثمان.
واستمروا على هذه الحال عسى أن ينال منه التهديد والوعيد وقطع العطاء والتجويع والأذى والمخاطر! ولكن ذلك كله لم يؤثر في ثباته أو يضعف إيمانه بقضيته فنفوه إلى الربذة ـ صحراء نائية جنوب المدينة ـ حتى مات هناك وحيداً جائعاً كما أخبره النبي: رحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده.

(٣) حجر كان شاباً في عصر الرسول ومجاهداً في عصر عليّ، بدأ في الكوفة بحركة مقاومة بعد «صلح الحسن» فأمر معاوية باتهامه فاتهم بالعصيان والخروج عن ربقة الإسلام وشق عصا المسلمين، واستشهد على ذلك جماعة من (رجال الدين)=

بيته بيد جنود الله «فان لله جنوداً من عسل»(١) ويقضي بلال في الأرض البعيدة صامتاً(٢)، ويموت عبد الله بن مسعود تحت التعذيب(٣)، والقصر الأخضر لـ «ربّ المؤمنين» يغط في سكر

= وشخصيات البلد، فحكموا عليه وساقوه وأصحابه لتنفيذ «فتوىٰ الإسلام» فيهم، فحاكموهم محاكمة صورية عجيبة وحكموا عليهم بالإعدام أو أن يسبوا علياً ويتبرأوا منه، فلم يفعلوا، فقتلوا في مرج عذراء قريباً من العاصمة. (المؤلف).

(١) أول من ابتدع «الموت المرموز المجهول» و«الموت الخفي» «الموت بدون سبب ظاهر» في الإسلام معاوية. أغرى زوجة الإمام الحسن فدست له سماً قاتلاً في العسل. وهكذا وكّل أمر التخلص من الشخصيات التي يريد تصفيتها ـ ولكن قتلهم العلني ليس من صالح النظام الحاكم ـ إلى العسل وما أحلى هذا النمط من القتل في مذاق القاتلين، ولهذا كان معاوية يقول: «إن لله جنوداً من عسل» وانتفع بنو العباس من هذا الاختراع السياسي الفذ الذي أسسه معاوية، فكانوا يقتلون خصومهم بالليل ويخرجون حاسري الرؤوس حفاة في تشييعهم صباحاً ويذرفون عليهم الدموع!! (المؤلف).

(٢) بلال: مؤذن النبي المحبوب، زنجي أفريقي من أوائل السابقين إلى الإيمان بالنبي، وتحمل في سبيل إيمانه التعذيب الوحشي الذي مارسه معه مولاه أمية بن خلف، كان «أحَد» الشعار الذي رفعه في وجوه المشركين الذين كانوا يعذبونه من أجل إخراجه من حومة التوحيد وفي هذا دلالات كثيرة ومعانٍ جليلة، كان مثالاً لروح الإخلاص والعاطفة الصادقة عند السود وكان حبشي اللهجة في لسانه لكنة، ولكنه كان حسن الصوت، صار مؤذن الرسول أي أنه صوت الإسلام وكان النبي يحبه ويحب أذانه حباً شديداً، وكانت لبلال علاقة خاصة بالنبي وارتباط عاطفي وثيق تأكدت عراه خلال أكثر من عشرين سنة عاشها بلال مع النبي يلتقيه في كل يوم مراراً يقيم لصلاته وكان رسولاً أميناً للنبي وصديقاً عائلياً له، وكان المسلمون يرون في صوته صورة الرسول وذكرياته، ولهذا لم يتحمل بلال البقاء في المدينة بعد وفاة النبي فهاجر إلى الشام وبقي هناك حتى مات.

طلب منه عمر عند ذهابه إلى الشام أن يؤذن له ويذكره بأيام الرسول، فشرع بالأذان حتى وصل إلى «أشهد أن محمداً» فأمسك صامتاً وكان هذا الأذان الأخير الذي رفعه بلال. (المؤلف).

(٣) لما سمع هذا الصحابي الكبير خبر نفي أبي ذر بكى بكاءً شديداً وتلا هذه الآية معرّضاً=

الخمرة وأنغام الغناء، وتزدحم في أروقته أوامر الجهاد وجبي الزكاة واستنساخ القرآن ووضع الحديث وزيادة انتاجه. . .

والمجاهدون ينهمكون في تهديم معابد الشرك وبناء المساجد في بلاد الكفر، والقراء ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها يصدحون ويرتلون القرآن ترتيلاً، وأصوات الأذان تشقّ عنان السماء تنطلق من المآذن الذهبية، وسيوف المكبّرين تهوي على مفارق الألحاد، وكتائب الأئمة والقضاة والعلماء والزهاد والغزاة والعرفاء والصحابة والتابعون وتابعو التابعين(١) والسابقون(٢) واللاحقون، عطاء دماء الشهداء، ثمار جهاد المخلصين، يرتعون اليوم في معلف الغنائم وتربو شحومهم وتسمن أجسادهم(٣) وأمير المؤمنين «نافج حضنيه بين نثيله ومعتلفه»(٤) وقد نال «الولاية» موهبة من الله. . .

الجماعات عامرة دائرة، وأفواج الحجيج ضخمة فخمة،

= بعثمان: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ (البقرة/ الآية ٨٥).

فبعث إليه عثمان وعنفه ثم جاءه غلامه الأسود النكرة ـ وكان من أدوات (خليفة رسول الله وجلاوزته) ـ فأخذ بهذا الصحابي الجليل فأخرجه من المسجد وألقى به على الأرض ثم ضربه حتى كسّر عظامه فلازم الفراش حتى مات بجراحه. (المؤلف).

(١) التابعون: هم الجيل الثاني في الإسلام الذي تلا جيل الصحابة. وتابعو التابعين: هم الجيل الثالث أي الجيل الذي تلا عصر التابعين.

(٢) السابقون: هم الأوائل الذين أمنوا بالإسلام، فرض لهم عمر عطاءً مميزاً لما كتب قوائم العطاءات.

(٣) [اقتباس من حافظ، ذكر المؤلف شطراً تضمن هذا المعنى].

(٤) الخطبة الشقشقية نهج البلاغة تصحيح محمد عبده ٤٠.

ومواقد الطعام مضرمة، ومساند القضاء ناعمة، والإسلام يغشىٰ وجه الأرض، والناس يستسلمون خاضعين أفواجاً أفواجاً أمام سيوف الله، والحوزات العلمية نشطة فاعلة، وبيضة الإسلام محفوظة، والشعائر معظّمة، والأحكام نافذة، و. . . خليفة الرسول يقضي عاماً في الجهاد وعاماً في الحج(١).

الحج سنّة إبراهيم محطم الأصنام.

ماذا يجري هذا العام في «بيت الناس» أو «بيت الله»(٢) ليس ثمة فرق؟!

خضمّ متلاطم من عباد الله تتكدّس ملتهبة ملتحمة في الطواف. . . وجوه تستعرّ بالوجد، قلوب يصهرها الحب وهي تلبي دعوة الله. . انطلق أصفياء الأمة في طواف مقدس، تدفعهم فورة الإيمان وعظمة الإسلام وخشية الله والخوف من عذاب الآخرة والوحشة من نار جهنم والشوق إلى عبادة الله.

ومن بين الوجوه تلمح وجوه أصحاب النبي، الرعيل الأول

---

(١) الخليفة هارون الرشيد كان يقضي عاماً في حج بيت الله وعاماً في الجهاد في سبيل الله وهكذا رتب برنامج الخلافة في عصره! أنهم عرفوا العوام معرفة جيدة واستغلوا الدين استغلالاً جيداً! «لم يغفل بطل أسطورة ألف ليلة وليلة عن عمل لله لحظة»! (المؤلف).

(٢) سمى القرآن بيت الله «الكعبة» بيت الناس «إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة. . .».

أنظر «خانه مردم» للمهندس بازرگان، وميعاد مع إبراهيم» ندوة الحج في جامعة مشهد والإرشاد، «درسهاى إسلام شناسى ـ «حج تحليلي» ـ «نمايش يك إيدلوژي باحركات» ـ الإرشاد».

في صدر الإسلام، أبطال الجهاد والفتوح، رجال فتحوا بلاد الكفر ونسفوا بيوت الأصنام في كل مكان، حماة التوحيد، حملة القرآن المتمسكين بالسنّة، رجال الدين الحنيف[1]. .

يتحرك الجميع في الطواف يجددون العهد مع إبراهيم. . .

انسلخوا عن هذه الدنيا الدنية، تخففوا من ثقل العالم الترابي، ومن كل زائل فانٍ يشدّهم إلىٰ الأرض، وتعلقت قلوبهم بالله. . يطوفون والجنة نصب أعينهم، تتراءى لهم الحور قاصرات الطرف أتراباً، والملائكة تناديهم من فوق العرش، وجبريل يفرش أجنحته بحنو وحنان تحت أقدامهم. . .

من هذا الغاضب الحازم الصارم الذي يخترق دوامة الحجيج ويشق صفوف الطواف، لينفصل عنها ثم يولي ظهره للمدينة المقدسة ويخرج من «الحرم الآمن»؟!

إلى أين ينوي والمسلمون ييمّمون وجوههم شطر الكعبة البيت الحرام؟!

لو التفت لحظة وراءه ليرى الناس يحشرون إلى الطواف

---

(١) حنيف: ثابت مستقيم على الحق، تطلق على من يهجر الباطل إلى الحق وضدها «جنيف» وتطلق على من يترك الحق إلى الباطل. «الدين الحنيف»: تطلق على دين إبراهيم. «وحنفاء»: جماعة كانوا على دين إبراهيم في الجاهلية، والإسلام دين إبراهيم ودين إبراهيم «الإسلام» من هنا وصف الإسلام نفسه بالحنيف: «فاقم وجهك للدين حنيفا» (خطاب للنبي).

حول بيت إبراهيم على أنغام النمرود. يركضون(١) بين الصفا؛ المروة وليعرفوا سعيهم الفارغ الخاوي في الحياة الدنيا.

يؤخذون من عرفات ـ الأرض التي انطلق منها التاريخ، والتقى عليها آدم وحواء لأول مرة(٢) ـ تحت سواد الليل إلى

---

(١) هذه المناسك تمت في غياب الإمام الحسين، وهي لا تعني شيئاً بدون وجوده عليه السلام، فلو لم تكن في ميادين صراع الحق والباطل فكن حيثما شئت، إن شئت أقم الصلاة وإن شئت إجلس إلى موائد الخمور فليس ثمة فرق. حينما ترك الإمام المناسك ولم يتمها ثم خرج منطلقاً وبقي أولئك في طوافهم حول البيت فلا فرق بينهم حينئذٍ وبين أولئك الذين يطوفون حول «القصر الأخضر» (قصر معاوية) وعليك أن تحدد موقفك، هل تخرج أنت كذلك أم تبقى هناك؟». (المؤلف).

(٢) عرفات، أرض سهلية تقريباً تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً عن مكة، وهي أبعد نقطة عن مكة يذهب إليها الحجيج، ومن هناك يعودون إلى المشعر الحرام ثم إلى منى، يتحركون منزلاً فمنزل باتجاه مكة. يقف الحجاج عصر اليوم التاسع في عرفات، ووجه تسميتها بـ «عرفات» كما ورد في القصص الدينية: أنها الأرض التي تعارف فيها آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة.

ليس ثمة آثار معينة أو مشخّصات طبيعية محددة في عرفات والمشعر ومنى، بل ليس فيها مناسك أو أعمال شرعية خاصة سوى «الوقوف».

واعتقد أن فلسفة هذه المراسم والمنازل لا يُبحث عنها في الأحكام والأعمال ولا في الخصائص الدينية أو التاريخية أو الجغرافية، وإنما يُبحث عنها في نفس «الحركة» و«الوقوف» و«التعاقب والتوالي بين هذه المراحل الثلاث الأولى: عرفات، الثانية: المشعر، الثالثة: منى.

والتأمل في هذه الأسماء الثلاثة أيضاً يفتح لنا طريقاً إلى أعماق هذا الرمز، خصوصاً إذا عرفنا أن هذه الأسماء الثلاثة ليست أسماء أمكنة فحسب وإنما هي ثلاثة مواقف، ثلاث مراحل، ثلاثة منازل في حركة وهجرة تكاملية. عرفة أو عرفات: «المعرفة»، المشعر: أرض «الشعور» [والادراك والوعي]، منى: «العشق»، أو «الطموح المثالي».

نطلق من العلم، الوعي، المعرفة ثم نصل إلى مرحلة أعلى أي الفهم والإدراك=

المشعر الحرام(١)...

= والشعور. والآن نبقى إلى جوار أرض «العشق» في منزل «الشعور بعد المعرفة» فنستحق الصعود إلى أرقى قمم الكمال الإنساني، تزودنا بسلاح العلم والبصيرة والشعور وسندخل وادي منى مع بزوغ شمس «الحب» (صبح العاشر، عيد الأضحى)، وهنا يتواجد «العشق» و«الشيطان»، «الدم والعيد»، «التضحية باسماعيل واحتفالات النصر»! ينطلقون من ذاك الطريق مجهزين بالأسلحة التي جمعوها من أرض «الشعور» (يجمعون الحصيات من المشعر يعني أنهم يتسلحون في الخطوط الخلفية ومعهم العلم و«الشعور» يجمعونها قبل الوقت فلا يدخلون الميدان بأيدٍ خالية ولا يدخلونه وهم سذج جبناء، يجمعونها قبل الوقت فيعدّون القوة والسلاح بصعوبة في الأراضي الصخرية، ويتسترون بظلمة الليل الحالك، والإنطلاق من المشعر مع حركة الزمان).

دخول وادي منى مع اطلالة اليوم العاشر (الحركة مع الزمان)، وفي منى يترك الصنم الأول ويمر محاذياً للصنم الثاني! ويرمي الصنم الثالث، يعني هاجم الأخير منذ البداية، فإذا انقضضت على الأخير ودمرته فحينئذٍ يمكنك أن تضحي وتحلق وتحل الاحرام وتتحرر وتحتفل بالنصر!

من هو الصنم الأخير؟ ما هو؟ فرعون؟ قارون؟ بلعم بن باعورا؟.

ذهب جماعة إلى أنه «فرعون» لأنهم يرجعون السبب الأساسي في شقاء المجتمعات إلى «القوة» والظلم، وجماعة قالوا: «قارون» باعتبار أن السبب الأساسي في الشقاء هو «الذهب» والثروة، وجماعة قالوا: هو «بلعم بن باعورا» باعتبار أن «الجهل» هو سبب المآسي. ويبدو أن الإرجاع إلى أحد الثلاثة يتبع نوع المعاناة التي يعانيها المثقفون والمتخصصون. وأنا بالرغم من ميلي إلى الطائفة الثالثة باعتبار أن بلعم يسند «فرعون» و«قارون» ويبرر فعالهم، إلاّ اني اتصور أنهم، ثلاثتهم شركاء، فهم ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة.

ثم يبقى على كل مثقف واع أن يحدد الحجرات الثلاث في عصره، أيها الأولى وأيها الوسطى وأيها العقبة؟ ففي القرون الوسطى كانت جمرة العقبة «بلعم» المستحمر. وفي النظام الرأسمالي والبرجوازي الراقي والليبرالي «قارون» المستغل. وفي الأنظمة الفاشية «فرعون». (المؤلف).

(١) بين عرفات ومنى مضيق يطلق عليه «المشعر الحرام» يتحرك الحجاج من عرفات باتجاه منى عصر اليوم التاسع فيبيتون ليلتهم في المشعر ليصبحوا في منى يوم العيد. =

= يبيتون تحت السماء المتلألئة بالنجوم، أو في الظلام الحالك الذي يلفع السماء، زرافات ووحدانا. . جماعات متراكمة غير منتظمة تحت السماء، لا ضياء ولا بناء، أرض عارية يستوي في المبيت عليها العظيم والوضيع دونما مميزات تميز بعضهم عن بعض، فيبقى كل ونفسه. . وحدة وتفرغ تام للتأمل. . التأمل في النفس والكون والحياة والتاريخ والمستقبل والمسؤولية الشخصية والجماعية، التأمل في الحياة والرغبات والشهوات واللهاث وراء الحياة الحقيرة التي لا تسمح للإنسان بهذا التأمل. يقضي ليلة كهذه الليلة، تحت السماء، ليس عليه ما يميزه عن غيره، قطعتان من الإحرام ليس إلاّ، ضياع في سواد الليل وغرق في خضم الناس، انحلال الـ (انا) في الـ (نحن)، قطرة في البحر، «قشة في الميقات» [عنوان كتاب للاستاذ جلال آل أحمد تضمن مذكرات المؤلف في الحج ـ المعرّب].

جئنا هنا، وماذا علينا أن نفعل؟ عجباً! إن الشريعة لم توجب علينا هنا عملاً بعينه، يعني انك لا تشغل بشيء، إنك لم تأتِ هنا لعمل ما، ليس هنا مجال «الحكم». إذن فماذا؟، محل أي شيء؟ محل «الذكر»؟ أجل الذكر، ذكر ماذا؟ ذكر «ما نسيت»! ذكر الرتابة والروتين والحياة وعبادة الذات والشهوات واللذات، التي حولتك أنت «الإنسان» إلى «كركدن» أو «مسخ»، حولتك إلى «ذئب» أو «ثعلب»، أو «فأر» أو «نعجة»، انستك هذه الحياة، جعلتك في أعماق النسيان تبتعد تماماً عن إحساسك وإدراكك.

الذكر، يعني اجلس وتفكر! تأمل فيما لم تفكر فيه أبداً وفيما يمنعك عن التفكر، فكر فيما أصبح ضحية في داخلك، ثم نسي، إنسانيتك، إيمانك، كرامتك، أصالتك، قيمك الإلّهية، مسؤولياتك، كل تلك القابليات والاستعدادات والمواهب والقيم والفضائل التي ماتت فيك أو قتلت، أبحث في أعماقك عن قبر كل واحدة من هذه، التي تحولت إلى مقبرة هامدة في داخلك. الليل، حيث لا ترى عيناك الخارج [لظلمة الليل]، إبحث عن زادك ـ وأنظر إلى داخلك، إلى ذاتك، ليست ذاتك الصوفية الخيالية المجردة البعيدة عن الناس، الغريبة عن الزمان والعالم. كلا، إنك الآن وحدك ولكن في خضم الناس لا في زوايا العزلة! أبحث عن قبور اعزائك واحداً واحداً، أبحث عن آثار اقدام الله في صحراء فطرتك، أنت الذي انطلقت من أرض عرفات، أرض المعرفة، الأرض التي عرف فيها آدم حواء ثم انطلق يخطو في التاريخ وأنت رافقته في سفره هذا إلى «أرض الشعور»! اجلس وفكر تحت السماء التي تمطر النجوم، تحت سماء الوحي، استمع إلى صوت الله، =

وفي أرض «الشعور والإحساس» المحرمة ـ التي حرم دخولها على هؤلاء العبيد، عبيد الظلام والجهل ـ حيث يخدرونهم ليناموا هناك، وعند انبلاج السحر يوقظون «أغنام الله»(١) فيسوقونها إلى «منى» ـ أرض الأصنام الثلاثة للمثلث المشؤوم(٢) ـ وهناك

= في وحدتك الحرة التي تحررت فيها وضعت في سواد الليل وبحر البشر.

هؤلاء الناس، الجماعة، الإنسان، الإيمان، التحموا في هذا المضيق التحام قرابة ومواساة وحب، كبسوا هنا بدون حدود وألوان وجدران وسقوف وأبواب واسوار، كبسوا في «المزدلفة» وها هم يبيدونك، يبيدون فيك «الأنا»، يحررون اسوار «انانيتك» وينزلون «الإنسان والإيمان» من عروش فرديتك وقوميتك وطبقتك وشغلك وأسرتك.. ثم يصبونك كقطرة في بحر!

اجلس وفكر! كن في «ذكر»، أنت الذي أصبحت مقبرة خربة لمئات الشهداء! لقد ذبحت فيك جرائم الحياة والزمان وانظمة الكفر والظلم كل القيم الإلهية! فنسيت قبورها، ونسيت ذكرياتها أيضاً!

اجلس وفكر! لا يوجد هنا أي حكم، أي عمل، تركت في هذا «الإطلاق» لتبحث في داخلك، وتستبطن نفسك، لتجد القبور الممحوة وترى جنائز شهدائك وتنفخ فيها الروح، حيث انك الآن في «أرض الشعور» وروح الحياة والحب والرسالة والإيمان فانفخ فيها ما تتزود به، وأقم في هذا «المشعر» في أعماق داخلك «محشراً»، أقم في نفسك «قيامة»، حساباً وكتاباً وميزاناً ومحاكمة، وقضاء! تدرب استعداداً لذاك اليوم، محكمة انت المتهم فيها والمدعي والقاضي.

اجلس في أرض الشعور وفكر في هذا الليل والوحدة والضياع، تذكر... ولكن هؤلاء... بعضهم يغط في نوم عميق ويعلو شخيره، وبعضهم لا يريدون النوم فتسمع منهم همساً فارغاً «نق، نق» وبعضهم يسهرون يرددون (الأوراد) ويا ليتهم أخذهم النوم فناموا! (المؤلف).

(١) ليلة العاشر من ذي الحجة يقف الحجيج في المشعر وينطلقون إلى مضيق «منى» مع طلوع الشمس.

(٢) «منى» وقوف يلي عرفة والمشعر وهو مضيق يشرف على وادي مكة، وهناك يؤدي أهم أعمال الحج في الموسم؛ الرمي والتضحية، والحلق، وأخيراً نزع الإحرامات والاحتفال، بعيد الأضحى والانتصار على الشيطان! =

يمتهنون إبراهيم، ويخدعون الله[١]، ويناغون معبودهم الثلاثي الأبدي ـ منذ آدم وإلى آخر الزمان[٢] ـ فيرمون الجمرات، سبع حصيّات جميلة مرقطة[٣] ترمى بأطراف الأنامل نحو الوجوه

= ثمة شارع في امتداد هذا الوادي سمي بـ «شارع الملك فيصل» وفيه ثلاث اسطوانات تشبه «النصب»، قيل أنها رمز لعروض الشيطان ثلاث مرات يوسوس لابراهيم وهو يريد ذبح ابنه لرؤياه التي رآها. وهذا القول صحيح ولكن «الرموز» كلما كانت أعمق وذات معنى أوسع كانت الأفهام تختلف أكثر في استيعابها وتأويلها وإدراكها، من هنا أرى، أنا شخصياً، فيها ذاك المثلث المشؤوم الذي يعذبني دائماً وأبداً! تلك الوجوه الثلاثة التي ينتظمها محور واحد، فرعون وقارون وبلعم، الاستبداد والاستغلال والاستحمار، الملأ والمترف والراهب، وعلى حد تعبير القساوسة ثلاثة وفي ذات الوقت واحد، وواحد وفي ذات الوقت ثلاثة، كل منها اقنوم مستقل له ذات خاصة وفي الوقت ذاته وجود واحد، وهو وجود واحد في اقانيم ثلاثة. ومنذ مدة مديدة وأنا لا أفهم ماذا يعني هذا؟ أي رب هذا يكون ثلاثة في واحد وواحداً في ثلاثة! وهل يمكن ذلك؟ لا يدرك العقل ذلك. ثم عرفت فيما بعد أن العقل لا يدرك، صحيح ولكن العين ترى! غاية ما في الأمر أنا ظننا في أن القساوسة يتحدثون عن الله وتبين أن الحديث عن «العمدة»، لا يتحدثون عن إلّه السماء وإنما عن أرباب الأرض طبقة حاكمة ونظام وسلطان وقدرة، تتجلى مرة في قوى السياسة «الاستبداد» ومرة في «الذهب» في الاقتصاد «الاستغلال» ومرة في «التضليل» في الدين «استحمار الكهنة». واليوم «التضليل» في الفن والعلم والإيديولوجيات والفلسفة بدل الدين: «الاستحمار الحديث» ومثال هذه الثلاثة في القرآن: فرعون وقارون وبلعم، ثلاثة وجوه في «واقع» واحد، «قطب» واحد، «شخص» واحد، قابيل! ألا ترى هذه ثلاثة وفي ذات الوقت هي واحد؟ (المؤلف).

(١) ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (آل عمران/ الآية ٥٤)..

(٢) من آدم إلى آخر الزمان، فلسفة الحتمية التاريخية بشكل خاص يفسرها الإسلام: آخر الزمان يوم يصفو التاريخ من حتمية التناقض والتنازع ويموت النظام القابيلي ويعم الأرض المساواة والإيمان فينعم الإنسان بها بدلاً عن الظلم والاستغلال والتعدي. (انظر: انتظار مذهب اعتراض ـ ندوة في حسينية إرشاد).

(٣) إذا أراد الحاج جمع «الحصيات» يوصى أن تكون جميلة، حجمها بين الفستقة=

المبيّضة[١] لآلهة الأرض والتاريخ، يرمونها في أجواء من الهيام والتهكم عبر المراحل الثلاث... ثم يذبحون الخراف، رمز المصير الذليل الذي ينتظرهم، المصير الذي ينتظر «أغنام الله» لينتفع وكلاء الله الثلاثة بأصوافها وألبانها ولحومها وجلودها... فهم ـ دائماً ـ يذبحون هذه الأضاحي «العجماوات الخرساء» تلبية لهوى النفس، ويزرّقون دماءها الحمراء في عروق «القصر الأخضر» و«مسجد الضرار» و«بيت مال قارون».

وأخيراً، يحلقون رؤوسهم علامة على التسليم المطلق لعبودية «الجمرات الثلاث»[٢]..

هذا دليل على أن «الجهل آلة الجور».. «من يعبد المصالح

= واللوزة، مرقطة، والأفضل أن تكون ملونة! ومسكين الحاج، عليه أن يبحث في الظلام بين فضلات ملايين البشر والسيارات وقطعان الغنم والإبل عن «حصيات فستقية»، والويل له ان تاه عن محل القافلة! ماذا يصنع هذا علم العشق والعاشقين!

(١) كل عام يعاد تجصيص هذه النصب الثلاثة وتبيّض! لا أدري لماذا؟ ولا أدري ما إذا كان هذا العمل بأمر من الحكومة أو رجال الدين، وما إذا كان من ميزانية الأوقاف أو (الأشخاص الميسورين المتدينين الذين يتسابقون في الخيرات!) كيفما كان ليس ثمة فرق فهؤلاء جميعاً بيضوا وجه الشيطان وفي كل عام يبيّضونه أكثر! (المؤلف).

(٢) الجمرات الثلاث إسم يطلق على النصب الثلاثة التي تمثل الشيطان في منى، ويقال لكل واحدة منها «جمرة»: الجمرة الأولى، والجمرة الثانية وجمرة العقبة. وسميت الأخيرة بالعقبة لأن العقبة ظهر الجبل والثالثة قريبة من ظهر الجبل (ولكن «العقبة» الآن إسم علم على ذلك المكان باعتباره المكان الذي التقى فيه رسول الله وفود الأنصار التي قدمت إلى الحج قبل الهجرة وعقدوا هناك «بيعة العقبة» بعيداً عن عيون قريش). والجمرة: معناها مرمى الأحجار. (المؤلف).

تتلطخ يداه بدماء الحقيقة». . «غياب الطاغوت يعدّ لـ «شهادة الإنسان». . «إن وراء أقنعة التقوى والقداسة أنياب الجلادين».

ان الصنم الثلاثي يوسوس دائماً وأبداً للحجاج ليذبحوا إسماعيل تحت أقدام النمرود ثم يحتفلوا بيوم التضحية «التضحية بالإنسان» وذبح إسماعيل العصر، وحينئذٍ يستدبرون الكعبة ويستقبلون الذلة والحياة ويشترون «جنة الآخرة» بـ «جهنم الدنيا»، وينعمون بنشوة التمرغ علىٰ «رماد مطابخ الأسياد» ولحس قصاعه المغتصبة بلذة ونهم[١].

غطت نواظري غمائم الدماء.

ألمح صحراء حارقة. . سماء بلون الحياء والخجل. . شمساً داكنة ذائبة تصهر. . . هواءً يقذف بالحمم ويلقي بالشرر. . بحراً

---

(١) النص من قصيدة بعنوان «أغنية الذئاب والكلاب» لشاعر أجنبي ترجمها [إلى الفارسية] السيد اخوان أميد ترجمة قوية رائعة:

قال الكلب: على اعتاب مطبخ السيد:

هناك ما الذ النوم على نشارة الخشب المنثورة على الأرض ما أحلى النوم هناك، ثم ما أحلى أن تقول للآخرين: «عزيزي وتسمع منهم من يقول لك «روحي».

ويكمل الآخر: والأكل من فتات المائدة. والآخر: وان لم يكن ذلك فعظمة.

الأول أيضاً: ما أحلى هذه الدنيا وأحلى هذا العمر المريح وأي سيد عزيز وعطوف ويذكرهم أحد الكلاب: «ولكن السياط. . . أنها بلية!». ويهوّن عليه الآخر: أجل ولكن يجب الصبر والتحمل. .

صحيح أنها مؤلمة نسبياً ولكن سيرحمنا السيد فيما بعد، انتظر حتى تخف ثورة غضبه، ثم أضع وجهي على حذائه وأقدامه، فيمسدني بعدد جراحاتي، «وأنا أعدّ هذا غنيمة كبيرة». (المؤلف).

رملياً يغرق الآفاق جدول دم عبيط حار يعلوه الزبد، يجري في سفره اللاحب مع زلال الفرات خطوة بخطوة. .

أرى سيوفاً مسلولة تلمع. . نبالاً طائشة تمرق بارقة في كل اتجاه. . أخبية تلتهمها النيران. . . رجالاً تستعد للسلب. . . أحقاداً تسعر. . . أعداء كامنين يحدقون من كل حدب وصوب. . أصدقاء دمى بلا إرادة تحركهم الأهواء المجنونة والأعداء. . غربة قاتلة موحشة. . . أرضاً ملحية بائرة. . رمضاء مشتعلة. . . رمالاً ملتهبة. ظمأً فادحاً يذيب الروح. .

أرى دجلة الأسود مسعوراً يهاجم بوحشية وافتراس، والفرات الأحمر ـ حدّ المنية والعداء ـ تحتله الخصومات والمفارقات. . و. . .

أخاف من التحديق في وجهه القوي الصارم العظيم. . أخشى من اختلاس النظر إليه. .

انظر إلى ضحية الجهل والرذائل. .

وقع نظري على قدميه. . وجدتهما تقفان بصبر وثبات على استقامتهما، تحملان جسداً مزقته مئآت الطعنات. . .

انقل نواظري ـ واجفاً مرتعشاً مضطرباً ـ إلى ساقيه وذيل ردائه وأصعد بهما إلى الأعلى. . .

يدان ساقطتان. . . يد تمسك بالسيف وتفترش الأرض فتعلن عن هزيمة الإنسان. . . وما زالت قبضتها غاضبة تشدّ أناملها بقوة

وتماسك على السيف لتحتفظ به . . .

رأيت آثار الأصابع . . . رأيت بصمات الدم على مقبض السيف . . السيف الذي . .

الذي . . . سقط!!

ويده الأخرى . . .

اصعد بنواظري إلى الأعلى . .

دماء تشخب من منافذ المغفر . . . تتدفق من فتحات الدرع . . بخار كثيف تمتصه شمس الصحراء لتنذر الدنيا ـ كل الدنيا ـ ما تعاقب الليل والنهار، وتعرضه على عيون البشرية ما دام على وجه الأرض ديّار[١] . . .

اصعد بنواظري إلى الأعلى:

أرى عنقاً تشمخ كأنهل قمة حراء . . . كأنها قلعة شماء تتربع على جبل سامق[٢]، أرى عنقاً تنهال عليها طعنات التاريخ بلا هوادة . . توشحها الجراحات والكدمات غير أنها تبقى شامخةً لا تنحني . . . انتزع نواظري من خيوط الدماء التي تلفعها وتتحدر

(١) اقتباس من أبي العلاء المعري الشاعر الفذ الجريء المؤمن بمقدار مخالفته للمؤمنين وان كانوا قد صوروه ملحداً!

وعلى الأفق من دماء الشهيدين علي ونجله شاهدان
وهما في أواخر الليل فجران وفي أوليائه شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشر مستعدياً إلى الرحمن

(٢) جبل سامق: عالٍ، شاهق. (المصحح).

منها . . . اصعد بنواظري إلى الأعلى . . أرقى بهما . . . أرقى . . . وفجأة . . . خيمت مضلة[١] سميكة من البخار والدخان والتهمت الفضاء وكأنها كثيب[٢] مهيل من الرماد يغرق الفضاء بعد انفجار و . . .

ثم . . . ثم لا شيء . . . انتهى كل شيء . . .

تمزق شغاف قلبي . . . أحسست بقبضة وحشية تعتصر فؤادي، وأنياب حادة ومخالب شرسة تغوص في كبدي، ودخان ملتهب حارق يتصاعد من أعماقي إلى رأسي ويحرق نواظري . . . يعذبني الحياء والخجل . . . يدمرني التعذيب والألم:

فأنا «ما زلت حياً موجوداً» و«ما زلت أعيش».

مع كل هذا «الاستضعاف» و«الحياة» المكدودة المثقلة . . .

مع ثقل ضريبة «الكون على قيد الحياة» . . .

داهمتني الدموع وأخذتني أخذاً شديداً . . . انهمرت الدموع، ليس لي إلى الرؤية سبيل . . .

غطّت نواظري غمائم الدموع . . .

أرى الأشياء أمامي ترتجّ وترتعش في متاهات من الدماء والرماد، بيد أني ما زلت ألاحقه بنواظري، وأحترق في انتظار يشوبه الهيام والخجل . . . ما زلت انتظر . . .

---

(١) المضلّة: وضد الهدى، أرض مَضِلّة: أرض تُضلّ فيها الطريق.

(٢) كثيب: تلّ من الرمال. (المصحح).

ألمح شبحاً في قلب الغمام والدخان. . . ملامح مبهمة خرساء لوجه يغرق في الصمت. . . وجه «بروميثيوس» النموذج الإسطوري الذي تحول إلى حقيقة. . .

الشوق والهيام جفف آماقي. . .

انحسر الغبار المعتم القاتم، وغدت الملامح تبدو أوضح وتقاسيم الوجه تتحدد أكثر. . .

إذاً سأرى الآن سيماءه الإلّهي؟!

ما أقسى الألم. . . ما أصعب التحمل. . . كل هذه الآلام. . . كل هذه الفجائع. . . كل هذا العذاب. . . كلها في وجه واحد. . . وجه يحكي آلام الإنسان في حياته المشحونة بالمظالم والاضطهاد. .

وجه. . .

ماذا أقول؟!

اصدر مفتي الإسلام الأعظم حكم الإعدام عليه باعتباره «خارجاً عاصياً متمرداً على دين الله، رافضاً لسنة محمد رسول الله». . .

وبات تحف به أشلاء حارة مرملة بدمائها، وليس ثمة أحد يدافع عنه غير تلك الأجساد. . .

ينتصب على أمواج الدم في الصحراء كأنه تمثال الغربة والوحدة والعذاب. . .

يقف على كل معابر التاريخ:

لا يعود... لا يرجع...

إلى أين يعود؟... إلى أين يرجع؟

لا يتقدم...

كيف يتقدم؟!

لا يقاتل...

بماذا يقاتل؟!

لا يتكلم..

من يخاطب؟!

لا يقعد..

فـ...

أبداً.. إنه واقف وغاية جهده أن لا يقع...

سندان صامد تحت ضربات الأعداء والأصدقاء... صامد تحت مطارق آلهة الأرض الثلاثة على مدى التاريخ من لدن آدم وإلى... إلى يومه..

أحدق في وجهه العجيب مرة أخرى... أحدق في عينيه... هامد... نظرات ليس فيها إلاّ الغم... يبقى صامتاً...

لا اتحمل. . . منظر ثقيل. . . صعب. . .

يهشم وجودي في داخلي. . .

أهرب. . أفر. . ولكن أخشى أن أبقى وحدي. . . وحدي، أخلو بنفسي. . الخلوة بالنفس وتحملها مخجل. . . مخجل جداً ومدمر. . فتاك. . معذب. .

أفرّ إلى الزقاق؛ لأذوب في الجماعة وأضيع في خضم السواد العام، ربما يغطي ضجيج المدينة على أصوات الملامة في داخلي. . . ربما يمكنني أن لا أسمع اللوم من نفسي. . . أفواج مكدسة من خلق الله، مذهولون، يشتد بكاؤهم. . نحيب، عويل. . صراخ، ضجيج، رايات، بيارق، اعلام، محامل، مشاعل، سيوف، «سلاسل»، تهوي على الظهور والخواصر والرؤوس. . يضربون ضربات قاسية، رجال يلبسون أردية طويلة و. . . عمامة النبي على رأس و. . .

آه. . . مرة أخرى تتقدم تلك الوجوه المكررة في التاريخ، حزينة موشحة بالمسوح، تتقدم الناس ترتدي السواد!!

أهرول وحيداً طريداً في كل اتجاه، أتعلق بأطراف أكمام هذا، أمسك بذيول ذاك، أسأل، أتوسل، أسأل بمقدار حاجتي، عمق حاجتي، أسأل وأنا أغرق في الدمع والألم. .

من ذا؟

ماذا يشكو. . . ماذا يؤلمه؟!

هذا الوريث الوحيد لتاريخ الإنسان، ووريث راية الزمان الحمراء. . الوريث الوحيد. . لماذا الوريث الوحيد؟

وماذا صنع؟ . . ماذا فعل؟

ماذا تحمّل؟

أجيبوني:

ما إسمه؟

لم يجبني أحد!

غطت نواظري غمائم الدموع. .

مشهد المقدسة: عاشوراء ١٣٤٩ (هجري شمسي)

الثأر

«فلورانس» كلمة أستوحي منها «انسياب النهر الذهبي المتوهج»؛ فمن أين ـ يا ترى ـ ارتسمت هذه الصورة في ذهني؟!.. من إيقاعها الموسيقي! أرأيتم كم يكون معرفة «المفردة» دقيقاً عميقاً مؤثراً ذا قيمة!

يقول البعض: إنّ كلمة «فلورانس» إسم مكان(*) معروف لدى الجميع، وفي ذات الوقت قد يستوحي شاعر ما من إيقاعها الموسيقي معنى آخر، وقد توحي بالتلألؤ والتوهج والبريق والانسياب في نهر ذهبي، وتوحي بلون الذهب المثير الصارخ، وهي في نفس الوقت ذات هوية وتاريخ وببليوغرافياً(١) خاصة.. ببليوغرافية ناتجة عن الترابط بين هذه المفردة وبين قصة ما أو واقعة ما، ويسوقون مثالاً لذلك: يقولون: إنّ «فلورانس» كان أيضاً إسماً

(*) «فلورانسا» مدينة في وسط إيطاليا، قاعدة توسكانا.. شهيرة بمدارس التصوير والنحت مركز صناعي وسياحي ومتاحف غنية (المنجد).

(١) Bibliographie علم معرفة التأليف والكتب (المصحح).

لامرأة عفيفة نزيهة و. . . كانت شخصية محبوبة جداً لدينا أيام طفولتنا، وكنت شخصياً قد اعتبرتها ـ في طفولتي ـ مثالاً مجسماً للعفة والجمال والحياء، وهذا اقتران خاص كنت أحسه في أعماقي من خلال العلاقة بين تلك القصة ولفظة «فلورانس».

ومن هنا نعرف أنّ «المفردة» في الثقافة والأدبيات الغنية تحمل هوية وببليوغرافيا خاصة بها، وهذا أمر له أهميته.

فكلمة «رند» ـ مثلاً ـ لا يمكن ترجمتها إلى أي لغة بحيث تعطي نفس المعنى والعمق والظرافة التي يستخدمها «حافظ»(*) في شعره. . . فقد يترجمها البعض بـ «كلوشار» بمعنى الدرويش، المتسول، المستجدي، اللامبالي، فيما لا تعطي الكلمة أي واحد من هذه المعاني لأنها تعطي ـ أحياناً ـ معنى أبعد من «العالم والعاقل والمفكر»؛ لفظة «رند» لها معناها الخاص بها.

كلمة «الثورة» هي الأخرى واحدة من تلك المفردات ذات الهوية الخاصة والببليوغرافيا التاريخية، ولهذا فهي تحمل معنى عميقاً غنياً بعيداً غاية البعد، ناتجاً من اقترانها بالقضايا الاجتماعية والتاريخية مما يجعل المعنى أوسع بكثير من حدود اللفظ العادي. .

وثمة كلمة أخرى نقرأها في الأدعية والزيارات «الثأر». . حيث نخاطب الإمام الحسين فنقول: «يا ثأر الله وابن ثأره» فماذا

(*) حافظ الشيرازي شاعر إيراني معروف.

يعني «الثأر» في علم الاجتماع والثقافة العربية؟!

كان النظام القبلي هو النظام السائد قبل الإسلام، وقد قام الإسلام بأعظم ثورة غيّر فيها النظام القبلي إلى نظام اجتماعي، أي أنّ النبي قام بهذا التغيير الجذري الثوري العظيم خلال عدّة سنين لم تتجاوز الجيل الواحد، وتعدّ هذه الحادثة مستحيلة تاريخياً؛ لأن هذا العمل الجبار إنّما يتحقق خلال عدّة قرون، ومن خلال تغيير جذري عميق في البنى الاقتصادية والسياسية، فيما استطاع نبيّ الإسلام قلب المجموعة القبلية ـ وهي بنية اجتماعية جذرية قوية ـ وتحويلها إلى نظام اجتماعي متكامل، وأمّة واحدة، ومجتمع موحّد، وجماعة خاصة لها سماتها ومعالمها، كل هذا في فترة قياسية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً قط. . .

والنظام القبلي العربي ـ كأي نظام قبلي في العالم ـ يقوم على أساس وحدة القبيلة بحيث ينتفي وجود الفرد، وتكون القبيلة وجوداً حقيقياً وأما الفرد فهو لا شيء، وفي نفس الوقت يمثل القبيلة بكاملها، كما نلاحظ ذلك في بعض القرى البعيدة المترامية التي لم تتلوث بعد بمدنيتنا القذرة ـ ولا أدري هل جربتم شخصياً ما سأقوله أو لا؟ ـ حيث ما زالت روح الجماعة حاكمة هناك، فلو دخلت ـ أنت الغريب ـ هناك لاستقبلك المتجمعون على بوابة القرية ودعوك إلى أي مضيف كان. . . «تفضل نرجوك. . . تفضل لقضاء الليلة عندنا. . . تفضل الليلة واسترح عندنا. . .» يدعوك إلى أي منزل من منازل القرية سواء كان صاحبه حاضراً أو غائباً، ولربما كان صاحبه قد خرج إلى الصحراء بل قد لا يكون موجوداً في القرية

بتاتاً. أتدرون ما هو السر في ذلك؟ إن الحاكم هناك هو «روح الجماعة» وأصالة «نحن» و«أصالة القبيلة».

أنت غريب، دخلت القرية، فصرت ضيفاً، ولكن ضيف من؟ ضيف حسن، ضيف حسين، بيد أن حسن وحسين يمثلان القبيلة بأجمعها باعتبارهما فردين من هذه الجماعة والقبيلة، بمعنى أنك حللت ضيفاً على القبيلة، وجميع أفرادها يعتبرون أنفسهم مضيفين، ولكي يسكنوك في البيت الذي يناسب شأنك ويليق بك يدعونك إلى بيت تتوفر فيه هذه الشروط حتى لو كان صاحبه غائباً، فإن كل فرد من أفراد القبيلة يحق له أن يقوم بهذا العمل.

وهذا يعني أن الملكية الفردية بالشكل المعروف في النظام الاجتماعي ـ بمعنى وجود شخصية مستقلة للفرد ـ لم توجد ـ هناك ولو على مستواها الروحي والنفسي. وكذلك الأمر من الناحية الشخصية، فانك إذا أهنت فرداً فان القبيلة تهب وتعتبر ذلك إهانة لها ككل، ويشعر جميع أفرادها بالإهانة وكأنك تعرضت لهم جميعاً وجرحت عواطفهم جميعاً، وعليك أن تعتذر للعشيرة عمّا صدر منك.

فيما يكون للأفراد في النظام الاجتماعي الحديث وجودهم الشخصي المستقل، فانك إذا تعرضت إلى فرد أمريكي أو فرنسي بأساءة فان الإهانة ستعتبر موجهة إلى شخص من تعرضت له دون سواه، ولذلك لن تواجه ردّ فعل من أمريكي أو فرنسي آخر، وكذلك الأمر فيما لو تعرضت إلى فرد طهراني أو مشهدي، فان

ذلك لن يثير أهالي طهران أو مشهد الآخرين، بل أن لكل فرد حسابه الشخصي الخاص، على العكس من النظام القبلي حيث توجد شخصية واحدة تسمى «القبيلة» ولها شعار يمثل روح الجماعة يتجسد في «رئيس القبيلة، طوطم القبيلة، إله القبيلة» روح لها أجساد ووجودات متعددة. . . ألف. . ألفان، وأكثر. .

ونفس هذه النظرة تنطبق في المجال الحقوقي، لأنّ الحقوق القبلية حقوق جماعية، فلو أنّ فرداً من بني غطفان قتل فرداً من بني زهرة فلا يعدّ ـ حينئذ ـ نفس القاتل قاتلاً ولا نفس المقتول مقتولاً، وإنّما القاتل هم بنو غطفان والمقتول بنو زهرة وكل فرد من بني زهرة يعتبر نفسه وليّ الدم ويعتبر كل فرد من بني غطفان نفسه قاتلاً، فلو ظفر ـ والحال هذه ـ فرد من بني زهرة بفردٍ من بني غطفان لقتله ثأراً لدمه حتى لو كان هذا المقتول لا علاقة له بالقاتل الأول بتاتاً، بل قد لا يعرفه وقد لا يكون سمع بالقتل الأول أبداً وليس له في الأمر ناقة ولا جمل، المهم أن يكون منتمياً إلى قبيلة القاتل، وهذا يعني أن هذه القبيلة تطالب بدم القتيل وتلك القبيلة سفكت هذا الدم، وأمّا الأفراد فليس لهم شخصية حقوقية في النظام الحقوقي القبلي[1].

لقد عرفنا ـ حتى الآن ـ خلفيات القضية وجذورها الاجتماعية؛

---

(١) الإسلام أول من وضع «الفدية» وتعامل تعاملاً حقوقياً مع الأفراد، وذلك لأنه كان يريد بناء «مجتمع» وإبادة الروابط القبلية. ومن جملة الطرق التي سلكها في سبيل تحقيق ذلك هو جعله للحقوق الفردية، فالقاتل من تورّط بالدم شخصياً، ووليّ الدم من تربطه بالمقتول رابطة الأسرة القريبة كأن يكون أباه أو ابنه و. . .

دققوا النظر وتأملوا جيداً كم ستكون القضية عميقة ورائعة:

أحد أفراد هذه القبيلة يقتل فرداً من قبيلة أخرى، وقبيلة المقتول تصبح وليّة الدم والمقتول «ثأر» القبيلة. . هل اتضح الأمر جيدا؟

. . . نحن قبيلة، تعرضنا إلى اعتداء من قبيلة معاوية حيث قتل أحد أفرادهم واحداً من أبنائنا، فلا يعتبر أبوه أو ابنه أو أمه أولياء الدم، بل نحن جميعاً أولياء الدم، والمقتول «ثأر» القبيلة وليس ثأر العائلة، ثأر الأب، الأم، الإبن الأكبر، بقية الأبناء، بل هو ثارنا «نحن»؛ بمعنى أننا نطالب العدو دماً ولا تسمح لنا الغيرة بالتهاون فيه. . . والغيرة تعني عدم النَّوء تحت وطأة الثار، تعني تحمل ثقل الثأر وعدم محاولة تخفيف أعبائه من على العواتق. . . و«غيرة القبيلة» تعني أن كل من يتنازل عن الثأر أو لا يعمل على استيفائه والانتقام من العدو فهو رخيص مستعد لبيع عرضه وشرفه، ومن يبع دمه يبع عرضه ودينه، ولا غيرة له، وعليه فإن كان للقبيلة الغيورة دم فلا بد لها أن تثأر له وتنتقم من العدو.

وثمة أسطورة في هذا المجال، وهي بالرغم من كذبها فليس ثمة حقيقة أصدق منها في تاريخ الإنسان[١]، أسطورة رائعة تقول:

(١) قد تطرح الحقائق في قوالب الأساطير أحياناً وعلينا أن نفهمها جيداً، فقد تحتوي الأساطير على حقائق وقيم أكثر ممّا توجد في تاريخنا؛ لأن تاريخنا صنعوه وحرّفوه وأنزلوا به أنواع البلايا، بينما الأساطير عبارة عن الحقائق والطموحات والآمال المبدئية التي كانت الإنسانية تؤمن بها، ولكنها لم تتحقق في الواقع فصورتها الإنسانية في الأساطير.

إذا قُتل فرد من قبيلتنا وسُفك دمه ـ والقبيلة تعيش في البادية وتتنقل حيث وجد الماء والكلأ في رحلات بين مشتى ومصيف ـ تصير روحه طائراً ينوح ويعوّل ويحوم حول القبيلة صباح مساء، ويطوف على رؤوس الشباب والرجال والنساء نائحاً ناعياً بالويل والثبور، ويبقى معذباً صارخاً مستغيثاً يحرّض أفراد القبيلة على الأخذ بثأره، وهكذا لا يهدأ هذا الطائر حتى يؤخذ بثأره ويُنتقم من عدوه. .

هذه أسطورة أليس كذلك؟

وبناءً على هذا فإنّ القبيلة صاحبة «الثأر» لا بد لها أن تأخذ ثأرها من عدوها، وما دامت لم تثأر وتسفك دماً من العدو، فإنّ اللعنة تلاحقها وطائر الثأر يحوم حول رؤوس أفرادها أبداً، في الليل إذا ناموا، وفي البيت إذا سكنوا، وفي السفر إذا ارتحلوا، وفي اللهو إذا غفلوا، وعند الأكل والصلاة، وفي كل عمل ووقت وحال، يلاحقهم ولا يتركهم، والفرد الغيور وصاحب الحمية يسمع استغاثة الطائر ويرتاع لعويله وصراخه. . هذه رابطة قبلية وسنة من سنن النظام القبلي في قضية الثار.

وكما أشرت في موضع آخر، فإنّ النبي أحدث ثورة ثقافية فكرية كبرى، وكثيراً ما كان يتناول السنن والأدبيات والأفكار والموروثات الشائعة في مجتمعه ـ حتى لو كانت جاهلية ـ ويصبّ فيها مضامين علمية ثورية إنسانية جديدة.

«الثار» من جملة ذلك، حيث غيّر «ثأر القبيلة» إلى«ثأر

إيديولوجي» «ثأر إنساني» كما غير رابطة الأخوة القائمة بين القبائل على أساس الدم إلى أخوة إنسانية قائمة على وحدة الأفكار، وغيّر ولاء أفراد القبيلة القائم على أساس «ولاية القبيلة» إلى ولاء سياسي فكري إنساني، وغيّر بيعة الفرد لرئيس القبيلة إلى بيعة كل فرد ـ في الحج ـ للحجر الأسود كرمز ليمين الله، وتعلمون للبيعة جنبتين، فلو دخل الفرد في ولاية قبيلة ما وبايع رئيسها يصبح تابعاً له ولقوانين قبيلته، وحينئذٍ يخلع كل بيعة كانت في ذمته قبل هذه البيعة، ويصبح في حل منها وله التنصل عنها، فالبيعة الجديدة إذاً ـ أثبتت في ذمته الولاء الجديد ونفت عنه أي ولاء سابق ـ وعليه فجميع الأفراد الذين بايعوا الله يصبحون موالٍ وعبيداً وأعضاء في قبيلة الله، وفي نفس الوقت يتحررون من جميع الارتباطات والعلائق والبيعات القبلية والجاهلية.

إنّ هذه السنن كانت شائعة في المجتمع ثم حوّلها النبي من شكلها الجاهلي القبلي المنحط إلى أسمى المفاهيم وأكثرها حداثة وثورية ووظف التراث في أروع صورة.. لأن ثورته لم تكن ثورة سطحية تفرض على الناس مجموعة من المفاهيم الارتجالية المختلقة التي يمجها الناس ويتحررون منها ولا يدرون ما هي هذه المفاهيم، وماذا تعني هذه المصطلحات والأوامر، وإنما يستل أدبياتهم من واقع تاريخهم وجذور التراث وأعماق الحياة ويصب لهم مفاهيمه الجديدة في نفس تلك القوالب، و«الثأر» واحد من تلك المفاهيم، فالثأر مفهوم، سنّة، وتراث عميق له جذور ضاربة في دماء الناس وعظامهم وتراثهم وغيرتهم وتاريخهم، فجاء النبي

وغيّره إلى ثأر فكري، ثأر تاريخي، ثأر إنساني، وغير الروابط القبلية من الولاء للقبيلة العرقية إلى الولاء للقبيلة الفكرية.

قبيلة طاغوتية وقبيلة إلٓهية، هاتان قبيلتان معترف بهما في القرآن والإسلام و. . . ودعوة علىٰ أساس نظام قبلي جديد في تاريخ البشر: فقبيلة بايعت الله وأخرى بايعت الطاغوت، والعلاقة بين هاتين القبيلتين تماماً كعلاقة الثأر بين القبائل الجاهلية، علاقة المطالبة بالدم، العلاقة التي تستغيث بك وتصرخ في أذنك بالويل والثبور، وتحرضك علىٰ الثأر، وتلقي مسؤولية المطالبة بالدم والثأر علىٰ عاتق أفراد قبيلة الله فرداً فرداً.

ومن الطبيعي أن يسمع كل غيور هذا الصوت دائماً. . .

هذه كلمة «الثأر».

وبناءً على هذا، ألا تعتقدون أن كلمة «الثورة» تتضمن معنى أبعد من كلمة «Revolution» أو «انقلاب» التي لا تعني سوى تغيير وانقلاب النظام الاجتماعي رأساً على عقب ـ بينما تستبطن «الثورة» مفهوم «الثأر» أيضاً. فتكون عبارة عن قيام أفراد القبيلة الإلٓهية في كل جيل من أجل الثأر والانتقام من القبيلة الطاغوتية المتورطة بالدم، وليس مجرد انتفاضة يقوم بها جماعة ضد نظام خاص في برهة من زمان.

من هنا تقترن كلمة «الثورة» بالدم، وتقترن بالتسلسل التاريخي، تقترن بمسؤولية الإنسان المستمرة على طول خط التاريخ.

فنحن ـ ويا للعجب ـ يمكننا استخراج فلسفة التاريخ الإسلامي بالمنظار الشيعي من كلمة «الثأر» ـ وهي فلسفة تاريخ متكاملة ـ فلو أمعنا النظر لوجدنا فلسفة تاريخ الإنسان بالمنظار الشيعي تعني التاريخ منذ آدم حتى آخر الزمان، وعلى هذا فهي تعرض التاريخ وتعالجه وتفسره.

ومن المدهش أن انطلاقة التاريخ، والخطوة الأولى تبدأ بالثأر: هابيل، ولم نقل آدم لأن آدم يعني الإنسان، حقيقة الإنسان، أبو الجميع، أبو كلتا القبيلتين، كلي الإنسان، فآدم ليس جزءاً من تاريخ الإنسان، وإنما يبدأ التاريخ الإنساني من بعد آدم حيث انقسم الإنسان إلى قبيلتين ـ قبيلة طاغوتية وقبيلة إلٓهية ـ وهذا هو التقسيم القبلي الذي يرتضيه الإسلام، أي تقسيم الإنسان إلى قطبين متصارعين على طول خط التاريخ، وبدون هذا التقسيم لا يمكن فهم الإسلام، ولا فهم تسلسل الإمامة، ولا فهم رسالة إبراهيم.

ونلاحظ هنا أنّ انطلاقة التاريخ تبدأ من بعد آدم حيث يتشكل المجتمع البشري ـ الإنسان، المجتمع، الحياة، العلاقات الإنسانية، الروابط البشرية ـ بالشكل الذي نشاهده اليوم في مجال محدود جداً، وهذا يعني بداية انقسام المجتمع البشري إلى قطبين حيث انطلق التاريخ من «ثأر». .

القبيلة (نسبة القابيلية إلى قابيل) التي سفكت دماً من القبيلة الهابيلية (نسبة إلى هابيل) ومن ثم بدأت «الوراثة». وثمة ترابط

وثيق بين مفهومي «الثأر» و«الوراثة» وهما ـ معاً ـ يفسران «فلسفة التاريخ» في الإسلام.

فـ «الوراثة» اصطلاح ورد كثيراً في الأدعية والزيارات خصوصاً في شأن الإمام الحسين، ونلاحظ أنّ «زيارة وارث» تعتمد اعتماداً كلياً على هذا المفهوم وهذه ـ الزيارات والأدعية ـ أعطتنا درساً عميقاً، وهي ليست أمراً محدثاً فهمناه الآن أو ارتجلناه ارتجالاً! بل إنّها كانت موجودة في أدبياتنا، وكانت واضحة غاية الوضوح إلاّ أن الغفلة وعدم الوعي حال بيننا وبينها وإلاّ فـ «زيارة وارث» تعني أني أفهم الحسين كحلقة وصل في السلسلة المتصلة منذ آدم إلى آخر الزمان ولهذا أقف بين يديه وأخاطبه واستوحي منه وأعرف من هو؟ وأردد ما قام به دائماً وأبداً.

وعليه، فالبشر في فلسفتنا التاريخية بدأوا حياتهم «بالثأر» ولا زالت القبيلة الهابيلية حتى هذه اللحظة تطالب القبيلة القابيلية بالدم المسفوح، ومن هنا بدأت «الوراثة» وهي موجودة بصور وتعابير مختلفة في القرآن والروايات والأحاديث والتراث الإسلامي والتاريخ و. . . بل نلاحظ أنّ ثمة محاولات لبيان الترابط في سلسلة الأنبياء تحت عناوين مختلفة، بصورة شجرة نَسَبية، أو أنهم وسائل وأدوات ورموز وأمثال وحلقات متواصلة في تيار واحد يشكل «وحدة تاريخية»، كل ذلك لكي لا نتعامل معهم كظواهر مجردة ومنفصلة حدثت ـ كل على حدة ـ في مواقع وأماكن وعصور مختلفة، من دون أن يكون لها تسلسل وارتباط متواكب في حلقات متصلة بعضها ببعض.

ولهذا روى في قصة يوسف النبي، إن عصاه التي يتوكأ عليها كانت في تركته وكان النبي شعيب حاضراً القسمة فقال: أرجو أن تعطوني عصاه تبقى عندي للذكرى، ألا ترون أنها عصا لا تنفع[(١)]؟ فأعطوه العصا فكانت بيده حتى أنشأ بستانه، وفي ذات يوم خرج للسقي وغرس بعض الأشجار، فغرس عصاه في الأرض لينجز عمله ثم يأخذها، فلما عاد وجدها أورقت وصار لها جذور ضاربة في الأرض وكلما حاول قلعها واجتثاثها من الأرض لم يفلح ـ ويبدو أن سراً في المسألة!

فتركها وذهب، ثم مرت الأيام، وجاء موسى وعمل راعياً عند شعيب، وبينما كان يطوف في البستان وقعت عينه على هذه الشجرة من بين الأشجار، فحدّق فيها، فإذا مكتوب عليها، فقرأ الرموز وفهمها وعرفها جيداً، فاستلها من الأرض كما يستل الشعر من اللبن ـ في حين عجز شعيب عن قلعها من قبل ـ ثم وجدها تصلح أن تكون عصا يتوكأ عليها، فأصلحها وحملها فكانت هي نفس العصا التي صرع بها فرعون.

ما أروع هذه القصص وأروع دروسها العميقة. . نلاحظ كيف تربط ـ ربطاً معنوياً ـ رسالة موسى برسالة يوسف مع عدم وجود ارتباط تاريخي ظاهري فيما بينهما، ويوجد في تاريخنا كثيراً من هذه النماذج ـ كما في الخواتم وغيرها ـ يفهم منها كثرة المحاولات

---

(١) كم تحتوي هذه القصص على معانٍ عميقة وتُعادل آلاف الكتب التاريخية الموثقة، انها تحمل روح التاريخ فيما هي محفوظات وحوادث.

المبذولة في تراثنا من أجل وصل هذه الظواهر وإيجاد اللحمة بينها في جميع مراحل البشرية.

وللأسف فإن نظرتنا الكونية ضيقة إلى الحدّ الذي يبدأ فيه عاشوراء من يوم تاسوعاء (التاسع من المحرم) وينتهي ظهر يوم العاشر، ويسكت التاريخ إلى يوم الأربعين حيث مراسم الأربعين وتوزيع الـ «آش»(*)، ثم تنتهي القصة ويختم كل شيء إلى السنة المقبلة. . . يعني أن عاشوراء يستغرق يوماً ونصف اليوم ليس إلاّ، في حال أن القضية لا تنتهي بهذا الشكل، وإنّما هي مؤبدة بأبدية التاريخ، قضية بهذه السعة وأكثر. .

ويا ليت الفرصة تسنح لأقارن لكم بين هذه النظرة الكونية لفلسفة التاريخ وبين أحدث فلسفة تاريخية علمية معاصرة مشهورة الآن بين عامة مثقفي العالم، وحينما نعرف قيمة فلسفتنا التاريخية ويتضح الفرق بينها وبين الفلسفة التي تعتمد على «ديالكتيكية الآلة». . .

فلسفة الحتمية التاريخية الماركسية تقوم على أساس لعبة الحتمية المادية والآلة المؤدية إلى التطور حتى يصل الأمر إلى «وعي الإنسان» وعليه فالإنسان، ومسؤوليته التاريخية ووعيه بذاته كلها معلولة لحتمية المادة (الانتاج ـ والاقتصاد).

في حين تقوم فلسفة التاريخ وحتميته في الإسلام على الوعي

(*) غذاء إيراني يطبخ في المناسبات وغيره.

(وعي الإنسان لذاته) ومخاطبة الإنسان الواعي منذ اللحظة الأولى: بأنك وليّ الدم وعليك أن تقتص لدمك من عدوك. . .

ومتى تحقق ثأرك؟

إنّ مجال المطالبة بالدم واسع عريض. . يبدأ ببداية التاريخ وينتهي بنهايته، فقد وجد الثأر الأول لقبيلة بني هابيل على بني قابيل وتوارثته الأجيال جيلاً بعد جيل بناءً على تلك «الوراثة» كما توارث أولئك إراقة الدماء جيلاً بعد جيل.

فمتى تنتهي ـ فلسفة التاريخ الإسلامي بالمنظار الشيعي؟

متى ينتهي هذا التاريخ، التاريخ الذي نعرفه نحن، التاريخ وليس حقيقة الإنسان؟

لقد انطلق التاريخ القائم على أساس الثأر وعلاقات الانتقام المتبادل، ابتدأ هذا التاريخ واستمر ولا يزال، ولكن متى سينتهي؟

سوف ينتهي بـ «الثأر» أيضاً، وذلك لأن آخر الزمان ثورة عالمية. . . نجاة البشرية. . . تحقق العدالة والمساواة والسلام، ولكن أهم لقب يتسم به آخر منقذ للبشرية من القتل والثأر ـ الذي يتشكل منه تاريخ الإنسان ـ هو «المنتقم».

لأي شيء يثأر وممّن ينتقم؟

الجميع يقولون: ينتقم من قتلة سيد الشهداء!

كلا إنّه «الثأر» الملقى على عاتق بني هابيل، وهذا الثأر يتراكم في كل جيل، فكل جيل يهب استجابة لاستغاثات تلك

الروح التي تضج وتصرخ وتستنجد بأفراد القبيلة وتلاحقهم أينما حلّوا أو ارتحلوا وفي أي حال كانوا وبأي شغل اشتغلوا، وتحرّض الغيارى والأحرار وأصحاب الحمية والفتوّة على الثأر، فيقدّمون الضحايا في هذا الطريق وتراق الدماء، ويضاف «ثأر» جديد إلى «الثأر» السابق، ويلقى الجميع في ذمة «الجيل الوارث»، وعلى الجيل القادم أن يأخذ ثأرين وينتقم من بني قابيل ـ قبيلة العدو وقبيلة الطاغوت ـ لدمين، وهكذا تسفك الدماء في عملية «المطالبة بالثأر الجديد»، فقاتل ومقتول، وتصبح هذه «ثارات» تتراكم على «ثارات»، ودماء تراق يوماً بعد يوم، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وتُلقى في ذمة الأجيال القادمة.

وهكذا يكون «الثأر» في فلسفتنا التاريخية في حالة تزايد وتراكم مستمر، «ثأر» على «ثأر»، وتشتد الصرخات ويعلو الضجيج لدعوة القوم إلى الانتقام وأخذ الثأر جيلاً بعد جيل، بحيث لو كانت ثمة «غيرة» و«حمية» و«وعي» لوجد تاريخنا ملآن يعجّ بالضجيج والدعوات المتلاحقة لأخذ «ثاراتنا». . بيد أن هذه الثارات لم تكن «ثارات قبلية» وإنّما هي «ثأر الله»، «ثأر الله» الذي يجب أن يؤخذ من بني الطاغوت القتلة.

جيد، وكيف تكون الحتمية في تاريخنا؟

إنّ التاريخ الذي يعتمد ـ إلى هذا الحد ـ على المطالبة بالدم، والرسالة والوعي والدعوة إلىٰ أخذ الثأر لا بد أن يقوم علىٰ أساس «إرادتنا» نحن، ولكنه في نفس الوقت حتمي لا بد أن ينتهي إلىٰ

تصفية الثأر كاملاً تاماً، واستيفاء جميع «ثارات الله» علىٰ طول تاريخ الإنسان، والانتقام المطلق العالمي لجميع الثارات وبالتالي إلىٰ خمود نيران الصراع وسكون الأرض ومن عليها، وهذا حتمي قطعي، وهو معنى الحتمية التاريخية القائمة على أساس دعوة الإنسان للثأر والأخذ بالدم.

لاحظنا أن مفهوم «الثأر» و«الوراثة» معاً يفسر لنا ـ بالمنظار الشيعي ـ «تاريخ الإنسان» و«فلسفة التاريخ» حيث يبدأ بـ «ثأر» ويستمر ويتكامل ويتوسع حتى يبلغ حدّ الانفجار. والانفجار عبارة عن الانتقام وأخذ الثأر من بني الطاغوت، وعندها تتخلص قبيلة هابيل من ثقل الدماء الموروثة جيلاً بعد جيل، ويخف كاهلها، وتتحرر ذمتها، ويومها تنجو البشرية وتنال العدالة والسلام.

وهكذا تبقى قصة الإنسانية إلىٰ ذلك اليوم، قصة الجهاد والسعي من أجل «الثأر» من آدم إلى آخر الزمان، والحسين وارث من الورثة، صار هو بنفسه وأبوه وابنه ثأراً، كلهم «ثارات الله» أبوه «ثارات الله» وابنه «ثارات الله».

فأي معنى عميق تعطيه حينئذٍ كلمة «الثورة» من هذا المنظار؟!

«الثورة» تعني كل شيء: الجهاد، السعي، الانتفاض، النهوض، الحركة.

وما هو الهدف؟ الهدف الانتقام وأخذ الثأر من بني قابيل الملطخة أيديهم بدماء ثاراتنا العزيزة، والاستجابة لدعوة كل تلك

الطيور التي تحوم حول قبيلتنا دائماً؛ تدعونا وتضجّ وتصرخ فينا وتحرضنا علىٰ أخذ الثأر والمطالبة بالدم والانتقام.

«**الثورة**» «**الثأر**» «**الوراثة**» قصة بداية التاريخ، يعني أن الثأر الأول «هابيل»، ومن ثم آخر الزمان يعني تحقق الثأر والانتقام العالمي، وهذا ما يفسر «فلسفة تاريخ الإسلام» بالمنظار الشيعي...

«**يا ثأر الله وابن ثأره**».

بعد الشهادة
الشهادة خطاب أحمر لكل الأجيال

أخواتي.. إخوتي..!

الآن مات الشهداء، ونحن الموتىٰ أحياء!، صدع الشهداء برسالتهم وبلّغوا خطابهم، ونحن الصم مخاطبوهم.. رحل أولئك الأفذاذ الذين امتلكوا ناصية الشجاعة وأقدموا على اختيار الموت لما رأوا الحياة متعسرة أو مستحيلة، رحلوا وتخلفنا نحن الذين لا نعرف الحياء، بقينا فعمّرنا مئات السنين، وللدنيا أن تضحك منا وتسخر حين نبكي ـ نحن نموذج الجُبن والذُل ـ ونذرف الدموع على الحسين وزينب مثال الحياة والعزّة، وهذه صورة أخرى لظلم التاريخ، حين ننعي نحن الجبناء قافلة الأبطال ونؤبنهم...

لقد ترك الشهداء اليوم خطابهم الذي سطروه بدمائهم وسقطوا على الأرض بين ظهرانينا وأمام أعيننا، واستقرت أجسادهم تواجهنا لتحرض القاعدين على مدى التاريخ وتدعوهم للنهوض...

تكمن في «التشيع» ـ كما في أدبياتنا وديننا وتاريخنا ـ أعز الجواهر التي صاغتها البشرية، وأكثر العناصر فاعلية في تحريك التاريخ وهزه ومنحه الروح النابضة بالحياة، وأبلغ الدروس الإلٓهية التي تلقن الإنسان كيف يرقى إلى الله. . . والآن أصبحنا ـ نحن الجبناء الأذلاء ـ ورثة كل هذا الرصيد الإلٓهي العزيز. . .

نحن ورثة أعز وأعظم الأمانات التي جاءت حصيلة ملاحم الجهاد والشهادة، وورثة القيم الإنسانية العليا في تاريخ الإسلام.

نحن ورثة كل هذا. . . وعلى عاتقنا مسؤولية أن نبني من أنفسنا أمة لتكون مثالاً وقدوة للبشرية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١).

هذا خطابٌ لنا. . .

نحن مطالبون ومسؤولون عن بناء الأمة النموذجية بما ورثناه من شهدائنا ومجاهدينا وأئمتنا وقادتنا وعقيدتنا وكتابنا، نصنع الأمة القدوة لنكون شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً علينا وقدوة لنا. .

رسالة ما أثقلها! رسالة تضخ في البشرية روح الحياة والحركة. . هذه الرسالة الثقيلة العظيمة على عواتقنا نحن العاجزين عن حياتنا اليومية!

رباه. . أي حكمة هذه؟!

---

(١) البقرة: ١٤٣.

أو نقيم، نحن الغرقى في أوحال الرذيلة ومستنقعات حياتنا الحيوانية اليومية، مآتم التأبين والعزاء على الرجال والنساء والأطفال الذين سجلوا في كربلاء وجودهم وشهادتهم أمام التاريخ والله والحرية. . . سجلوا حضورهم أمام التاريخ وفي ساحة القدس الإلّهي وفي ميادين الحرية تسجيلاً أبدياً خالداً. .

رباه وأي ظلم ـ من ثم ـ لآل الحسين؟!

والآن، اختتم الشهداء أعمالهم. . ونحن نواسيهم في «ليلة الغربة»(*) وبعد قليل نعلن عن اختتام المراسم ثم نرى كيف نلتحم مع يزيد ونشاركه في قصته باسم البكاء على الحسين والهيام في حبه!! الحسين الذي أراد لهذه القصة أن تنتهي وتنطوي صفحاتها!!

الآن اختتم الشهداء أعمالهم، ورحلوا بصمت، رحلوا جميعاً وأدى كل واحد منهم دوره وأحسن الأداء! المعلم، المؤذن، الشيخ، الشاب، الكبير، الصغير، المرأة، الخادم، السيد، الشريف، الطفل، كل واحد منهم، مثّل شريحته الاجتماعية أصدق تمثيل، وخلّد وراءه درساً لكل الأطفال، وكل الشيوخ وكل النساء وكل الكبار وكل الصغار!

لقد اختاروا ميتةً رائعةً فيها كل الجمال والسعادة والحياة!

* * *

(*) هي ليلة الحادي عشر من المحرم، وقد اعتاد معظم الشيعة على إقامة مراسم العزاء في هذه الليلة، تعبيراً عن المواساة لعائلة الحسين التي أذهلتها فداحة المصاب.

لقد أنجز أولئك الشهداء اليوم عملين. . .

لقد وقفوا جميعاً في صف واحد وعلى صعيد واحد أمام الشهادة. . . وقفوا جميعاً بكل مستوياتهم، من رضيع الحسين إلى أخيه، ومن الحسين نفسه إلى عبده، ومن قارىء القرآن إلى معلم أطفال الكوفة، إلى المؤذن، إلى ذاك الرجل القريب أو الغريب، وإلى ذاك الرجل الشريف العظيم ذي الوجاهة والمكانة في المجتمع، وإلى ذاك الرجل العاري من أي فخر اجتماعي. . .

ووقفوا جميعاً يواجهون الشهادة على حدٍّ سواء ليلقنوا جميع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والشباب على طول خط التاريخ درساً ويعلموهم: كيف يحيون ـ إن استطاعوا ـ وإلاّ فكيف يموتون.

أنجز هؤلاء الشهداء عملاً آخر:

شهدوا بدمائهم لا بالكلمات. . شهدوا في محكمة تاريخ الإنسان، كلاً بالنيابة عن طبقته. . شهدوا على أن الناس ـ كل الناس ـ والقيم الإنسانية جميعها مدانة مضطهدة، في ظل النظام الواحد المتفرد الحاكم على تاريخ البشرية. . . النظام الذي سخّر السياسة والاقتصاد والدين والفن والفلسفة والفكر والعواطف والأخلاق البشرية، وصيّرها أدوات بيده ليجعل الإنسان ضحية مطامعه، ويحوّل كل شيء إلى قاعدة لحكومة الظلم والجور والجريمة.

حكم واحد على كل التاريخ. . ظالم واحد يحكم التاريخ. . . جلاد واحد يقتل الشهداء، وأبناء كثيرون صاروا

ضحايا لهذا الجلاد. . . نساء كثيرات يذوين تحت سياط هذا الجلاد الحاكم على التاريخ. . .

شيّدوا القصور على حمامات الدم التي سفكوها. . . يضج التاريخ بصور الجوع والاستعباد والمجازر العامة التي ذهب ضحيتها النساء والأطفال والرجال والأبطال والعبيد والمعلمون من كل الأجيال وفي كل العصور.

واليوم، جاء الحسين بكل وجوده إلى شاطىء الفرات ليشهد في محكمة التاريخ. . .

جاء ليشهد لصالح المضطهدين والمظلومين عبر التاريخ. . .

جاء ليشهد لصالح المدانين والمقهورين في حكومة الجلاد الحاكم على التاريخ.

يشهد على هذا الجلاد «الضحاك» كيف كان يحطم أدمغة الشباب على طول خط التاريخ. . . يشهد بعليّه الأكبر. !

ليشهد. . كيف كان الأبطال يموتون تحت نير أنظمة الجريمة الجائرة. . يشهد بنفسه!

ويشهد أن المرأة في ظل النظام الحاكم على التاريخ إما أن تستسلم للأسر فتكون دمية بين عرائس السلطان، تحكمها قوانين «الحريم» وإما أن تتسلح بالحرية فتكون حادية لضغن الأسرى وخليفة لقافلة الشهداء. . . يشهد بزينبه!

ويشهد على أن الجلاد في أنظمة الظلم والجور والجريمة لم يرحم رُضَّع التاريخ الأبرياء، يشهد بطفله الرضيع.

جاء الحسين بكل وجوده يشهد في محكمة الجريمة في التاريخ لصالح أولئك الذين لم تسجل أبداً شهادة لصالحهم، وإنما ماتوا بصمت وسلبوا حق الدفاع. .

والآن، اختتمت وقائع المحاكمة. . وأنجز الحسين مهام رسالته الآلهية العظيمة وأدّى ما عليه من مسؤوليات جسيمة، وشهد هو وجميع أعزائه وكل وجوده بأفضل الوسائل التي لا يقدر عليها سواه.

أحبتي!

إن التشيع الذي نلاحظه اليوم بهذه الصورة، حيث يقمع من يريد التحدث عن التشيع الصادق الخالص الثائر الذي يضخ اليقظة والوعي في حياة الناس، وتتناوشه مُدى الأصدقاء قبل خناجر الأعداء. . . إن في هذا التشيع الخالص دروساً وعبراً عظيمة وغنائم كثيرة وقيماً إلٓهية سامية وتراثاً عزيزاً وأنفاساً تبعث على الحيوية والحياة، وهو قادر على إحياء المجتمع والأمة والتاريخ ومعالجة همومها ومشاكلها.

ومن أهم ما في تاريخ التشيع من تراث، واعظم قيمِهِ فاعلية وقدرة على البعث والإحياء هي «الشهادة».

إلاّ أننا، كما قال جلال(*) «منذ أن هجرنا سُنّة الشهادة

(*) جلال آل أحمد مفكر ومناضل إيراني، تركزت إنجازاته الفكرية الأساسية حول مسائل الهوية والأصالة والمعاصرة، ويعتبر كتابه «غرب زدگی: أي مرض التغريب» من الأعمال المشهورة في إيران التي شخصّت عوامل وأعراض الإصابة بالاستلاب وتداعي الهوية.

وبادرنا إلى تعاهد قبور الشهداء، رضينا بالموت الأسود طوقاً في أعناقنا» فبدلاً من أن نكون «شيعة علي» و«شيعة الحسين» و«شيعة زينب» أي «أتباع الشهداء» أصبح رجالنا ونساؤنا يقيمون مآتم العزاء على الشهداء لا غير، وهكذا بقينا في عزاء دائم!

بأي دهاء غيروا خطاب الحسين وأنصار الحسين وبدّلوا رسالتهم الخالدة، خطابهم الموجه للبشرية جمعاء.

الأعداء الحاقدون يحدقون به من كل مكان.. وهو يصرخ «هل من ناصر ينصرني».. ألا يعلم أن ليس ثمة أحد نصره ويثأر له؟ إنه سؤال يعترض التاريخ... تاريخ الغد البشري، وهو سؤال للمستقبل... سؤال لنا جميعاً..

إنه سؤال ينتظر الحسين جوابه من محبيه... إنه دعوة إلى الشهادة وجهها الحسين إلى جميع أولئك الذين يعظمون حرمة الشهداء.

ولكننا أخمدنا هذه الدعوة... وأسكتنا هذا الخطاب... وخيبنا أمل الحسين بالنصرة حين كان «يبحث عن شيعة» و«يطلب الأنصار» في كل عصر ومن كل جيل... أخمدنا تلك الصرّخة حينما قلنا للناس: «إن الحسين يريد الدموع... يريد الصراخ والعويل والنحيب... يريد هذا ولا يريد غيره، هذا خطابه وليس له خطاب آخر... ميت يريد التأبين والرثاء، وليس هو شاهداً شهيداً حاضراً في كل مكان وكل وقت، يصرخ باحثاً عن «أتباع».

أجل هكذا قالوا لنا ويقولون!

لكل ثورة وجهان: الوجه الأول «الدم»، الوجه الثاني «الخطاب» والشهيد يعني الحاضر! يعني من يختار بنفسه الموت الأحمر...

يعني من يقدم على الشهادة ليبدي عشقه للحقيقة بعد أن كادت تموت، يقدم على الشهادة باعتبارها السلاح الوحيد للجهاد من أجل القيم السامية التي تناولتها أيادي المسخ والتحريف.

الشهداء أحياء حاضرون، وشهداء ينظرون، ويراقبون بين يدي الله، بل بين يدي الناس أيضاً وفي كل عصر وقرن وأرض وزمان.

وأما الذين يتهافتون على الدنيا ويستسلمون للذل من أجل البقاء على قيد الحياة، فإنهم موتى التاريخ بل هم أحقر الموتى، هاكم انظروا إلى الذين تقدموا بين يدي الحسين يتسابقون إلى مناياهم بسخاء، ويرجحون الموت على الحياة بشجاعة، فيما كان الطريق إلى التنصل مفتوحاً أمامهم، وسبل البقاء على قيد الحياة سالكة لهم، وكان باستطاعتهم التسلل تحت جنح الليل وتحت غطاء من الشرعية المبررة الشريفة... وكانت التبريرات ومئات الحجج الشرعية والدينية متوفرة لديهم.. إلاّ أنهم لم يتأوّلوا ولم يبرروا ومن ثم ماتوا... فهل هؤلاء هم الأحياء؟ أم أولئك الذين رضوا بالذل، ورزحوا في حضيض الهوان، وتهاووا في مساقط الرذيلة، فتركوا الحسين وتجرعوا اذلال يزيد وظلمه؟! أيّ من أولئك ما زال حياً؟

إن الذين لا يكرّسون الحياة في جثة متحركة يرون بوضوح «حياة» الحسين ويلمسون «شهوده وحضوره» بكل وجودهم، كما يرون بوضوح «موت» أولئك الذين استسلموا للذل لكي يبقوا على قيد الحياة!

لقد أثبت الشهداء، ويثبتون، وعلّموا ويعلّمون وصرخوا ويصرخون: «إن يا أيها الواهمون الذين تظنون أن العجز يعفي عن الجهاد ضد الظلم والاضطهاد، والقائلون إن النصر على الأعداء مشروط بالتفوق والغلبة عليهم. . . كلا إنكم في تيه تعبثون، لأن الشهيد إنسان ينتصر على العدو في زمن الهزيمة والعجز، ينتصر عليه بموته ويفضح العدو حينما لا يستطيع دحره وهزيمته».

والشهيد قلب التاريخ، فكما أن القلب يضخ في العروق المتيبسة الميتة الدم والحيوية، فكذلك الشهيد تماماً يضخ دمه في جسد المجتمع المحتضر. . . المجتمع المنحدر نحو الموت. . . المجتمع الذي فقد أفراده الثقة بأنفسهم واستسلموا للهزيمة. . . المجتمع الذي أبتلي بالموت البطيء، المجتمع الذي مكّن العدو من نفسه بالاستسلام له. . . المجتمع الذي تناسى الشعور بالمسؤولية، والذي عقم عن الإنجاب وتقاعس عن الحياة والحركة.

الشهيد حاضرٌ، وخالدٌ إلى الأبد.

إذن من هو الغائب؟

لقد علمنا الحسين درساً أعظم من درس شهادته، بتركه

مراسم الحج ناقصة وذهابه نحو الشهادة، الحج الذي جاهد من أجل إحيائه كل أسلافه، أجداده، وجده وأبوه. تركه ناقصاً، واختار الشهادة، إنه لا يتم مراسم الحج، من أجل أن يعلم كل الحجاج في التاريخ، المصلين في التاريخ، والمؤمنين بسنّة إبراهيم، أنه إن لم تكن الإمامة، إن لم تكن القيادة ان لم تكن. . . وإن تكن هنالك غاية، إن لم يكن الحسين ويكون يزيد، فإنه لا فرق بين الطواف حول بيت الله، والطواف حول بيت الأصنام!

في تلك اللحظة التي ترك فيها الحسين حجه ناقصاً، ونادى بالرحيل إلى كربلاء فان الذين كانوا يطوفون حول بيت الله أثناء غياب الحسين، يتساوون مع الذين كانوا يطوفون في ذات الوقت حول قصر معاوية الأخضر، لأن الشهيد حاضر، في كل ميادين الحق والباطل، وشاهد على كل الصراعات بين العدل والظلم، حاضر، ويبلغ من حضوره أنه يقول لكل إنسان: إذا لم تكن حاضراً في ميدان ما، وإذا كنت متخلفاً عن ساحة الحق والباطل في زمانك، فكن أينما شئت!

فإذا لم تكن في ساحة الحق والباطل، وإذا لم تكن شاهد عصرك وشهيداً على الحق والباطل في مجتمعك، فكن إذاً، أينما شئت، لا فرق بين أن تكون قائماً للصلاة حينذاك أو جالساً لشرب الخمر، فكلاهما سيان.

الشهادة «حضور في ساحة صراع الحق والباطل المستمرة في التاريخ».

والتخلف!؟

أولئك الذين تركوا الحسين وحيداً، وتخلفوا عن الحضور والمشاركة والاستشهاد كلهم على حد سواء بفرقهم الثلاث:

سواء أولئك الذين تركوا الحسين من أجل أن يصبحوا عملاء يزيد، وسواء أولئك الذين زحفوا إلى زوايا العزلة بحثاً عن الجنان وتركوا الحسين وحيداً ونفوسهم مطمئنة وضمائرهم هادئة فراراً بأنفسهم خارج متاعب مصاولات الحق والباطل، مشتغلين بعبادة الله في أركان المحاريب وزوايا البيوت، وسواء أولئك الذين اخلدوا إلى الصمت خوفاً من الاستبداد والقوة.

وذلك لأن الحسين أينما حضر ـ وهو حاضر في كل قرن وكل عصر ـ فلا بدّ أن تكون معه، فإنْ لم تكن معه وفي دائرته فكن ـ حيث تشاء ـ مؤمناً أو كافراً، مجرماً أو ورعاً.

هذا هو معنى هذا الأصل في التشيع، أي أن قبول لكل عمل، قيمة كل عمل، تتعلق بمدى إرتباطه بالإمامة والقيادة والولاية، فان لم يكن كذلك فيصبح كل شيء خواء أجوف لا معنى له كما هو الآن فعلاً.

والآن، أعلن الحسين عن حضوره في كل العصور، أمام كل الأجيال وفي كل الحروب، وكل الصراعات، وميادين الجهاد، وكل ميادين الأرض والتاريخ والزمان.

مات في كربلاء ليبعث في كل الأجيال والعصور.

وأنت، وأنا، ونحن الذين يجب أن نبكي على مصيبتنا حيث تخلفنا عن الحضور.

أجل، لكل ثورة وجهان: الدم والخطاب حيث أدى الحسين وأصحابه اليوم الرسالة الأولى، رسالة الدم. وأما الرسالة الثانية، فهي رسالة الخطاب البلاغ، إيصال خطاب الشهادة إلى الناس، كي يصبح الإنسان لسان الدماء الثائرة والأجساد الصامتة، لكي يصبح متحركاً بين الموتى.

وتبدأ رسالة البلاغ من عصر يوم عاشوراء! تتحملها أكتاف رَقيقة لامرأة. «زينب»! ـ المرأة التي تعلّم الرجال في مدرستها الرجولة والمرؤة والشهامة.. المرأة التي تعلمت الرجولة في ركابها الإقدام والشجاعة ـ ورسالتها أثقل من رسالة أخيها. أولئك الذين امتلكوا شجاعة اختيار موتهم، لم يفعلوا شيئاً غير أنهم أقدموا على اختيار عظيم، أما واجب أولئك الذين سيبقون أحياء من بعدهم، فصعبٌ جداً. وقد بقيت زينب، تجر وراءها قافلة الأسرىٰ، وتتقدمها مدَّ البصر، أرتال العدو تملأ الآفاق، وهي تحمل على عاتقها أعباء رسالة أخيها الثقيلة الخطرة.

دخلت المدينة، عائدة من ساحة المعركة، وقد تركت خلفها بساتين الدم الحمراء، جاءت وعبق ورود الشهادة يفوح من أثوابها ويملأ الأرجاء... دخلت مدينة الجريمة، عاصمة السلطة، عاصمة الظلم والجور والمجازر... دخلت تصرخ بوجه السلطة والقوة، بوجه العملاء، والجلادين وعبيد الاستعمار والاستبداد،

هادئة، منتصرة، طافحة بالفخر:

«الحمد لله الذي أكرمنا وأعزّنا أهل البيت.. الحمد لله الذي أكرمنا بالنبوة والشهادة..».

لقد حملت زينب رسالة التبليغ، تبليغ خطاب الشهداء الأحياء الصامتين؛ لأنها بقية السيف وعليها أن تكون لسان كل أولئك الذين قطعت ألسنتهم سيوف الجلادين.

إن لم يكن للدم خطاب فسوف يبقى أخرس أبكم في التاريخ، وإذا لم يترك الدم رسالته لكل الأجيال، ويدوّي صوته.. في كل العصور فسوف يستوعبه الجلاد ويحصر الشهيد في عصر واحد وزمن واحد.

ولو لم تنقل زينب خطاب كربلاء للتاريخ، لدفنت كربلاء في التاريخ، وحرم منها المحتاجون إليها، ولما سمع أحد صوت الذين تحدثوا بدمائهم مع كل الأجيال؛ لهذا كانت رسالة زينب ثقيلة وصعبة.

رسالة زينب، بلاغ لكل الناس، خطاب للإنسان أينما كان ومتى كان، خطاب لكل الباكين على موت الحسين، وكل الذين يحنون رؤوسهم احتراماً وإكباراً أمام الحسين، وكل المعترفين بشعار الحسين القائل إن «الحياة عقيدة وجهاد».

ورسالتها هي:

«ألا يا كل من تسمعون! يا كل من تربطه صلة وعهد بهذه

الأسرة، ويا كل مؤمن برسالة محمد ﷺ، فكر واختر! إستمع إلى بلاغ شهداء كربلاء في كل عصر وكل جيل وكل أرض، إستمع إليهم حيث قالوا: لا ينال الحياة الطيبة إلا من مات ميتة طيبة.

وقل: يا كل المؤمنين برسالة التوحيد، رسالة القرآن، ومنهج علي وآله، يا كل الذين ستأتون بعدنا، هكذا كانت هذه الأسرة، لقد علمت البشر فن الحياة الطيبة، وفن الموت الأفضل؛ ذلك لأن كل شخص يموت كما يعيش.

إنّها تخاطب البشرية جمعاء.

إن لم يكن لكم «دين» فكونوا «أحراراً».. تحملوا المسؤولية إتّباعاً للدين ان كنتم مؤمنين، واستجابة لنداء «الإنسانية» ان كنتم أحراراً.. كونوا شهداء على عصركم.. شهداء على صراع الحق والباطل في زمانكم.. إشهدوا ككل متدين أو حر... لا تبتعدوا عن ساحة المعركة بين الحق والباطل، واعلموا أن شهداءنا أحياء، حاضرون، ناظرون، نماذج عملية، وقدوات صالحة.

والشهيد يعني كل هذا.

* * *

لكل ثورة وجهان: الدم والخطاب.

وعلى الذين يختارون مسؤولية الحق، ويعرفون ماذا تعني «مسؤولية الانتماء للتشيع»، وماذا تعني مسؤولية «أن يكون الإنسان حراً»، عليهم أن يحدّدوا موقفهم في الصراع الدائم، مدى التاريخ، في كل زمان ومكان انطلاقاً من شعار: «كل أرض كربلاء، وكل

شهر محرم، وكل يوم عاشوراء» . . لا بد أن يحدّدوا موقفهم ويختاروا إحدى اثنتين: إما الدم أو الخطاب (الإعلام)، إما أن يكون حسيناً أو زينبيا، إما موتاً كذاك أو بقاء كهذا.

لا بدّ أن يختار ما دام يؤمن بالعمل ويرفض التخلف عن الساحة والغياب عن ميدان الصراع.

أعتذر ـ على أية حال ـ لقد فات الوقت، ولم يعد في الوقت متسع، والحديث طويل، إذ كيف يمكن التحدث خلال محاضرة واحدة عن معجزة في تاريخ البشر، صنعها الحسين وصاغتها زينب عليها السلام؟

لقد أردت الانطلاق في حديث طويل بيد أني سأوجزه بكلمة واحدة:

ان رسالة زينب «بعد الاستشهاد» إنما هي:

«أن الذين رحلوا أدّوا دوراً حسينياً . .

والذين بقوا عليهم القيام بدور زينبي، وإلاّ فانهم يزيديون» .

النظرة الشيعية للتاريخ

لا مناص من اختصار الحديث وتقديمه بصورة مضغوطة ومكثّفة جداً بل عرضه بشكل فهرست والإشارة إلىٰ خطوطه العريضة؛ وذلك استجابة لملاحظة أحد الأصدقاء حيث أكد عليّ الالتزام بالوقت وعدم تجاوز الساعة الواحدة المخصصة لي، إنّه تذكير في محلّه نظراً لسوء سوابقي في الثرثرة، بيد أني لم أحاضر في مدّة عمري ـ غير ما كان في السنة أو السنتين الأخيرتين ـ ولم أكن أعتقد فيما مضى أنّ إنساناً مثلي يستطيع أن يقول شيئاً ويتحدث في المجتمع ويعمل عملاً نافعاً، والآن لست مقتنعاً بأني محاضر ولا أن محاضراتي مؤثرة وذات نتائج نافعة في الوسط الإجتماعي، ومع هذا فإني أتحدث، ولا أتحدث لكي أحاضر ومن خلال المحاضرة أقدّم خدمة للمجتمع أو الدين، بل أتحدث لأني لا أستطيع أن أسكت وأبقى صامتاً منطفئاً. فأنا إذاً لا أتحدث باعتباري خطيباً أو واعظاً أو محاضراً، بل أتحدث باعتباري فرداً عادياً بسيطاً من أفراد المجتمع، فرداً أنتمي إلىٰ هذا الجيل وهذا العصر، وأصرح وأضجّ من خوفي وألمي الذي أشعر به، ولا يمكن أن يقال لمتألم: لك أن تصرخ إلىٰ هذا الحدّ، ولا أن يقال لمتوجع يئنّ:

لك أن تئنّ وفق البرنامج، وتئن ضمن الضوابط والقوالب المعينة؛ ولذلك فإني لا أحاضر ولا أعرف الالتزام بالبرنامج ولا أعظ الآخرين، بل إنّي أحتاج إلىٰ الموعظة أكثر من أي شخص آخر، بيد أني باعتباري واحداً من شبان هذه المرحلة، وواحداً ممن يعيشون حاجات العصر أردت أن أفتح معكم حديث القلب وأشكو شجوني لكم أيّها الأخوة الأعزاء أنتم يا أبناء الجيل المؤمن الملتزم المعاصر، وأصرخ منوِّهاً بالخطر الماثل الذي أحسه؛ الخطر المحدق بالتراث والثقافة والمعنويات والمقدسات وكلّ شيء، الخطر الحقيقي الذي يتهدد وجودها وينبىء عن فنائها. ولهذا فإني غير مستعد لقبول النصائح المنطقية الصحيحة التي يتقدم بها أهل الخير وذوو الألباب والمعروفون بالعقل والمنطق بالرغم من إيماني بها.. إني أرفض ما يقولون من أن: ما تشعر وتحسّ وتفكر به صحيح ولكن «ليس من المصلحة أن تتحدث به» «لا بد أن تقوله بالتدريج» «ما كل ما يُعرف يقال» «قل بالكناية لا بالتصريح» «غلّف حديثك ولا تكن صريحاً»، ليس ثمة وقت للكناية ولربما أعض علىٰ الجراح واسكت، أمّا أن أحسب حساب المصالح حينما يرتفع الأنين ويعلو النشيج وتكبر الصرخات، فلا.

❊ ❊ ❊

تشيع أبي ذر وتشيع أبي سفيان

لقد انحرفت جميع الأديان في التاريخ، دخل فيها ما ليس منها، واختلط الحابل بالنابل، وغزتها العناصر الخارجية الغريبة

ومسخت صورتها وتغيّرت معالمها، وزوقتها أيدي خبراء «تجميل الأديان» في التاريخ، بيد أننا لم نعهد أي مذهب وأي دين في تاريخ الإنسان ـ على حدّ معرفتنا ـ منذ البداية حتىٰ الآن، كالتشيع ابتلي بتغيير المسيرة واختلاف الرؤى بل تناقضها حتى كانت المسافة بين النظرتين تفوق المسافة بين الكفر والدين[١].

ولم تكن قصة التشيع تنتهي عند العناصر الغريبة الداخلة عليه ولا عند الانحراف والتجمد، بل هي قصة العملة الواحدة (باسم الشيعة والدين والمذهب) ذات الوجهين المتناقضين تماماً.

أحدهما: الوجه الذي نراه نحن وهو أسوأ وأقبح ثقافة ونظرة يتبناها إنسان اليوم.

والوجه الآخر: ـ كما نراه ونعرفه في التاريخ ـ وهو الدور المؤثر في تاريخ الإسلام والجهة والجبهة المهمة والموقف الفاعل في قضايا السياسة والمجتمع والفكر والعقيدة والفلسفة والرؤىٰ والأنظمة الإجتماعية وجميع الابعاد الإنسانية، إنه أروع وأرقىٰ وأسمىٰ مذهب شهده التاريخ.

إن من الخطأ أن نسأل عن رأي فلان في الشيعة والتشيع، وما هي اراؤه وعقائده الشيعية؟ وهل هي صائبة أم لا؟ ضعيفة أم قوية؟ وما شاكل. . .

---

(١) أقول هذا باعتباري استاذ «تاريخ أديان» لا باعتباري مبلّغاً شيعياً وهذا ما يؤمن به جميع العاملين في «تاريخ الأديان» ممن تناولوا تاريخهم وتراثهم تناولاً علمياً سواء كانوا ينتمون إلىٰ دين أو مذهب أو لا ينتمون.

بل لا بد من البحث عن التشيع، أي تشيع هذا الذي نتحدث عنه؟ وأي شيعة نحن؟ فإننا إذ نسمع عن «الشيعة»، ونؤمن بالتشيع، ونختار الإسلام من بين الأديان المختلفة والفهم الشيعي من بين المذاهب الإسلامية، لا بد لنا أن نحدد الموقف ونعرف من هم الشيعة؟ أي شيعة؟

عجباً، لقد وجد هذان الوجهان المتناقضان للتشيع ووجد هذان النمطان للشيعة منذ أن تبلور شكل التشيع في التاريخ.

فبعد أن نحّوا علياً وأبعدوه عن قيادة المجتمع الإسلامي وأجلسوه داره ـ وهو أول قرابين الإسلام لأن الإسلام إسلامان أيضاً ـ وإذا بوجه جديد يبرز في التاريخ لأول مرة مرتدياً أثواب الشيعة! اسمه أبو سفيان! وهو يقول:

يا علي، لا تسكت عن حقك، أرأيت كيف سلبوك حقك وجعلوك جليس دارك؟! لماذا ترضى بالظلم والجور؟! قم وخذ حقك ولأملأنّ المدينة عليهم خيلاً ورجالاً ولاكثرنَّ عليهم البارقة دفاعاً عنك وعن حقك[1].

هذا أول شيعي من هذا النمط.

والشيعي الآخر اسمه علي ـ شيعة محمد ﷺ ـ يقول:

---

(١) قال أبو سفيان لعلي: ما بال هذا الأمر في أقل حيّ من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً! قال: فقال علي: يا أبا سفيان طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً.. (تاريخ الطبري: ٢/ ٢٣٧ أحداث سنة ١١).

يا أبا سفيان، لا تنتهي أحقادك وضغائنك على الإسلام، على رسلك لماذا لا تترك الأمر؟ إذهب فلا حاجة لي بخيلك ورجلك.

وهكذا وجد أول شيعي مزيف وتجلى في شخصية ارذل إنسان في تاريخ الإسلام، والشيعي الآخر أبو ذر، وكلاهما ظهرا ـ يعني المسافة بين أبي ذر وأبي سفيان ـ منذ انطلاقة التاريخ الشيعي وتشكيل نواته الأولى[1].

نموذجان للشيعة:

أحدهما: أبو ذر، الذي ظهر في تاريخ الإسلام بعد رحيل النبي مباشرة، أبو ذر اسمى مثال متدفق بالحيوية يثور بكل وجوده لأول وهلة ضد الجور والانحراف في النظام المتظاهر بالإسلام فيخمدونه هناك في الربذة.

والشيعي الآخر: أبو سفيان، يعرض عضلاته في تأييد علي ليفوق في ذلك أبا ذر والمقداد!

هذان نموذجان للشيعي، يمتدان إلى جانب بعضهما البعض دائماً وأبداً على طول خط التاريخ، ويتجليان في أشكال وأنواعِ وصور ومجاولات وألوان شتى. . . .

وعليه؛ فـ«شيعة علي» عنوان كلّي عام لا يحدد موقف

---

(١) لقد وجد التشيع المعنوي والفكري منذ وجود الإسلام، وليس التشيع إلاّ فهماً خاصّاً للإسلام، لا يمتاز بأصل إضافي ولا أُصول مذهبية وليس الشيعة فرقة ولا طائفة ولا أي شيء آخر.

الإنسان، فمن أي «شيعة علي» أنتم؟ شيعة كأبي ذر أم شيعة كأبي سفيان؟

«أبو ذريون» أنتم أم «أبو سفيانيون»؟

أي شيعة أنتم؟ هل أنتم شيعة حملوا روح الإسلام وحقيقته ومشوا على طريقته وسنته واستقاموا على الصراط المستقيم والسمت الأولي الأصيل حتى في لحظات التاريخ الحساسة «حيث كان روح الإسلام يتغيّر ويتبدل إلى روح الشرك والعنصرية والطبقية والأسرية. . . »؟.

هل تصمدون أمام الوان العذاب الذي يصبه بنو العباس وبنو أمية ومن جاء قبلهم وبعدهم، وترفعون دائماً وأبداً لواء العدالة والمساواة والحرية والحقيقة الفكرية والتوحيد العقائدي؟

أو أنّكم «شيعة» اتخذوا التشيع آلة للتفرقة والاختلاف والركود والجمود والتحجر؟ من أي «شيعة» أنتم؟.

لماذا آل بنا الأمر إلى هذه العاقبة؟ رجعنا القهقرىٰ وتقدمت علينا المجتمعات الإسلامية الأخرىٰ، تخلفنا في عصور الانحطاط الذي غزا العالم الإسلامي عن باقي الطوائف والمذاهب الإسلامية المختلفة.

لماذا طوىٰ أتباع المذاهب الأخرىٰ مسافات كبيرة وقطعوا أشواطاً بعيدة في سبيل التعرف علىٰ الإسلام واحياء عصورهم بروح الإسلام وتعاليمه؟ تقدمت تلك المذاهب الرسمية المرتبطة بالحكومات عبر التاريخ، المذاهب التي تصنعها أيدي السياسة

الحاكمة من بني العباس وبني أمية وتحدد لها القادة والعقيدة والمهام والاتباع، ثم توظف منابر الإسلام المرتبطة بجهاز الخلافة في بغداد ودمشق للتبليغ والترويج لها. . .

تقدم أولئك الذين صنع ماضيهم البلاغات الرسمية الصادرة من بغداد ودمشق، وكان مذهبهم الأساس والمنطلق لتبرير جرائم خلفاء الجور، لماذا تقدموا علينا ونحن ننتمي ـ على طول خط التاريخ ـ إلىٰ نهضة ومذهب رفع دائماً لواء الحرية والعدالة، وننتمي إلى تاريخ يمتد في ماضي الإسلام العريق، تاريخنا الذي صبغ وتخضب من أوله إلىٰ آخره بالدم والشهادة والحرية، مليء منذ انطلاقته حتى النهاية وتدبج بالدماء والشهامة والصمود؟ لماذا أصبحنا هكذا؟

لماذا؟ . . .

لماذا؟ . . .

والأسئلة كثيرة عريضة لا يسع المجال لاستعراضها.

لماذا كل هذا التناقض والتضاد بين وجهي التشيع ـ الوجه الحقيقي والوجه الواقعي[١]؟.

أحدهما: الوجه الذي نعرفه ونعيشه، وهو وجه يرفضه الناس والشباب المتعلم، وبمجرد أن تقوىٰ إدراكاتهم وتزداد ثقافتهم

(١) المراد بالواقعي ما كان موجوداً في الخارج والحقيقي ما كان حقاً، وله في الماضي وجود علىٰ صفحة الواقع.

ويتطلعوا إلىٰ قضايا الأمة والاقتصاد والوضع اَتماعي، يوجهون انتقاداتهم العنيفة إلىٰ النظرة المذهبية الشيعية، ويصعب عليهم الإيمان بما خلقناه وصورناه لهم في الإمامة والولاية، التشيع، الإمام علي، الإمام الحسين، الإمام المنتظر!

إنّ المثقف الشيعي يرتد ويتنكر لهذه العقائد وينسجم أكثر مع الأدلة السنية ويراها اكثر منطقية وانسجاماً مع روح العصر وثقافة اليوم السائدة في العالم، فيميل إليهم فكرياً وعقائدياً بشكل رسمي أو غير رسمي، ويرىٰ في قلبه وأعماقه أن هذا النمط من التفكير أكثر تطوراً وعقلانية.

ولكن بعد أن يتصفح التاريخ ويطلع علىٰ الحقائق والأسرار في ماضي الإسلام أكثر فأكثر، ويتعرف إلىٰ أئمة الشيعة وقادتهم واحداً واحداً يعود من جديد ويميل إليهم[١].

كيف أصبح الأمر كذلك؟

إنّ وراء ذلك التفكير المبتني على التلقين والعواطف والإحساسات والتقديس الأجوف والمبالغات العجيبة تجاه من لا نعرفهم ولا ندري ماذا صنعوا وماذا فعلوا وما هو دورهم؟

---

(١) ولا نقصد بالتعرف إلى الأئمة هنا أن نعرف اثني عشر إسماً مقدساً ونحفظها عن ظهر قلب ونحبهم دون أن نعرف من هم؟

وقد كان معلمنا يسألنا عن الأئمة الإثني عشر فنعددهم بالتسلسل فيعطينا درجة كاملة في الإمتحان (يعني درجة ٢٠/٢٠) وذات مرة اخترع اختراعاً جديداً وقال عدّوهم عدّاً معكوساً من الأخير إلىٰ الأول ومن عدّهم بالعكس بدون توقف فدرجة تشيعه كاملة ٢٠/٢٠، هذا هو ملاك التشيع عنده!. (المؤلف).

إنّ البديل لهذا النوع من التفكير هو نفس هؤلاء الأئمة الإثني عشر الذين كان لهم دور فاعل في التاريخ، وكانت لهم مواجهات ومواقف في مختلف الجبهات المضادة للقوىٰ العالمية العظمى التي حكمت باسم الإسلام والخلافة الإسلامية، وشيّدت أركان أمبراطوريتها التوسعية العجيبة على حمامات الدم، فيما كان الجيش الإسلامي منهمكاً بالسلب والنهب خلال عمليات الهجوم علىٰ أوربا وأفريقيا، يكتسح ويتقدم وينتصر على الجيوش تلو الجيوش، لا يصمد أمامه أي جيش مهما كان.

وإلى جانب هذه القوىٰ العظمى والجيوش الجرارة نرى الإئمة يقضون نحبهم بين مقتول ومسموم، لم يمت أحد منهم على وسادته، وهذا دليل واضح على أنهم كانوا يعانون ويتحركون ويعملون، وكان لهم موقف وكلمة وخط....

يا سبحان الله! إنّ السيوف التي كانت ترفع عقيرتها بكلمة لا إله إلا الله، وتنهمك في الحروب الضارية في قلب أفريقيا وأقاصي آسيا، وتحصد الرؤوس باسم الجهاد في سبيل.. السيوف المقدسة التي كان يسميها الناس «سيوف الله».. تلطخت أول ما تلطخت، وغمست للوهلة الأولىٰ بدماء علي وحجر والحسين؟!

فلا بد إذن أن تستبطن الإمامة معنى آخر، وكأنّ لهؤلاء القوم دوراً آخر في التاريخ غير ما تعارفنا عليه...

وبعد تلك الدوامة التي تخبط المثقف الباحث يتوقف فجأة أمام أصلين أساسيين (بمعناهما الذي أثّر في التاريخ ولعب دوراً

مهماً في حياة الناس) كان يهرب منهما ويرفضهما في داخله رفضاً منطقياً، ويكتشف من خلالهما وجهاً جديداً للتشيع، وجهاً للمذهب الذي يؤمن بأصلين، أجهد نظام الخلافة نفسه في رعاية كل الأصول والمسائل الفرعية من أجل مصادرتهما تحت مظلمة تعظيم الشعائر وإقامة الدين وتطبيق الأحكام، عمل كلّ شيء من أجل محو هذين الأصلين وإبعاد الأذهان عنهما: أصل الإمامة وأصل العدالة(١).

---

(١) هذان الأصلان اللذان نعتبرهما من أُصول المذهب الشيعي خاصة مقابل الأصول الثلاثة العامة في الإسلام: التوحيد، النبوة، المعاد (وكأنّ الإسلام ينقصه هذان الأصلان وأضفناهما عليه ولا يحق لأحد أن يدخل شيئاً في الإسلام) لقد أمضيت ساعات عديدة في البحث عن مدىٰ مصداقية هذا الكلام فلم أجد مبرراً له؛ لأنه ليس حقيقة ولا تقتضيه المصلحة، فكيف نقول إذن: إنّ أصول الدين ثلاثة وإلى جانبها الإمامة والعدالة، الأصلين الخاصين بالشيعة؟ فيكون المجموع خمسة، وعليه فنحن مسلمون بنسبة ثلاثة إلى خمسة وشيء آخر بنسبة إثنين إلىٰ خمسة!

على العكس تماماً فإن الأصول العامة التي جاءت بها جميع الأديان الحقة ـ دين نوح، موسى، عيسى، ودين إبراهيم ـ علىٰ طول خط التاريخ هي: التوحيد والنبوة والمعاد. وجاء الإسلام بأصلين آخرين وجعلهما شعاره المميز له عن سائر الأديان السابقة عليه، وانطلق في حركته من أجلهما، وهما الأمامة، والعدالة، فمن الخطأ إذن أن نقول إنّ أصول الدين: التوحيد، النبوة، المعاد، وأصول المذهب: الإمامة والعدالة، واني أعتقد أن الأصول الخاصة بالإسلام بالمعنى الأخص ـ أي الدين الذي جاء به نبينا محمدﷺ ـ أصلان فقط: الإمامة والعدالة، أحدهما القيادة. . الحق الممنوح للبشرية بهدف بناء الإنسان وإقامة المجتمع النموذجي على أساس فكرة معينة، والآخر العدالة من أجل استقرار النظام الذي طالما حلمت به البشرية وعانت من فقدانه وجاهدت في سبيله. فقلت هذا وبعد حين أعادوا عليّ قولي بهذه الصورة: إنّك قلت: إنّي أرفض الإمامة والعدالة!! قلت: جزى الله المنصفين، إني قلت: إني أرفض أن يكون ثمة أصل خاص بالإسلام سوى أصلي الإمامة والعدالة، اسقطوا كلمة «سوى» ليس إلاّ!! (المؤلف).

قصة كربلا تجسيد للتشيع

لقد جسدت قصة كربلاء التشيع تجسيداً بلغ الذروة، بيد أننا تعاملنا معها تعاملاً ميّع القضية، وسلب الفكر الشيعي روحه وحرارته وتركه ميتاً بارداً، تناولناها بشكل جعل الحسين وقصة الحسين أول ضحية من ضحايا تعظيمنا وتقديسنا للحسين وطريقة عرضنا لقصة كربلاء.

لماذا؟ لماذا فعلنا هكذا؟

ثمة أسباب كثيرة لا يسع المجال للاشارة إليها، ولكني أقتصر هنا علىٰ أحد أهم تلك الأسباب:

لقد تناولنا قصة الحسين وقصة كربلاء والحوادث العظيمة التي صنعها الحسين تناولاً أعوج ونظرنا إليها نظرات منحرفة.

كيف تم ذلك؟

لقد اقتطعنا هذه القصة من جذورها التاريخية وصورناها بصورة «حادثة» بدون خلفيات ولا مخلّفات، لا سابق لها ولا لاحق؛ لأننا لا نعرف العوامل التاريخية التي أدت إليها ولا الآثار والنتائج التي خلفتها هذه الثورة، عزلناها عزلاً تاماً واقتطعناها من امتداداتها التاريخية ـ وهي امتدادات تاريخ البشر ـ.

ومن ثم تناولناها بالبحث والتحقيق كحقيقة مجردة بدون ملاحظة ما قبلها وما بعدها، ولم يكن بحثاً وتحقيقاً، وإنما مدحاً وثناءً و«تلقينا» أن أبكوا على هذه اللوحة!!

وعلىٰ المثقفين المعاصرين الذين يشعرون بالانتماء إلى هذا التاريخ، والإنتماء إلى هذه «الحادثة» البشرية العظمى أن يبادروا أولاً وقبل كلّ شيء إلى إحيائها، والتعرّف عليها حق المعرفة، والتعريف بها للآخرين، ولا يتسنى لهم ذلك إلا إذا أعادوا «قصة كربلاء» و«ثورة الحسين» إلىٰ موقعها التاريخي، وعالجوا البتر والاقتطاع الذي افقدها معناها، وحينئذ ـ فقط ـ يتضح كلّ شيء وتكتمل الدلالات وتكون «القصة» و«الثورة» ذات معنى.

فيما تبدأ القصة عندنا من يوم تاسوعاء وتنتهي عصر عاشوراء، ثم لا ندري ما حدث! ونبقىٰ هكذا حتى يوم الأربعين حيث «الشلّة والاش»[1] ثم نحفظ القضية في الأرشيف مرة أخرى!

وهكذا نفعل في السنة التالية والتي بعدها، ونعيد القصة على نفس المنوال عاماً بعد عام، نقص طرفيها ونقطعها عن امتداداتها في التاريخ ونحصرها في محرم، أو بين تاسوعاء وعصر العاشر أو الأربعين، فتفقد معناها، تماماً كالقلب الذي نعزله عن البدن، لم يعد قلباً، لا بد أن نضعه في الصدر ونركبه على الهيكل البشري العظيم ونجعله ضمن التسلسل الكبير في تاريخ الإنسان؛ ليخفق حينئذٍ وينبض بالحياة، وحينئذٍ يكون دم الحسين دماً.

لقد صنعنا من تلك القصة أفيوناً ومادة مخدرة، وما أعظمها من معجزة!

---

(١) نوع من الغذاء يصنعه الإيرانيون في مراسم العزاء.

وإذا لاحظنا الأديان الأخرىٰ نجد أنهم يحرفونها من خلال حجب الناس عن النقاط المضيئة، ويكتمون التعاليم والمفاهيم البنّاءة السامية، ويركزون الأضواء على مظاهر تخديرية عديمة اللون والطعم والرائحة، لا غيرة فيها ولا تأثير، ويعملون على نشرها وتغذية الناس بها فيتحول الناس من خلال هذا الدين الجديد إلى كتلة مستسلمة باردة وجماعة هادئة هامدة ليس لها معنىٰ ولا مضمون.

بيد أننا نلاحظ هنا معجزة جديدة وهي عبارة عن تغطية جميع قضايا التشيع وجميع القضايا الإسلامية الأخرىٰ، والتستر عليها في الظل والمحافظة عليها في مجاهيل «الأرشيف» مما جعلها غامضة مجهولة وضحية لقصة كربلاء.

لم نعد نرىٰ اليوم ـ نحن الشيعة ـ سوىٰ ستائر من الدماء تحجب نواظرنا، لقد صنعنا منها مادة مخدرة تشل من ذُوِّق بها (كم عملوا؟!!) وحينئذٍ تحوّل دين الحياة والحركة والهجرة والكمال إلى دين البكاء!

البكاء الواعي على الحسين عليه السلام

البكاء ظاهرة روحية طبيعية في الإنسان، وهي من خصائص بني آدم، يقول روجر دبرة ـ الأمريكي الجنوبي الثائر وأحد الوجوه اللامعة في المجتمع البشري المعاصر ـ مجيباً أحد المراسلين: «الإنسان العاجز عن البكاء، ومن لا يبكي لا بد أن يكون فقد إنسانيته، إنَّ البكاء من خصائص الروح الآدمية».

فالبكاء إذن رد فعل طبيعي عاطفي لروح الإنسان الواعي المتيقظ حينما يواجه منظراً مشجياً أو مشهداً مثيراً، ونحن نبكي، ونبكي أكثر من أي أمة أخرىٰ! نبكي ولكن بكاءنا هدف وعمل مقصود بذاته، نبتغي إليه الوسيلة ونتعمد الوصول إليه كبرنامج ضمن برامج الحياة.

من ذا يرىٰ ويسمع هذه القصة بتفصيلاتها وجزئياتها وعظمتها ومأساتها ثم لا يتأثر ويبكي ـ يغض النظر عن قضية التشيع والتسنن؟ أي إنسان يسمع ويتمالك نفسه؟!

لكن البكاء إذا كان ناشئاً من المعرفة والبصيرة والفهم فهو رد فعل طبيعي للروح الإنسانية، الروح المرهفة التي تتأثر بالجمال والحساسية، أمّا إذا كان البكاء عملاً مستهدفاً مجرداً عن الفهم والمعرفة والتأمل فإنه سيكون ـ كما ذكرت سابقاً ـ تماماً كقصة أول شيعي مزور ظهر في التاريخ، أبي سفيان الذي قال لعلي: سأحميك وأدافع عنك وأحارب الحكم الغاصب من أجلك؛ كما أنّ أول عين بكت قصة كربلاء كانت عيون من قتل الحسين!.

أول من بكى في كربلاء ـ قبل الجميع ـ عمر بن سعد بن أبي وقاص ومن بعده أهل الكوفة الذين قالت لهم زينب لما دخلت مع ظعن الأسرىٰ: أتبكون وتنتحبون؟ أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً...

علينا أن لا نكون ممن يدفنون بأيدي جهلهم حقيقة الحسين ودور زينب وحقيقة كربلاء وهدف الثورة، ويضحون بالقضية ثم

يبكون ـ كالكوفيين ـ على ضحيتهم (ونقول «لا نكون» ولا نقول «نحن كذلك» لأن الأدب ورعاية الإحترام لا تسمح بذلك).

* * *

الشيعة وحتمية التاريخ

الإسلام دين التاريخ، وقد جردوه واقتطعوه خلافاً لنص القرآن وخلافاً لأهداف النبي وروحه وروح أنصاره والمؤسسين الأوائل لمذهب التشيع وخلافاً لفلسفة التشيع، لأن فلسفة التشيع هي فلسفة التاريخ. وقد امتاز المذهب الشيعي ـ من بين مختلف المذاهب ـ باعتماده التاريخ وفلسفة التاريخ وإيمانه بـ«حتمية التاريخ».

لقد اعتقد الشيعة بأن التاريخ ليس لعبة تحركها أهواء الظلمة وطيشهم، ولا دمية تصوغها أيدي السياسين والأبطال، وإنما هو حركة تحكي إرادة الله، ولا بد من تحقق الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وأهبطه على الأرض، وتلك الغاية إنما هي «العدل» ليس إلاّ. هذه النظرة الشيعية المأخوذة من الإسلام هي نظرة التاريخ بذاتها.

أي «عدل»؟ وكيف نعتقد نحن ـ كشيعة ـ بجبر التاريخ وحتميته؟

إننا نعتقد بأن «الإمامة» امتداد للنبوة، ونعتقد بأن «الخاتمية» خاصة بالوحي، أما التاريخ فهو مستمر لا تشمله «الخاتمية»، وأن الحركة التي بدأها الأنبياء لم تختم بنبوة «نبي الإسلام الخاتم»،

الحركة مستمرة، وأولئك الأنبياء هم المؤسسون والقادة الأوائل لهذه الحركة البشرية وبعد إن «ختم الوحي» صار الإنسان مكلفاً بإدامة تلك الحركة البشرية علىٰ خطىٰ الأنبياء وعلىٰ أساس السمت والدرب والتعاليم التي حددوها، وعلى هذا الإنسان أن يدفع التاريخ نحو الهدف الأساسي من «الخلقة» وتجاه الاية الرئيسية من خلق تاريخ البشر ـ نوع البشر ـ.

«ختم النبوة» لا يعني «ختم حركة الأنبياء» فأحدهما يختلف عن الآخر، والشيعة يعتقدون بخاتمية النبوة ولكنهم يمدون التاريخ ويديمونه بواسطة الإمامة، ولا يتوقف التاريخ عندهم بانتهاء «دورة الإمامة» ـ يعني قيادة الأئمة الإثني عشر ـ ولا يتركون التاريخ أبتراً تائهاً بدون نهاية، إنما يعتقدون أن هذه البشرية وهذه الحركة والرسالة التي أوجدها الأنبياء العظام في التاريخ ستستمر في ظل الرعاية والتوجيه الرباني الخاص (يعني الإمامة) وسوف تنتصر البشرية ويسجل تاريخ الإنسان نجاحه ـ جبراً ـ بالرغم من الأنظمة والحكومات التي قتلت جميع الأنبياء وقضت علىٰ الأئمة بالقتل أو السم، وبالرغم من القوىٰ العالمية العظمى التي قهرت جميع الحركات والثورات الشيعية.

لا بد من انتصار البشرية، هذه عقيدتنا ونحن منتظرون مطمئنون واثقون من وقوع الثورة الكبرىٰ، ثورة العدالة في نهاية عصر الظلم والجور والجاهلية، حتمية قطعية لا بد منها بالرغم من القرائن والأحداث التي نلاحظها ـ إنَّها فلسفة التاريخ ـ. . . علىٰ الرغم من القرائن والشواهد التي تؤكد انهزام الحقيقة وغلبة الظلم

والجاهلية، بالرغم مما تلاحظه العين من مشاهد وشواهد تؤكد اندحار الحق وانتصار الباطل إلاّ أنّ الثورة العظمى لا بد أن تنتصر، لا بد أن تنتصر من أجل استتباب العدالة والحق والحكمة، لا بد من الثورة التي تحمل مبادىء الأنبياء وما ضحىٰ من أجله الأئمة وأبانوه بسلوكهم وعملهم، وما تمنته البشرية وباتت تحلم به عبر التاريخ.

لا بد أن تنتصر مبادىء الأنبياء والأئمة وتتحقق هذه الرسالة وتطبق تعاليم هذه المدرسة وتعم الأرض وتحكم الإنسان ولو كره الكارهون.. إنه جبر التاريخ.. حتمية التاريخ.. فلسفة التاريخ.

إنّ فلسفة التاريخ والجبر الذي يعتقده الشيعة يبدأ منذ أن وطئت أقدام آدم ـ وهو بداية النوع البشري ـ وجه هذه الأرض، ويختتم بآخر ثورة وآخر تمرد وانتفاضة للمضطهدين والجياع والمعذبين عبر التاريخ ـ وهم المسلمون[1] ـ والتوحيد ضربة فاصلة عبر التاريخ، ضربة القبضة المتمردة لجميع الأجيال عبر فترات الزمن، وجميع عباد الله القاطنين على هذه المعمورة، جهاد

(١) المسلمون يعني المتمردين علىٰ الإستسلام، الإستسلام للارادة التي تستتبع التمرد على أي إرادة أخرىٰ، التسليم له وحده، والإسلام دين التسليم ولكن لا بالمعنىٰ الذي يقولونه، وإنما هو تسليم وعبودية وذلة واستسلام للقوة المطلقة والإرادة العظيمة، الحاكم على الكون. وبنفس المقدار هو دعوة للتمرد علىٰ الشرك والظلم والجور والانحراف والقوىٰ الأخرى والآمل والأماني والطمع، بل إن هذا التمرد جزء من ذات التسليم لله سبحانه. (المؤلف).

ومواجهة ليكونوا عبيد الله ويتحرروا من عبودية الأرض[١].

وقد أكّد القرآن على التاريخ[٢] أكثر من أي كتاب آخر، واهتم به اهتماماً بالغاً أكثر من أي موضوع آخر، ليخرج أتباعه من أطر الحوادث اليومية والنظرة الضيقة والآمال والعقائد والرؤى المحدودة بتاريخ القوم والأرض بل حتى الدين الخاص بالأفراد، أراد لهم أن يتحرروا من الدوائر الضيقة وينفذوا إلى النظرة الكونية والدينية العامة الشاملة التي تستوعب تاريخ البشرية من البداية إلى اليوم، ومن اليوم إلى النهاية حيث ينتصر الناس ويتمكن المستضعفون من الأرض.

عودة إلى ثورة الحسين عليه السلام

والآن أعيدوا قصة الحسين وثورته العجيبة المذهلة التي قام بها في تاريخ الإسلام، أعيدوها إلىٰ موقعها في سلسلة التاريخ

(١) سأل ممثل إيران ممثل الإسلام ـ أيام الحرب بين الإسلام وإيران القديمة ـ ماذا تريدون منا؟ فقال: لا شيء، لا نريد منكم مالاً ولا جزية ولا ثروة ولا أرضاً، جئنا لنخرجكم من ذل عبوديات الأرض ونرفعكم إلىٰ علو السماء ـ والمقصود هو العبودية والتذلل للإرادة الحاكمة على الكون (الله) التي تلازم التحرر من ذلة الأرض والعبودية للعيش عليها ـ.

وأضاف: جئنا لننقذكم من عبادة بعضكم بعضاً ـ النظام الحاكم على قلوبكم وادمغتكم ـ وندعوكم لعبودية الله، وننتشلكم من جور الأديان وندخلكم في عدل الإسلام ـ وهذا المقطع مهم جداً لأننا نؤكد أن العدالة من أصول الإسلام بل هو هدفه وسمته ولواؤه الأول ـ.

(٢) ذكر قصص الأمم والأقوام والأنبياء والحكام والحركات والنهضات والثورات الماضية.

لتتضح لكم عظمة ما قام به الحسين، بل سيتضح معنى ما قام به وستعرفون ماذا فعل ولماذا فعل.

إنّي أعتقد أن الحسين لم يقم من أجل إدانة يزيد وإقامة حكم رسمي مقابل الحكم القائم[١]؛ وذلك لأن جميع القرائن والعلل والعوامل كانت واضحة لديه كما هي واضحة لدينا اليوم ونحن نقرأ تاريخه، وهي جميعاً تشهد بأن الحسين لن ينتصر عسكرياً مع ما عنده من قوات ومعدات.

ولنفترض أنه لم يعلم بالخيانة التي تنتظره ـ بناء على الظواهر ـ ولم يعلم بأنه سينكسر عسكرياً في الكوفة ويبقى وحيداً فريداً، لنفترض بأنه وثق بالكوفة وبأنها ستستقبله وتدافع عنه وتمنعه بالروح والغالي والنفيس ـ كما ادعوا ذلك ـ ومن ثم سينتصر على دمشق!

حسناً كلّ هذا فرض في فرض، ولكن الجميع يعلم ـ من الغريب والقريب الذين نصحوا الحسين ومنعوه من الخروج، في الماضي والحاضر ـ أن امبراطورية دمشق في الشام، يعني يزيد ونظام معاوية، يمتلكون من القوة والسطوة ما يهاجمون به امبراطورية الروم ويهزمونها ويداهمون قبرص وينتزعونها من مخالب أعظم امبراطورية عسكرية في العالم، ويمتلكون من الجند والمعدات ما ملأ بقاع العالم الإسلامي وفرضوا بها سيطرتهم عليه.

(١) ما ذكرته نظرية شخصية ليس إلاّ وهذا شعوري الخاص وإذا ما توصلت إلى منطق وقول أخر وأفضل وفكرة أتم وأدق فإني سأنصرف إليها، أما الآن فإني هكذا اعتقد وأفكر. (المؤلف).

لقد كان الحسين يعلم جيداً أنه إن خرج من مكة مع رهطه فلا بد له أن يقطع الصحراء الشاسعة، ويطوي طريق القفار، ويخترق عرض الفيافي من أقاصي شبه الجزيرة العربية غرباً عابراً قلب الصحراء ليصل بين النهرين في العراق ومن ثم الكوفة. . ولا بد أن تقطع طريقه الطويل امبراطورية بني أمية العظمىٰ، ولا بد أن يمانعوه ويعترضوا طريقه، وهو لا يقوىٰ علىٰ مواجهة ذلك الجيش الجرار الذي هدد العالم ودكّ البقاع تلو البقاع، والحسين يعلم جيداً أنّه لا يستطيع اختراق تلك السدود ووصول الكوفة منتصراً ظافراً ليقيم بين أنصاره في العراق ويبني قاعدته الثورية هناك ضد الحكم في دمشق.

إنه يعلم جيداً أنهم سيقفون بوجهه ويمنعونه، وقد وازن الحسين ـ من قبل ـ بين قواته وقوات العدو موازنة دقيقة وعرف ما عنده وما عند أولئك ـ وهذا من الواضحات حتىٰ بالنظرة الظاهرية السطحية ـ.

إذن ماذا فعل الحسين ولماذا نهض؟

لقد لخص الحسين عليه السلام كلامه في جملة واحدة: إنّ الواقع يشهد وضعاً حساساً جديداً، إنّه وضع جديد وقصة جديدة في تاريخ الإسلام، بدأت بالخداع ولعبة الانتخابات والمراوغات القبلية والانحرافات الطبقية والفكرية والعقائدية، واستمرت حتى بلغت الذروة في عصر معاوية. . إنّه الوضع الذي يشهده العالم الإسلامي بعد معاوية الذي وضع ـ رسمياً ـ حجر الأساس للنظام الجديد. وإذا ما استتب هذا النظام رسمياً ولم يعترض عليه أحد

ولم يبادر إلى فضحه ولم يصرخ في أسماع الدنيا معلناً خطر الإنقلاب وتغيّر كلّ شيء، ويأتي المسلمون من ثم في ذلك الجيل والأجيال اللاحقة وإلىٰ يومنا وما بعده دون أن يشعر أحد ما بتغيّر ولاعتقد الجميع أن نظام يزيد ومن جاء بعده امتداد للنظام السابق، يعني معاوية ومن قبله، فلا بد من الاكتفاء بالاعتراض البارد والانتقاد الجزئي فقط مع يزيد ومن يأتي بعده كما فعل الناس من قبل مع أبي بكر وعمر وعثمان، بل حتى مع معاوية، حينها يختلط الأمر على الناس ولا يعلمون أن ثمة نظامين وحكمين ونوعين من نظام الحكم الرسمي كانا في تاريخ الإسلام، وأنّ دورة النظام الأول قد انتهت وبدأت دورة النظام الجديد.

إذا لم يهب أحد للإعلان عن هذه الحقيقة وفضحها وتبليغها أسماع الزمان لاستقرت إذن وبقيت، ولربما لم ينتبه الناس إلىٰ ما جرىٰ في التاريخ، وأي أمر تغيّر تغيراً جذرياً وانقلب رأساً علىٰ عقب[١]!

وها هو الحسين يرىٰ أن القصة لم تعد قصة فساد معاوية ولا قصة عثمان حين صار آلة بيد أقربائه. . القصة ليست اغتصاب عمر وأبي بكر للخلافة. . ليست القصة قصة فرد. . . ليست القضية

---

(١) يبدو أن الإسلام أيضاً انقلب رأساً على عقب، بحيث صارت قاعدة المخروط الإسلامي إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، وإن كان المخروط سالماً كاملاً لم تمسه يد، بل أضيف إليه حتى صار أضعاف المخروط الأول، ومع كل هذا لا يكاد يثبت وتراه يترنح موشكاً على السقوط بالرغم من وجوده كاملاً وإضافة أشياء أخرىٰ عليه، ولكنه يبدو أعوج مقلوباً قاعدته في الهواء ورأسه المدبب إلى الأرض! . (المؤلف).

شخصية، لا، وليست قضية شكلية.. بل حتى ليست قضية انقلاب النظام الإسلامي رأساً على عقب انقلاباً رسمياً شرعياً قانونياً، . . .

الخطر محدق ولو لم يتعرىٰ الأمر ويدان، لو لم تفضح الفعلة الشنعاء وتستنكر، لأصبح رداء النبي وشعار الإسلام، بل حتى القرآن، رموزاً لتغطية النظام الجديد.. ولاستمر الأمر كذلك، كما استمر من قبل، فيحكم نظام الجاهلية باسم الإسلام ويترسخ الأمر كذلك إلىٰ ما شاء الله وينبسط الغطاء الشرعي بما لا يمكن فضحه فيما بعد، تلك إذن الطامة الكبرى ولهذا نقول إنّ القضية أصبحت قضية أخرىٰ تقتضي موقفاً آخر..

أي قضية تغيرت؟

يمكن أن نحزر تغير القضية من خلال اختلاف موقف الحسن تجاه الحكم القائم يومها ـ حكم معاوية ـ مع موقف الحسين، فإن اختلاف موقفيها قد يعلل بالنظر السطحي الظاهري أنه اختلاف في رؤى الحسن والحسين عليهما السلام وروحياتهم واخلاقهم وبالتالي اختلاف شخصياتهم، كلا أبداً، اختلاف موقفيهم تجاه العدو واتخاذهما طريقتين مختلفتين في العمل ناشيء عن اختلاف الأنظمة التي واجهاها.. كان ثمة نظامان... ولد أحدهما معاوية وولد الآخر يزيد.. نوعان من الحكم كلّ واحد منهما يقتضي موقفاً خاصاً...

* * *

هذه هي فلسفة التاريخ عند الشيعة.. إننا منتظرون[١]، والمنتظر يعني المعترض الرافض، ومن لا يعش الانتظار لا يمكن أن يكون منتظراً للمستقبل ومتطلعاً له، إن من ينتظر أحداً، ينتظر مجيئه، ينتظر أن يحدث شيء ما، ويتغير الوضع، أو يجيء أحد، أو يحصل أي شيء جديد، لا بد أن يكون رافضاً لما هو عليه، معترضاً على الوضع الذي يعيش فيه؛ ولهذا أصبح منتظراً يترقب حدوث أمر جديد...

فمن هو إذن المنتظر علىٰ أساس النظرة السياسية، والفلسفة التاريخية الشيعية؟

المنتظر هو الرافض المعترض...

ولكن... رافض لأي شيء؟ ومعترض علىٰ أي شيء؟

إنّه معترض رافض لما حدث في التاريخ باسم الإسلام، وكما ذكرت من قبل ـ ذلك الإسلام الذي حكم التاريخ وكان أول ضحاياه علي وأبا ذر والحسن والحسين وحجراً ـ، ... هذا هو المعترض.. يعترض على ما فعلوه باسم الإسلام وحفوه بهالات التقديس ونفخوا في أبواق دعايتهم من أجل ترسيخه في الأذهان، يعترض على هذا الوضع الفاسد ويرفض أن يكون هو الحقيقة، إنه الزيف وليس الحقيقة.

---

(١) المنتظر (بالكسر): ليس من يجلس محدقاً بالباب يترصد دخول من ينتظره!
لا يمكن أن يكون الانتظار سلبياً أبداً، ونحن أصبحنا منتظرين على هذه الطريقة فقط، هذه هي المعجزة الثانية فينا!! (المؤلف).

ويعترض على ما جرىٰ باسم الدين علىٰ امتداد التاريخ، إنْ في ما مضى أو في ما يأتي، ولهذا صار منتظراً ومؤمناً ومعتقداً بحتمية تحقق هذه الحقيقة عبر التاريخ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه آمال البشرية؛ لأن الله لم يخلق هذا العالم عبثاً، كيف يخلق الله آدم عبثاً؟! وكيف ينتهي التاريخ لصالح الظلم والجور والانحطاط والجهل؟ كيف؟ وهل يمكن أن يكون التاريخ عبثاً؟!

إذن لا بد أن ينتهي التاريخ ويتوج ـ قهراً ـ بانتصار الحق، ولا بد أن تتحقق المثل الإنسانية والآمال والطموحات البشرية.. إنّها قضية خارجة عن نطاق البشر ولكن بالرغم من «جبر التاريخ» فالإنسان يبقىٰ حراً مسؤولاً.

لقد بدأ التاريخ ـ حسب الفلسفة السياسية الشيعية ـ منذ أن قتل هابيل وحكم قابيل، وبقي قابيل هذا حاكماً علىٰ التاريخ في جميع مراحله وممسكاً بزمامه، وقابيل متدين، له دين، ودينه الشرك. وهابيل إنسان الإسلام، الإنسان المثالي الحقيقي، قتل وصار ضحية، وعليه فالتاريخ الحاكم على المجتمعات البشرية هو تاريخ قابيل، وقابيل قتل هابيل وظل هو باقياً، وهذا لا يعني أنه مات بعد حين، مات بعد ٣٠ أو ٤٠ أو ٥٠ سنة كلا إنه لم يمت، بل ظل حاكماً على مجتمعات البشر باسم الشرك علىٰ طول خط التاريخ، بقي حاكماً باسم الشرك علىٰ الأُمم والناس أجمعين، وقد اتخذ قابيل من الدين أداة لتبرير وجوده وإبادة الناس والحيلولة دون انبعاث هابيل من جديد... وكان لقابيل هذا على طول خط التاريخ ثلاثة وجوه، إنه إنسان واحد حاكم على الناس ولكنه ذو

وجوه ثلاثة، ثلاثة أبعاد للطبقة الحاكمة على تاريخ البشر عبر عنها القرآن مراراً من خلال مصطلح «الملأ» و«المترف» و«الراهب»، وكان الإسلام ـ باعتباره دين إبراهيم ـ يواجه هذه الثلاثة دائماً وابداً ويقف أمامها ويثور عليها، . . . وهكذا كان أنبياء الإسلام ـ أي دين تاريخ البشر، لأن الإسلام، كما في القرآن، ليس ديناً خاصاً بنبينا، وإنما نبينا واحد من أنبياء الإسلام ـ الذي كانوا ينطلقون دائماً من أوساط المستضعفين والمحرومين، وكانت سلسلتهم بالكامل تنتمي إلى الطبقة المحرومة، وكانوا جميعاً ـ كما قال النبي وشهد التاريخ ـ من الرعاة أو العمال وأصحاب الحرف والمحرومين ـ وهم محرومون في التاريخ أكثر من الرعاة أيضاً ـ كانوا يثورون على التوالي ضد «الملأ» و«المترف» و«الراهب»[١].

هذا هو الأسلوب القرآني: يختار شخصيات حقيقية، على العكس مما يفعله الكتَّاب حيث يختلقون الشخصيات ثم يعممونها ويجعلونها نماذج لشريحة وطبقة موجودة باستمرار.

يعرض «الملأ» و«المترف» و«الراهب» في ثلاث شخصيات

---

(١) الملأ: الرؤساء والأشراف الذين يملأون العين.

والمترفون: الأثرياء المتمكنون الذين يرون أنفسهم معفوون عن أي مسؤولية إنسانية وأنهم فوق الجميع يختالون في مشيهم ويمشون بين الناس كالطاووس زهواً وإستكباراً على الناس ذوي الوجوه الصفراء الشاحبة من الجوع والألم والحرمان.

والراهب: أولياء الدين المزيفون في التاريخ، وهؤلاء الثلاثة متعاضدون متماسكون، ذكرهم القرآن من خلال ثلاثة نفر لهم وجود حقيقي في التاريخ ثم أصبحوا فيما بعد رموزاً ونماذج.

تاريخية باسمائها التي عاشت في عصر موسى، وكان الأنبياء جميعاً، قبل موسى وبعده، يواجهونها ويثورون ضدها، إنها الوجوه الثلاثة الأولىٰ التي وقفت ضد جميع الرسالات، وواجهت رسالة الحق في كل عصر: فرعون، قارون، بلعم بن باعورا، فرعون يمثل سلطان القوة الحاكمة علىٰ تاريخ البشر، وقارون يمثل السلطة الاقتصادية وقوة المال الحاكمة علىٰ البشر، وبلعم بن باعورا يمثل السلطة الدينية الحاكمة بين البشر، ومن خلاله كان الدين يتحول إلىٰ أداة استغلال تعمل لصالح الثلاثة، وكان يصنع من دين التحرير قيوداً باسم القداسة والمقدسات يقيد بها الناس ويسجنهم في أصفاد العبودية التي يطلق عليها إسم العبودية الدينية ـ في الظاهر ـ وهي عبودية دنيوية في الواقع....

هؤلاء الثلاثة، منهمكون دائماً في أعمال ثلاثة، نعرض لها باختصار شديد:

أحدهم يأخذ باعناق الناس، يحني ظهورهم بالقوة، والآخر يفرغ جيوبهم، والثالث يهمس في آذانهم: اصبروا، زخارف دنيا، لا قيمة لها! هؤلاء ثلاثة متعاضدون أبد تاريخ الدنيا، نراهم عبر التاريخ في «سوبر ماركت» ثلاثي مشترك: المعبد والقصر والدكان، ونرىٰ البشرية والإنسان دائماً، والناس وجميع أديان الحق وحركات الحق، ونهضات الحق، ضحايا هذا القارون ذي الأبعاد الثلاثة والشُعَب الثلاثة، وهذا يعني «التثليث»!

ليس ثمة آلهة ثلاثة في الكون، ولكن ثمة أرباب ثلاثة في

الأرض، وهذا هو التثليث، هؤلاء الثلاثة الذين يظهرون في محيا المسيح على أبعاد ثلاثة: الأب، الإبن، روح القدس، ولربما اجتمعوا في التاريخ وصاروا فرداً واحداً: البابا! البابا الذي يملك القوة والسلطان، ويملك الذهب والمال، وهو ظل الله أيضاً وممثله في الأرض، هو كلّ شيء لا يفسح المجال لغيره قط، يأخذ باعناق الناس ويفرغ جيوبهم ويهمس في آذنهم أن اصبروا ولا تحزنوا على ما لا قيمة له، ولهذا كان الدين ـ الدين الحاكم على الأمم في مختلف مراحل التاريخ ـ مدى التاريخ، وسيلة وآلة بيد أولياء الدين الرسميين «الرهبان»(١)، «بلعم بن باعورا» يستخدمونه بالتعاضد مع ذينك الفريقين لصالح الشركة الثلاثية «التثليثية»، ويأسرون الناس باسم الدين وباسم «إرادة الله» ليرزحوا في مستنقعات العبودية والذلة.

وكان الأنبياء من سلسلة الرعاة والمحرومين (الرسل المبعوثون من أجل تحقيق وإقامة إرادة الله في الأرض وهم دائماً من هذه الطبقة) دائماً وأبداً يدكّون معاقل هذه الوجوه الثلاثية ـ وجوه قارون الثلاثة الخالدة الحاكمة على التاريخ ـ جاءوا لإبادة الوجوه الثلاثة التي عرفت بمواجهتها لحركة الأنبياء ومحاربتها حتى الرمق الأخير ـ وهذا مما يثير العجب ـ.

وحينما كان رهبان دين الشرك وأولياؤه الرسميون يشعرون

---

(١) كانت طبقة الرهبان دائماً وابداً جزءاً من الطبقة الحاكمة كما نلاحظ ذلك في سحرة فرعون حيث تعاضد السحرة والملأ وفرعون.

بالعجز أمام حركة الأنبياء كانوا يتسللون إلىٰ هذه الحركة ويباشرون حكمهم وسلطانهم علىٰ الناس باعتبارهم رهبان ذلك الدين، وهكذا يستمرون في عملهم لصالح الشريكَيْن الآخرين. . . إنّه عمل مخيف أكثر من كل شيء!

إنّ حرب التوحيد والشرك قائمة دائماً بلا هوادة عبر التاريخ، فتعدد الآلهة يحمي دائماً تعدد الجماعات والطبقات والأعراق والعناصر، وثنائية الآلهة تحمي ثنائية الطبقات البشرية، وثلاثية الآلهة تحمي وجوه قارون الثلاثة. هكذا هي قصة التاريخ، والتوحيد طوال الآماد والتاريخ، نظرة كونية عقائدية، وحقيقة عالمية واقعية، لم تكن وليدة الوضع السائد ولا إفرازاً للواقع الموجود، وإنما هي انعكاس لحقيقة العالم في قلوب هؤلاء الأنبياء وشيوع ذلك بين أفراد الأمة، فكان الأنبياء يبعثون السنن الإنسانية ويعملون علىٰ إحيائها ويضربون علىٰ الأيدي المتعاضدة ضد الناس[١] ليقطعوا دابرهم، وحينما يحسب الراهب ـ بلعم بن باعورا ـ حساباته ويرىٰ الدائرة تدور عليه وعلىٰ شركائه وسرعان ما يهزمون ويولون الدبر، يبادر ـ الراهب ـ إلى ارتداء لباس دين التوحيد ويلبس الشرك بالتوحيد حتىٰ يظهره بصبغة التوحيد وإذا بالتوحيد الجديد يؤدي دور الشرك، وهذا هو الخطر ولا خطر فوقه.

وبعد هذا كلّه، من هو بلعم بن باعورا في الإسلام؟

---

(١) وكثير ما يكرر الإسلام هذا اللفظ «الناس» تأكيداً واهتماماً بهم.

ـ كعب الأحبار، الراهب العظيم ورجل الدين اليهودي الكبير، يرىٰ نفسه محاصراً عاجزاً عن الاستمرار في حربه ضد النبي والقوة الإسلامية المتصاعدة فيعلن إسلامه! ثم يصبح فوراً المستشار الديني والمفتي الأعظم في الأمبراطورية العظمى أيام حكومة عثمان.

ثم نلفي بلعم بن باعورا هذا يلقن أبا ذر الغفاري درس الدين ويعلمه الإسلام! فحين قرأ أبو ذر آية الكنز: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[١] قال له كعب الأحبار[٢]: يا أبا ذر إنّك لا تدري من الآية شيئاً، إنّها تتحدث عن أحبار اليهود. وعن النصارىٰ ورهبانهم، ومن أعطى خمسه وزكاته فلا ضير عليه حتى لو بنى قصراً لبنة من ذهب ولبنة من فضة! فغضب أبو ذر غضباً شديداً لأنه يرىٰ كعب الأحبار يفتي ويصدر أوامر فقهية ولم تمض بعد علىٰ وفاة النبي عدة سنين، يقول له إنّ الإسلام ليس كما تقول يا أبا ذر! بل كما أقول أنا!

---

(١) «الانفاق ليس أن تعطي درهمين لهذا وقليلاً من الفحم لذاك المتسوّل، الانفاق من مادة نفق وهي الحفرة و«لا ينفقونها» أي لا يملأون الحفر، وأي حفر، الحفر الطبقية والفواصل الإجتماعية، لا يملأون هذه الحفر بكنوزهم التي يخفونها في بيوتهم».

(٢) كعب الأحبار هو نفس الراهب وبلعم بن باعورا غير أنه سمي هنا بـ«كعب الأحبار» وهو أحد الأبعاد المتعاضدة مع فرعون وقارون، واسمها الآن عثمان وفلان، حيث يموت عبد الرحمن بن عوف ويخلف من الذهب ما يكسر بالفؤوس، وحينما كوّموه أمام عثمان صار حائلاً بينه وبين الآخرين ـ الحاشية ـ وهذا قارون يموت ويجتمع الثلاثة من جديد. (المؤلف).

إنّ من يؤدي ما عليه من الواجبات الشرعية ثم يبني بيتاً لبنة من ذهب وأخرىٰ من فضة فلا شيء عليه، ويجيب أبو ذر: إن الآية غير ناظرة إلى الخمس والزكاة بتاتاً وإنما تتحدث عن الكنز بذاته، وغضب أبو ذر وأخذ لحىٰ بعير وأهوىٰ به علىٰ رأس كعب الأحبار فشجه، فسارع كعب الأحبار يلوذ بعثمان خوفاً من غضب أبي ذر،.. ومن عجب التاريخ أن يختفي كعب الأحبار خلف عثمان ويتترس عثمان بكعب الأحبار حتىٰ يصل إلىٰ الخلافة، ويختفي خلفه ليكون من ثم خليفة رسول الله!!

والإسلام هذا الامتداد الطبيعي لرسالات أنبياء الله العظام الذي جاء ـ كما نعتقد ـ لبسط الحكمة والعدل واستقرار إمامة الحق من أجل الناس وفي سبيل الله، وهو آخر رسالة من تلك الرسالات، وقد أقام بسيف قائده مدينته الفاضلة النموذجية المثالية وسماها «المدينة» فهرع على الفور أسراب الأحبار والرهبان ـ يعني بن باعورا ـ وبرزوا في ثوب الإسلام والتوحيد.

وهكذا بدأ نظام الأبعادالثلاثة عمله في الإسلام حتىٰ وصلت النوبة للإمام الحسين... تنمرّ هذا النظام وبدأ بترسيخ اعمدته رسمياً من أجل حكم أُسري وراثي (والحديث هنا عن رسمية هذا النظام أما من الناحية الواقعية فإنه موجود منذ البداية أي بعد وفاة النبي مباشرة، غاية ما في الأمر أنه تدرج في حركته حتى أضحىٰ رسمياً أيام يزيد). وإذا بالدستور وميثاق الحكم الإسلامي يتغيّر وإذا بهم يصرحون بالمخالفة، فلم يتظاهروابالإيمان به ثم يؤولون انصرافهم العملي عنه، كما كانوا يصنعون من قبل، وإنما محوا

الماضي وكتبوا شيئاً جديداً، والحسين لا يستطيع تغيير الحكم واستبداله بحكم آخر، ولا يستطيع إعداد القوات الكافية لمواجهة القوة العظيمة التي حطمت الروم وفارس. . . .

استعرض أصحابه فوجدهم طرائق قددا، أما أصحاب النبي القدماء والشخصيات الكبيرة من أمثال أبي هريرة أنيس النبي الذي لازمه ملازمة الظل حتى اعتذر منه النبي وقال له: دعني واحضر يوماً وغب يوماً، وأبي الدرداء الذي قيل إنّ النبي سماه «حكيم الأمة»، وأضرابهم ممن جاهدوا بسيوفهم وكانوا في عداد الصحابة في عصر النبي، وإذا ما أراد الحسين تفقّد هؤلاء فلا بد أن يبحث عنهم في القصر الأخضر ـ قصر معاوية ـ أو قصر الإمارة في الكوفة أو الملاهي وبيوت الدعارة العامرة في أرجاء العالم الإسلامي، وأمّا الآخرون ممن عرف الحق وأدرك الواقع الفاسد فإنهم توزعوا بين من استسلم للحسرة والعض على الجراح حتىٰ جعل الحسرة غذاءه الذي يقتاته ضمن برنامج منظم، وبين من اختار العزلة وأخذ يئن ويدين الواقع الفاسد بالهمس المأمون ومن ثم اختاروا الصمت وسلكوا سبيل السكوت وهؤلاء هم أتباع الإسلام وشيعته وخاصته، وكان هذا فهمهم الخاص للدين.

استعرض الحسين جموع الناس فوجدهم منهمكين بالطواف في دوامة جماهيرية حول بيت الله يؤدون مراسم الحج ويمتثلون سُنة إبراهيم وسُنة النبي. . أراد أن يهجرهم وينطلق إلىٰ الموت، ويعلن عن موته وعزمه علىٰ أن يموت عظيماً في موتة مهيبة، وهم منهمكون مشغولون يطوفون ويطوفون. . وهذه هي سُنة إبراهيم

وسُنة الرسول والحج فإلىٰ م نذهب؟! بيد أن الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتم الحج وتركه ناقصاً وهو أعظم فريضة وشعار إسلامي وأهم عبادة دعا إليها الدين، خرج ليعلن علىٰ رؤوس الأشهاد: أنّ الروح رحلة وبادت فماذا ينتظرون بالجسد الخاوي ولِمَ الطواف وقد فقدوا الهدف والإتجاه؟!

ألسنا نعتقد بأن الذين تركوا الحسين ولم يخرجوا معه من مكة على حد سواء إن كانوا في القصر الأخضر ـ قصر معاوية ـ أو في أروقة الحكم علىٰ المدينة، أو في ملأه بين النهرين والشام، أو في بيت الله وهم يؤدون فريضة الحج، المهم أنهم تركوا الحسين وحيداً، ومتىٰ ما فقدت الحركة «الإتجاه» و«الجهة» أصبحت عبثاً لا معنىٰ له ولا طائل تحته ـ كما هو حالها الآن وسابقاً ـ.

وهذا هو معنى الإمامة: السمت والجهة والباقي أعمال تتم بشكل ميكانيكي سواء طاف ودار أو مشى على خط مستقيم وسواء سعى أو لم يسع، ليس ثمة فرق أبداً ما دامت الحركة غير موجهة وليس لها محور وهدف، فإن شئت أن تبكي يوم التاسع من المحرم أو شئت فاضحك لا فرق أبداً.

وبعد هذا هل يثور الحسين؟ كلا إنه لا يستطيع إقامة حكم رسمي، ولا أي عمل آخر، فهؤلاء أقرباؤه يحفّون به ويلتمسونه ويذرفون الدموع ويتوسلون به: ابق هنا، لا ترحل، نصحوا الحسين: سيدي نخاف عليك، قلوبنا واجفة علىٰ أهل بيتك، لا تخرج، أثبت هاهنا، أقم الصلاة، أدِّ الطواف واذبح الأضحية وعظ

الناس. . اشتغل بأي شيء! أدِّ مراسم الدين وطقوسه بالكامل ليس فيها ضرر، سيرضونك بل سيعينونك.

لمذا هذه الحرقة علىٰ الحسين؟ إنّها محاولات من أجل تبرير مواقفهم وإخراج أنفسهم من دائرة الحرج ولئلا يضطروا للخروج معه.

لم يتريث الحسين حتى تتم المراسم الإبراهيمية العظمى ثم يبادر إلىٰ عمله، لم يتريث قط؛ ليثبت للبشرية والتاريخ أن النظام إذا صار كذلك وفقد الإمامة والقيادة وتغيّرت جهته وسمته فلا فرق حينئذٍ إن بقيت باقي الأمور أو فنيت، أثرها واحد على الناس وجوداً وعدماً، بل إنها تتحول إلىٰ سنن توحيدية تلعب دور الشرك في المجتمع البشري.

لا يستطيع الحسين أن يعمل شيئاً، بيد أنه يرىٰ النظام الذي بدأ بآدم وأخذ بالانحراف منذ قتل هابيل، فتسلط حكم قابيل طول التاريخ، واستمر يحكم باسم التوحيد والشرك وباسم دين موسى وعيسى ونبي الإسلام والوثنية والتثليث والثنوية ـ وكلها شيء واحد! ـ. ويرىٰ في مقابل ذلك انقراض ومحو جهة رسالة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ورسالة محمد ويرىٰ تلك الوجوه الثلاثة التي اختفت في التاريخ واندحرت بهراوة إبراهيم وسيف النبي وعلي يراها عادت من جديد لتكون المحامي والولي علىٰ هذه الرسالة، وتشوش الناس وتضلّل حلومهم، وتخدع البشرية، فهذه الوجوه جاءت ترتدي زي الإسلام وعلى رؤوسها عمامة النبي

ودخلت مسجد الإسلام وجلست في محراب النبي.

والحسين لا يستطيع أن يعمل شيء ولكنه يقول: سأُهاجم الموت بنفسي وأهلي وأولادي وكل وجودي وقرابتي وضروراتي وحاجتي وأواصري وارتباطاتي بالأرض والحياة، سأموت في أروع وأعظم وأشجع وأفجع وأعجب حادث، سأموت في معركة يقف لها التاريخ إجلالاً وإكباراً، ولو لم استطع حينها تدمير دولة الشرك ودين الشرك المتنكر بلباس التوحيد، فإني سوف أفضحهم وأدينهم، وقد فعل.

إنّ الحسين أعظم مغلوب منتصر في التاريخ.

ولهذا نراه يبدأ بعد ثورته بالمواجهة السلبية في العالم الإسلامي، ويلهم جميع حركات المثقفين الواعين والعلماء والمتقين، ولا نذكر الشيعة نموذجاً لذلك وإنما نذكر تأثيره في السنة وعلمائهم الكبار ممن يهتمون ولو قليلاً بحيثياتهم العلمية والدينية.

عجباً: يكره القاضي أبو مطيع (قاضي بلخ) ويجلد بالسياط لكي يقبل منصب القضاء في الدولة الإسلامية. بيد أنّه يرفض ويفر.

وهذا صالح بن أحمد بن حنبل ـ نجل أحمد بن حنبل رئيس المذهب الحنبلي ـ ليس من الشيعة في شيء ولكنه كان تقياً من الأتقياء في التاريخ الإسلامي، تسلّم لمدة سنة منصب «قاضي القضاة» في بلخ أيام الحكم العباسي، وجلس على كرسي القضاء

في أصفهان سنة واحدة ثم استقال.

قال صاحب تاريخ بلخ: كان صالح فقيهاً زاهداً وقاضياً عادلاً وكان ينام في الليل على عتبة بابه ويترك الباب مفتوحاً لئلا يحجبه عن متظلم يقصده في جوف الليل، وبالرغم من ذلك فإنه استقال بعد سنة وتاب إلى الله من توليه منصب قاضي القضاة.

وفي ذات يوم خبزوا في بيت أحمد ـ أبو صالح ـ خبزاً فلمّا جاء أحمد سأل عنه فقالوا: أن خميرته من بيت صالح ابنك، قال: صالح الذي تولى منصب القضاء سنة كاملة في أصفهان؟ اعزبوا ولا تأكلوا الخبز.

قالوا: وما ضرنا إن كان في ما مضى قاضياً على أصفهان، وليس له اليوم علاقة بالقضاء، قال: اعزلوه حتىٰ إذا جاءكم سائل فاعطوه وقولوا: إن خميرته من ولدي صالح، بقي الخبز أربعين يوماً لم تمسه يد سائل حتى تعفن، وكان السائل أيضاً يتورع من أموال قاضي القضاة باعتبارها أموالاً مشبوهة يحتمل أن تكون ملوثة بأموال حكومة الجور في نظام الخلافة الإسلامية.

وبعد حين سأل أحمد: ماذا فعلتم بالخبز؟ قالوا: القيناه في دجلة، فامتنع أحمد عن الأكل من أسماك دجلة حتى مات!!!

من ذا الذي فضح هذه الوجوه المزوّرة؟! ومزق القناع عن الوجوه المزيفة الممقدسة التي عملت لتكون ظل الله في الأرض، وتظهر في زي ممثل الرب، وحافظ القرآن، والمجاهد الذي نال الدنيا بسيفه من أجل إحقاق الحق وإثقال الأرض بكلمة «لا إله إلا

الله»، وإذا بها وجوه مكشرّة عن أنيابها، يذعر منها القريب والبعيد، حتىٰ العلماء المؤمنون بشرعية النظام الحاكم، والمذهب الحاكم، ينظرون إلى تلك الوجوه بعين الإزدراء والقرف، ويتعاملون معها باعتبارها قمة الظلم والجور، ونموذج الحكم المشؤوم القبيح؟

لماذا؟... كيف حصل ذلك؟ إنّه الجهاد السلبي الذي مارسته الأمة ضد الحكم الذي ختم عليه الحسين بدمه ختم الزوال والبطلان الأبدي، ووسم على جبينه بوسام الشرك والجاهلية والفساد.. فضحهم وعرّاهم فيما كانوا يحملون سيف النبي بيد وكتاب الله باليد الأخرى.. هذا هو النصر.

ولهذا فإننا لا نرى في كربلاء معركة بين الحسين ويزيد؛ لأن الحسين لم يثر ضدً يزيد لأنه شخصياً عضو فاسد[1] وإنسان ساقط.. لم ينهض الحسين من أجل أخذ حقه الشخصي الذي اغتصبه يزيد، لم ينهض من أجل حقه أو حق الحسن وعلي الذي اغتصب، لم يثُر الحسين لهذا ولا لغيره، إنَّما ثار الحسين من أجل أن يرفع الراية التي حملها رواد التوحيد منذ انطلاقة التاريخ البشري، وتوارثها أنبياء الحق العظام منذ آدم حتىٰ وصلت بيد نبي الإسلام آخر الأنبياء، ومن ثم بيد الإمام علي والحسن.. ثار ليرفع هذا اللواء عالياً خفاقاً في تاريخ الإنسان.

رفع الحسين اللواء الذي كان يرفرف دائماً ليكون مناراً

---

(١) الفساد من صفات يزيد ومعاوية أكثر فساداً منه بكثير، بل لا معنى للمقايسة بينهما من حيث الفساد.

لمواجهة النظام الحاكم ذي الأبعاد الثلاثة والدين الواحد، ومواجهة الشرك[١] عبر التاريخ وإدانة عدائه للناس والبشرية جمعاء، رفع اللواء الرمز ـ في حرب الحق والباطل عبر مراحل التاريخ ـ الذي رفعه من قبل النبي وسلمه لعلي من أجل الاستمرار في الحركة ـ لا الوحي ـ ومن ثم سلّمه للحسن وبعده وصل بيد الحسين، والحسين صاحب اللواء في تاريخ البشر، وصاحب اللواء في الحرب المستمرة عبر التاريخ ضد النظام المتسلط الحاكم على التاريخ.. الحسين لا يستطيع أن يؤدّي اليوم شيئاً، لا يملك قوات ولا أنصاراً ولا إمكانات ولا طاقات، بيد أنّه يعلم أن شموخ هذا اللواء واستمراره بالخفقان والارتفاع يتطلب منه أن يضحي بوجوده وأسرته وأهل بيته، واقتحام الأهوال والفجائع، ووقوع الأحباء والأعزة رجالاً ونساءً في حبال الأسر.

وما دام لا يستطيع تغيير النظام الحاكم ولا إقامة الحكم الذي يريد ولا استلام زمام القيادة شخصياً، فَلْيَهوِ إذن بهذا اللواء على هامة العدو ويهشمها، ولو كلفه ذلك التضحية بكل شيء، وبهذا يؤدي دوره كواحد من الأمراء المكلفين بحمل اللواء في تاريخ الإنسان.

ولهذا نؤكد عليكم أن لا تتعاملوا مع الحسين كظاهرة واجهت يزيد، ولا تدرسوه كحقيقة حاربت عبيد الله وعمر بن

---

(١) الشرك ملة واحدة وإن اختلفت الأسماء وهو عدو البشرية وإن كان باسم الله أو الآلهة وكان يعشعش دائماً وأبداً في المعبد والدكان والقصر وهذه الثلاثة تجتمع دائماً في بيت واحد.. بيت قابيل. (المؤلف).

سعد، بل لا تحصروا الحسين في دائرة السنين الستين من تاريخ الإسلام ـ وكذلك الأمر في التعامل مع النبي والإمام علي ـ، تعاملوا مع الحسين باعتباره وريث حركة، العدل والحق في التاريخ، ولا بد من انتقال هذا الميراث إلىٰ من يأتي بعد الحسين وإلى الأنصار السائرين علىٰ خطى الحسين، وما ثورة الحسين إلاّ معركة في الحرب التاريخية العظمىٰ بين هذين القطبين والبعدين، لهذا صار الحسين وارثاً كما نقرأ ذلك في زيارة وارث العظيمة التي تعتبر الوارثة أعظم صفة وأعظم فلسفة للتاريخ وتكاد تحصر فلسفة ثورة الحسين في «الوراثة». . الحسين وارث. . وارث آدم ووارث نوح. . يعني أن اللواء الذي ارتفع منذ فجر التاريخ وانطلق بيرقاً للحقيقة عبر مراحل التاريخ قد وصل الآن بيد الحسين. . . الحسين وارث إبراهيم، وارث موسى، وارث عيسى، وارث محمد ﷺ. . . .

فثورة الحسين ليست المعركة الأخيرة وليست النهاية لكل شيء. . . لأن الاضطهاد والعدوان نظام حاكم موجود بعد الحسين، ولا بد أن يسلّم بيرق الحق والعدالة للورثة من بعد الحسين؛ ليؤدي كلّ منه دوره في التاريخ، حسب الظروف ومقتضيات الزمان ومتطلبات المواقف.

وهذا هو معنى أن الحسين وارث الأنبياء ووارث أوصياء الأنبياء، وأنّه سيسلّم الراية لمن يعقبه في التاريخ، ولا بد أن يبقى هذا البيرق خفاقاً في ميادين العمل الدائب حتىٰ ينتهي إلى انتصار الإنسان في ثورته. . الانتصار الأبدي الموعود بعد مقتل هابيل. . . ولكن. . وآه من لكن. . آه. . . .

بحث حول الشهيد

«مارتير» (MARTYR) اسم بمعنىٰ «ميت في سبيل الله والدين»، والمصدر «مور» (MORT) بمعنىٰ «الموت»، فالـ«مارتير» ميت أيضاً، وفرقه عن سائر الأموات في هدف الموت والباعث عليه، فهدف الموت هنا والباعث عليه هو «الله» وفي غيره «السرطان» مثلاً، وأمّا ظاهرة الموت وذات الفعل فلا يختلف بتاتاً سواء كان في سبيل الله أو في سبيل الهوىٰ أو نتيجة حادث أو غيره، فالموت واحد على كل حال رغم تعدد الأسباب.

لذا يعتبر المسيح وشهداء المسيحية «مارتير» يعني أموات؛ لأنّ المسيحية تفسّر «مارتير» لغة ومفهوماً بمعنى «من يموت».

أمّا الشهيد فهو حي خالد حاضر دائماً وليس بغائب أبداً، فهما إذن كلمتان متباينتان تماماً.

وكما قالوا ـ وصحيح ما قالوا ـ: فإن للشهداء ولمفهوم الشهيد ـ سواء كان وطنياً أو دينياً وسواء كان في الأديان الشرقية أو غيرها ـ قدسية مفروغاً عنها، فكل رسالة أو دين أو أمة أو

عقيدة، تقدس شهداءها حتىٰ لو كانت تلك الرسالة أو العقيدة مادية وليست دينية، لأن مفهوم الشهيد وصورته والمشاعر المتوجهة نحوه تكتسب نوعاً من القداسة التي تمتد إلى ما وراء المادة والماديات.

وإنّي أعتقد أن ثمة تحليلاً علمياً دقيقاً لمنشأ القداسة التي تكتنف الشهيد، فحتىٰ المذاهب والأديان التي لا تؤمن بالقداسة والتقديس تعتقد بقدسية الشهيد، وهذه الحالة تنشأ من العلاقة الخاصة التي تربط الشهيد بالمعتقد والرسالة، يعني مصدر القيم والقداسة، والعلاقة بين الأفراد وعقيدتهم علاقة تقديس دائماً، علاقة الأفراد بالمقدسات التي يؤمنون بها، وهذه العلاقة بنفسها توجد بين الشهيد والعقيدة، وتوجد أيضاً بشكل غير مباشر بين أنصار العقيدة وشهدائها، فالمنشأ ـ إذن ـ هي المقدسات العقائدية أو الوطنية أو الدينية التي يؤمن بها الجميع.

هناك بحوث في حقل «أصالة الوجود» تشبه كثيراً بحوثنا في بعض أقسام الولاية وآثارها: الإنسان شخصية ذاتية وشخصية تكوينية لها أبعاد، فالكل متساوون في «الوجود» لهم شخصيتهم الوجودية الأولية، وكل من لبس الثياب فهو موجود، وأمّا ما يقوّم شخصيته بمعنىٰ الكلمة ويميزه عن الوجودات الأخرىٰ فهو صفاته وأبعاده الروحية ومشاعره وعواطفه وغرائزه وخصوصياته، يعني نفس تلك الأمور التي إذا فكر بها أحس بـ«الأنا» وشعر بماهيته واستطاع أن يقول: «أنا موجود».

من أين جاءت خصوصيات «الأنا» هذه؟

«أنا» باعتباري إنساناً، ولدت ثم تبلورت شخصيتي واصبحت ذات صفات وخصائص وقيم سلبية وإيجابية، وحصلت علىٰ نوع من المعرفة بنفسي واكتسبت «هوية» خاصة بي، من أين جاءت هذه القضايا؟

يقول هايديجر[١]: تتشكل شخصية الإنسان من مجموعة معارف في حياته، والمعرفة عبارة عن العلاقة الواعية بين وجودي «أنا» مع الأشياء أو الأشخاص أو الأفكار الخارجية، فإذاحصلت علاقة وارتباط ذهني ووجودي بيني «أنا» وبين الأفراد أو الحركات والظواهر والأشياء والأفكار الأخرىٰ فإن هذا «الإرتباط» يولد انعكاساً في «الأنا»، ويصير هذا الانعكاس جزءً من ذاتي «أنا»، وتتشكل منه شخصيتي، فتكون شخصية الإنسان ـ إذن ـ عبارة عن مجموعة العلائق والروابط التي تربطني بالأشخاص والأفراد الآخرين، والعاقبة أنّ زيني وشيني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بزين وشين مجموعة الأفراد والأشخاص والأفكار والمفاهيم والقضايا التي تحيطني وتحوم حولي وتربطني بها أواصر وعلاقات من قريب.

قد يكون هذا الارتباط قائماً في عمق التاريخ من خلال النص التاريخي ـ كما لو كنت أقرأ كتاباً تاريخياً ـ فنحن قبل أن نعرف الحسين لم تكن ثمة روابط بيننا، ولكننا حينما نقرأ كتاباً أو نسمع خطاباً عنه ونسمع أقواله يحصل بيننا تماس ذهني شعوري عاطفي،

---

(١) هايديجر، مارتن (١٨٨٩ ـ ١٩٧٩) فيلسوف ألماني يعتبر مؤسس الفلسفة الوجودية.

فيصبح جزء من معلوماتي ومعارفي، ومن ثم جزء من خصوصياتي الشخصية وجزء «الأنا».

فهناك إذن علاقة طردية بين وجود الإنسان وبين مقدار معارفه[١] ومراده ومعلوماته، المراد والأفكار والطموحات والظواهر والمفاهيم الخارجية التي يرتبط ويتعلق بها وتتحول فيما بعد فتصير جزء من شخصيتنا ووجودنا الماهوي.

ثم، إننا إذا أعطينا جزء من وجودنا لشيء ما فإنه سيصير جزء من ذلك الشيء، فنحن نقدس العدالة ـ مثلاً ـ ونفكر بها وقد صارت جزءاً من شخصياتنا نتيجة ارتباطنا بها وتماسنا معها كمفهوم ومطلوب، فلو أننا تبرعنا بألف تومان[٢] من أموالنا في سبيل تحقيق العدالة فإن هذه الألف تومان تكتسب قداسة العدالة فيما كانت قبل ذلك مجرد مبلغ من المال في جيوبنا ليس إلاّ، ولمّا أعدمناها في سبيل العدالة فإنها ستوجد بشكل آخر وتصير حينئذٍ «ذات العدالة».

مثال آخر: إطعام الفقير قضية مقدسة عندنا، فلو أننا أنفقنا مبلغاً من المال في إطعام عدة فقراء فإن هذا المال الخارج من جيبنا لهذا الغرض سيكتسب «قيمة» غير قيمته كـ«مال»، قيمة خاصة، قيمة إطعام الفقير، يعني أنّ قيمته المادية المالية تتحوّل إلىٰ قيمة معنوية، فإذا انفقنا هذا المبلغ في سبيل التنمية والعمران أو إعداد

(١) قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «قيمة كلّ امرىء ما يحسنه» نهج البلاغة قصار الجمل: ٨١.

(٢) التومان: عملة إيرانية.

الغذاء الفكري ونشر الثقافة أو التأليف والترجمة، فإنه يكتسب قدسية جديدة بمستوىٰ قدسية ذلك «الفكر» الذي أُنفق المال في سبيله وضحي به من أجله، ويكتسب ذلك المقدار من المال المضحىٰ به المعدوم في هذا السبيل قيمة وجودية ووجوداً يتناسب والسبيل المبذول من أجله، يعني أن عين المال ووجوده فني ولكنه اكتسب وجود تلك «الفكرة» وقيمتها.

فالمال ـ في الواقع ـ طاقة وقوة وقدرة خارجية قد تصرف في حفلة ليلية وتتحول إلىٰ لهو ولعب وحينئذٍ يكون لها ما للهو من قيمة أو قدسية ـ حسب موازين الناس في تقديس أو عدم تقديس هذا العمل ـ، وقد يصرف نفس المبلغ ـ أو الطاقة والقدرة الخارجية ـ في نشر فكرة أو الدعوة لعقيدة، الترويج لأمر مقدس أو عاطفة نزيهة، أو بث الوعي بين الناس، فإن هذا المال يتحول أيضاً إلىٰ طاقة وقوة معنوية تماماً كالنفط والبنزين الذي يحترق ويفنىٰ من أجل إيجاد حركة في السيارة أو تشغيلها قبل الإنطلاق، وهذه الطاقة ناتجة عن الشيء الذي فديناه بالمال.

وهذه القيمة ليست قيمة المال الذي يتحول إلىٰ قوة وطاقة، وإنما هي ثابتة لي أنا الذي دفعت المال؛ لأن ذلك المبلغ كان جزءً منّي، وتنعكس قدسية الأمر الذي أنفقنا المال في سبيله عليّ أنا وتعود قيمته إليّ فاكتسبها شخصياً لأن مبلغ المال كان جزء من وجودي، وعليه فالمبلغ المصروف في سبيل العدالة يتحول إلى «قداسة العدالة» وتسري هذه القداسة إلى الأموال ـ وهي شيء مادي اقتصادي صرف ـ وكذلك الأمر إذا صرفت في إطعام المساكين فإن

قيمة الإطعام تسري إلىٰ المال، وأما إذا صرفت في اللهو والعبث والأعمال القذرة فإنّها لا تتحول إلىٰ قيمة، بل تنقص قيمته المادية حينئذٍ.

وهنا نصل إلى قاعدة وأصل عام وهو: أنّ كلّ شيء يفنىٰ من أجل شيء آخر فإنه يكتسب قيمته بنفس تلك النسبة، يعني أن عينه تفنىٰ وفي نفس الوقت يولد ويوجد بلحاظ القيم، فهو وجود في فناء، وفناء لوجود يعقب بقاء للمطلوب، ثبوتاً للفكرة، للطموح، للقيم، للعلم، للمقدسات من قبيل الحرية والعدالة والإحسان

فأنت حينما تصرف المال في سبيل أمر معين ـ العلم مثلاً ـ فالمال يتحول إلىٰ عدم، إلىٰ صفر، يفر من جيبك، ولكنه يتحول في نفس الوقت إلىٰ قيم ذلك الهدف المطلوب الذي انفق في سبيله ثم تسري تلك القيم إلىٰ المال.

وهكذا الأمر بالنسبة لي «أنا» حيث أن وجودي وحياتي الحيوانية، غرائزي، مستقبلي، عمري، ساعات ولحظات حياتي كلها جزء من وجودي أيضاً، فإذا صرفت ساعة من وقتي في تحصيل المال فلا قيمة لهذه الساعة لأن تحصيل المال لا قيمة له فتكون هذه الساعة فداء لعمل ليس له قيمة ذاتية ولا قدسية فلا يترشح منه شيء وبالتالي لا أكتسب شيئاً من القيم بتاتاً، ولو صرفت هذه الساعة في سبيل العلم وهداية فرد ما أو تعليم جماعة ما من دون أن أتقاضىٰ ثمناً لعملي ـ حتى لا تكون معاملة ـ فإني ضحيت بهذه الساعة من عمري المباح العقيم في سبيل إحدىٰ القيم

فتتحول هذه الساعة حينئذٍ إلى قيمة من قيم الطريق الذي صرفت فيه.

والشهيد هو من يمنح وجوده بالكامل في عملية واحدة، ويفني نفسه من أجل تلك العقيدة وذلك الهدف المقدس الذي نؤمن به وبقدسيته جميعاً، ومن الطبيعي أن تسري قدسية المعتقد والهدف بالكامل إلىٰ الوجود الذي ضحىٰ به الشهيد، ولهذا نلاحظ وجوده يعدم في لحظة ويتحوّل إلى صفر، بيد أنّه يكتسب قيمة الهدف الذي ضحىٰ من أجله اكتساباً مطلقاً، ويتحوّل إلى «قداسة» مطلقة في ذهن الأفراد وأفكارهم لقد تحوّل الإنسان النسبي إلىٰ إنسان مطلق، لأنه ما عاد إنساناً، شخصاً، أو فرداً وإنما هو فكر مقدس، لقد راح الفرد فداء للفكر فصار فكراً.

وعليه فنحن لا نرىٰ في الحسين شخصاً خاصاً، لا نراه إبن علي فحسب، فالحسين إسم للإسلام، للعدالة، للإمامة، للتوحيد، ونحن لا نعظم ونقدس فيه شخصاً، فرداً، حتىٰ نقارنه فيما بعد بغيره من الشهداء لنعرف الأفضل ثم نقيّمه علىٰ أساس ذلك. أبداً ليس الأمر كذلك، فإذا تحدثنا عن الحسين فلا نقصد «الحسين» الفرد وإنما الحسين عبارة عن فرد ذاب وضحىٰ بنفسه بأروع صورة يمكن أن يتصورها إنسان، ضحىٰ بنفسه بخلوص مطلق في سبيل «مقدسات» مطلقة، فتحول إلى قدسية مطلقة، وصار ذات تلك «المقدسات» التي راح ضحيتها ولم يبق منه سوىٰ الإسم، وأما محتواه فلم يعد فرداً وإنّما هو فكر قد تحوّل إلىٰ المصدر والرسالة، صار فكراً يساوي الرسالة، وهكذا الأمر في من

يستشهد في سبيل الأمة فإنه يكتسب قداسة الأمة، يقدسه أولئك الذين يعتقدون أنّ الأمة ليست مجموعة الأفراد وإنّما هي روح جماعية تهيمن علىٰ الأفراد، فحينئذٍ يصبح الشهيد تجسيداً معنوياً لتلك الروح الجماعية العامة، يكتسب شمولية وطنية ويتحول إلىٰ مفردة من مقدسات الأمة.

وحينما يضحّي الفرد في سبيل العلم فسوف يفقد خصوصياته الفردية ولن يعود فرداً وإنما يصير علماً، شهيداً للعلم.

وحينما نثني علىٰ من ضحىٰ في سبيل الحرية فإنما نثني على الحرية ولا نقصد الفرد الشخص باعتباره إنساناً طيباً صالحاً.

صحيح أنّ للشهيد موقفاً خاصّاً وحساباً آخر يوم القيامة، حيث يعامله الله معاملة فردية خاصة، بيد أننا لا نثني عليه كفرد في مجتمعنا بناءً على ما نؤمن به وإنما نكبر فيه الفكر ونقدس فيه المقدسات.

وهنا يتضح معنىٰ كلمة «الشهيد» أكثر، بمعنىٰ أن الفكر والمعتقد حينما يكون مهدداً بالإبادة، والرسالة المقدسة حينما تعاني المصادرة والتشويش والسلخ من أذهان المؤمنين بها رويداً رويداً من خلال مؤامرة محبوكة حتى تمحىٰ من وجدان الجيل الجديد، وتودع القضية تدريجياً في زوايا النسيان، وحينئذٍ يهب رجل في لحظة فينفي نفسه ليثبت ذكر الفكر المهدد بالانقراض، يموت لتحيى «العقيدة»، يضحي بروحه ليرسخ «الفكرة» ويمنحها الوجود مرة أخرىٰ ويعيدها إلىٰ ساحة الحياة، ففي ذات الوقت

الذي يتحول فيه الشهيد إلىٰ «فكر» ويكون دائماً وأبداً شاهداً مشهوداً مرئياً منظوراً حاضراً نصب أعيننا، يكون «الفكر» ـ أيضاً ـ حاضراً فيه دائماً وأبداً، متجسداً وثابتاً فيه، ينتعش مرة أخرىٰ ويحيا من جديد.

* * *

الشهادة الحمزوية والشهادة الحسينية

الشهداء عندنا علىٰ نوعين: نموذج أحدهما، حمزة سيد الشهداء والنموذج الآخر الإمام الحسين.

وحمزة يختلف عن الإمام اختلافاً كبيراً، حمزة بطل مجاهد تقدم للقتال من أجل النصر وإلحاق الهزيمة بالعدو، فغلب وقتل وصار شهيداً، وهذه شهادة فردية بمعنىٰ أن اسم حمزة تصدّر لائحة الرجال الذين قدموا أرواحهم في سبيل العقيدة.

أما الإمام الحسين فنموذج آخر؛ إنّه لم يتقدم ليحصد العدو بسيفه ويكسب الجولة وينتصر ثم لم يفلح، أو أنّه تعرض لمحاولة اغتيال ثم قتل علىٰ يد «وحشي»، كلا، ليس الأمر كذلك، قد كان بوسعه القعود في بيته والبقاء علىٰ قيد الحياة، ولكنه قام ثائراً وتقدم نحو الموت بكامل الوعي، واستقبل المنية استقبالاً واعياً، واختار الموت والتضحية في تلك اللحظة الحاسمة، وركب الأخطار بملء إرادته ليحضر في الميدان ويقف أمام المتفرجين ويشهده أهل الدنيا والتاريخ ويراه المعاصرون والآتون بعدهم فيتسع مدىٰ تأثيره وصداه وانعكاساته وإشعاعاته ويعجل في تحقيق أهدافه من خلال

اختيار الموت والتضحية بالروح.

فالإمام الحسين ـ إذن ـ يختار الشهادة كهدف ووسيلة، وسيلة لإثبات الأمر الذي يسرع نحو الأُفول، يحاربه الجهاز الحاكم ليلقي به علىٰ الهامش ومن ثم.. يمحقه، وسيلة لإحياء ما تسعىٰ السلطة لإماتته.

فيما كانت «الشهادة» تختار حمزة وسائر المجاهدين الآخرين الذين قتلوا في سبيل الله، يعني أن حمزة وسائر المجاهدين جاءوا من أجل «النصر» وإن احتملوا الموت أيضاً فإنهم أقدموا بنية «النصر» فإذا أصابهم الموت فمرحباً به، أمّا الهدف الأساس فهو الانتصار والحاق الهزيمة بالعدو، فيما كان هدف الإمام الحسين بذل النفس والتضحية بالروح من أجل المقدسات المهددة بالإبادة، المتدرجة في غياهب الأُفول.

الفرق بين الجهاد والشهادة

فالجهاد يختلف ـ إذن ـ عن الشهادة اختلافاً كاملاً، ويفترقان هنا عن بعضهما، ولهذا نلاحظ الإمام أمير المؤمنين يعبّر عنهما بكلمتين في موضعين ويبين لهما فلسفتين مختلفتين.

«الجهاد عزاً للإسلام»

فالجهاد إذن عمل غير الشهادة وله فلسفته الخاصة، بديهي أن الجهاد قد يؤدي إلى الشهادة بيد أنها شهادة حمزوية وليست حسينية.

«والشهادة استظهاراً على المجاحدات»(١)

يعني أن هدف الشهادة استظهار المجاحدات، وهي دائماً غير الجهاد؛ لأنّ حكمها مستقل له موضعه الخاص وهدفه الخاص، ذلك «عز للإسلام» وهذا «استظهار للمجاحدات».

هكذا أفهم: أن ثمة حقيقة ما تكون شعاراً وعواطف جياشة مقدسة يتبعها الجميع وتتمركز حولها القوىٰ في برهة زمنية معينة، وعلىٰ مرّ الأيام وتقدم الزمان تحتوشها المؤامرات لأنها تشكل خطراً لجماعة خاصة ولا تلتئم مع مصالحها كأقلية، فتحاك ضدها الدسائس لتغيب عن الأذهان وتطرد تدريجياً عن صفحة الزمان، وتطرح بازائها قضايا الساعة ثم تطرح مكانها مسائل أخرىٰ ليغفل الناس عنها وتبتعد عن اهتمامهم، فينهمكون تدريجياً في قضايا أخرى ويعالجون مسائل فرعية وأموراً جزئية، وبمرور الزمن تضيع القضية الأصلية ويلفّها النسيان.

وحينئذٍ يهبّ الشهيد ليقدّم نفسه قرباناً ويضحي بروحه وسط الميدان ليظهر ما يريدون له الخفاء، ويجلي ما يريدون له التشويش، ويعيد إلى الأذهان ما يريدون تغييبه، ويستحضر القضية من خلال عمله الفدائي، ويعيد شعار المقاومة إلى الأوساط، ويطرد الأفكار البديلة والقضايا المطروحة بإزاء القضية الأصلية، يبطل الخطة المرسومة لإبادة الحقيقة، ويعبّد الطريق للقضية

---

(١) نهج البلاغة ٥١٢ قصار الجمل ٢٥٢.

الأصلية لترجع من جديد، وهذا هو الهدف.

وكانت القضية الأصلية بعد عصر النبي (عصر الإمام الحسين) قضية القيادة والإمامة وكلّ قضية أُخرىٰ كانت قضية فرعية.

وخلاصة القول: من أحقّ بالحكم؟ ولمن نسلّم زمام الأمة؟ وبيد من نجعل مصائر المسلمين؟

وكانت هذه القضية تدوي في عصر الأمويين؛ وكانت الثورات والحركات والمعارك والاشتباكات وكلّ المشاكل والصعوبات التي واجهها الأمويون ناشئة من الاختلاف في هذه القضية، وطالما هرع الناس إلىٰ المساجد وأخذوا بتلابيب الخلافة كلمّا استجد أمر وحدث حادث وأحرجوه بسؤالهم: كيف وصلت إلىٰ سدة الخلافة؟ هل لك علىٰ ما في يديك آية من كتاب الله أو دليل من سنة رسول الله؟ هل أن الحقّ معك وأنت أحق من غيرك أو أنّ الحق عليك؟ وما أصعب الحكم في مثل هذه الأجواء! وهل يمكن استتباب الأمور؟! ولهذا كان عمر الحكم الأموي قصيراً لم يدم قرناً واحداً.

وفي عصر العباسيين أوجدوا من خلال التجارب الأفضل التي خاضوها جواً من «دپوليتيزه» (DEPOLITOSE) العامة بين الناس أي أنهم خدّروا الناس حتى فقدوا الحساسية تجاه قضايا الأمة والقيادة ومصير الأمة.

كيف توصّلوا إلى ذلك؟

استخدموا أقدس الأمور: استخدموا العبادة، التفسير، علم الكلام، الفلسفة، استيراد الكتب من الخارج وترجمتها، نشر العلم، تفعيل الحركة العمرانية والحضارية والمدينة، رفعوا شعار: لتكن بغداد وريثة جميع المدن والحضارات العظمىٰ في العالم، وليكن المسلمون أكثر أهل الدنيا تطوراً، ليكن كلّ شيء إلاّ شيئاً واحداً، لا بد أن يغفل ويتنكر له ويقضىٰ عليه ولا يتحدث أحد في شأنه.

ويثور الشهيد من أجل إحيائه وإعادته للحياة مرة ثانية، ولأنه لا يملك شيئاً يضحي به، يقدّم نفسه بسخاء، ولأنه ضحىٰ بروحه ووجوده في هذا السبيل لهذا تنتقل كلّ قدسية تلك القضية وتسري إلىٰ الشهيد ويصبح احدىٰ المقدسات فيها.

* * *

شهادة الأمة

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[١].

الشهادة هنا لا تعني القتل، وإنما تعني: أنّ ثمة شيئاً غائباً في طريقه إلىٰ الزوال والأفول ومغادرة الميدان، يكاد الناس ينسونه تدريجياً؛ والشهيد يشهد لهذا المظلوم المقهور المخنوق الصامت، ومن ثم يعيده إلى الأوساط من جديد.

وللشهيد هنا معنىٰ آخر: فالنبي شهيد وإن لم يقتل، إنّه شهيد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

بدون أن يكون مقتولاً، ومهمة الأمة الإسلامية التي بينيها القرآن ومسؤوليتها «الشهادة»، الشهادة بدون قتل، مهمة الأمة أن يكونوا شهداء كما كان الرسول شهيداً عليهم، وعليه فإن مقام الشهادة، ومفهومها ومداها أعم وأعلى وأوسع من القتل، غاية ما في الأمر أنّ من يضحي بنفسه يؤدي الشهادة بأعلى وأرقى صورها ومراتبها، لأن أفراد المسلمين مكلفون بإقامة المجتمع «الشهيد» والقدوة للآخرين كما أن النبي نموذج وقدوة نبني أنفسنا على أساسه، النبي «شهيد» علينا ونحن «شهداء» علىٰ الناس.

فالشهيد هنا بمعنىٰ «فارس الميدان» «وسط الأمر» «نموذج» «قدوة» «مثال يحتذي به الآخرون» ويقوّمون أنفسهم علىٰ أساسه، يعني أنكم اجعلوا النبي وسط ميادين الثقافة، الإيمان، العلم الفكر، المجتمع واتخذوه قدوة في بناء شخصياتكم، مجتمعكم، ثقافتكم، ظاهركم وباطنكم، وحينما صنعتم أنفسكم علىٰ أساس ذلك النموذج وتوسطتم ميادين الجغرافيا والتاريخ، يجب حينئذٍ على باقي الأمم والشعوب أن تقتدي بكم وتبني نفسها على مثالكم.

فهم شهداء، يعني أن النبي يؤدي لهم دوره، ويقومون هم بدورها لغيرهم من الأمم، فيؤدون دور النموذج والإنسان والأمة القدوة.

ولهذا أصبح معنى «أمّة وسطاً» يناسب معنى الشهيد ويلتئم معه تماماً، فغالباً ما يفسرون «أمّة وسطاً» بمعنى الأمة المعتدلة الأمة، التي لا تبتلي بالإفراط والتفريط، لا تغرق في الماديات ولا في الروحانيات، الأمة التي توازن بين الروح والجسد والماديات

والمعنويات وتسلك في سبيل ذلك طريق الإعتدال والوسط.

وهذا المعنى مأخوذ في أساس الرسالة بيد أن «الوسط» المقصود في رسالة الأمة التي يراد لها أن تكون «شهيداً» على الناس له معنىً أعظم بكثير، يعني أننا «أمة» نتوسط الميدان، ميدان الأرض والزمان، نحن «فرسان الميدان»، نحن قطب القضية، نتوسط الساحة، لا نكون شرذمة تدور حول نفسها في أقاصي «الشرق الأوسط»، بعيدة غافلة عما يدور حولها، غافلة عن معارك الأفكار والقضايا المصيرية التي تبني حاضر البشرية وغد التاريخ وتشكل صورة الحياة في كلّ مجال، لا نعرف سوى الإجترار وتكرار المكررات ثم تغمرنا السعادة! كلا، إنما نكون وسط الساحة ومحور الميدان.

لا نكون أمّة غائبة، معتزلة، بل نكون مجتمعاً أمميّاً في وسط الشرق والغرب، اليمين واليسار، مركز الأقطاب، وسط المعترك يحمل رسالته العالمية، كذلك الشهيد إنسان شاهد حاضر في جميع المواقف والميادين ليس بغائب عنها.

* * *

شهادة المجاهد وشهادة الشهيد

لقد طرحت العام الماضي نظرية حول الشهيد ملخصها: أن الشهادة حكم مستقل في الإسلام مثلا الصلاة، الصيام، الجهاد، فيما يعتقد الجميع أن الشهادة للمجاهد «حالة» و«نهاية»، وهي عبارة عن قتل المجاهد بيد العدو أثناء الجهاد، وهذا فهم تتضمنه

الشهادة أيضاً، إلاّ أن ما أُطلق عليه اسم «الأصل» الذي يأتي بعد الجهاد ـ وليس في رتبته ولا درجة ينالها المجاهد عند الله يوم القيامة ـ إنما هو «شهادة» خاصة مثالها «الحسين عليه السلام».

لقد شهدنا في تاريخ الإسلام شهداء عظاماً كان من بينهم الأئمة وفي مقدمتهم جميعاً «علي»، أعظم إمام وأعظم رجل صنعه الإسلام، وكان عندنا ـ أيضاً ـ حمزة والحسين نموذجان للشهادة.

حمزة بطل الإسلام العظيم في معركة أحد الحاسمة وأكثر المعارك حساسية في تاريخ الإسلام، استشهد حمزة في معركة أحد علىٰ أثر مؤآمرة غاشمة رتّبتها هند ـ زوج أبي سفيان وأم معاوية ـ ونفّذتها على يد «وحشي» غلامها، فأخذت مصيبته من النبي مأخذاً عظيماً وأثّرت فيه تأثيراً بالغاً لم يعهد فيه أبداً على طول حياته المليئة بالأحداث حتىٰ في موت ولده إبراهيم وقتل أعز أنصاره وأصحابه وأصعب مواقفه وأمضّ الفجائع التي مرت به، وكان ردّ فعله بعد تلك الفاجعة شديداً قويّاً، وقد أكبر أهل المدينة بطولة حمزة إكباراً عظيماً حتىٰ اتهمهم السعوديون بعبادة حمزة، ممّا يدلّ على جلالة قدره وشموخه في نظر المدنيين مع أنه لم يكن مدنياً، وكان دخول حمزة في الإسلام فتحاً أعز الإسلام وجعله يتحرك على الأرض بطول قامته، لأنه كان معروفاً لدى قريش في مكة بالبطولة والشجاعة والإقدام والنخوة والقوة والبطش.

حمزة «شاب» بني عبد المطلب، رجل القنص والسيف والقتال، فارس الحروب المتدفق بالقوة والشباب، دخل الإسلام

بعد أن تعرض النبي لإهانة قريش، فهبّ حمزة بنبله ورجولته للدفاع عن نبي الإسلام، وما إن انضم إلى صفوف الجماعة الإسلامية القليلة الضعيفة حتى صارت تلك الجماعة في موقع القوة والاقتدار، وأخذت تعرض عضلاتها بجرأة، ولم تعد جماعة ضعيفة مطاردة، مستضعفة تعاني التعذيب والتشريد والملاحقة، بل أخذ العدو يحسب لها حساباً ويخشىٰ منها الرد.

وأكثر من ذلك، فما دام حمزة موجوداً وما دام سيفه مشهوراً ـ فإنه يغطي علىٰ غيره من الوجودات بنحو ما ـ حتى علىٰ أبرزها والمعها في الإسلام ـ يعني الإمام علي ـ حيث كان حمزة رجل الميدان الأول في معركة أحد ومن بعده علي!

وحينما قتل حمزة بتلك المؤامرة النسوية القذرة، غضب النبي غضباً شديداً وتألم تألماً بالغاً، ولمّا وقف علىٰ جثمان عمه حمزة وجده ممثلاً به وقد فقأوا عينيه وجدعوا أذنيه وأنفه وصنعت هند من أعضاء جسده اقراطاً وخلاخيل وقلادة مهولة لبستها، وحقق الرجل الآخر الذي أقسم يميناً أن يشرب من دم حمزة أمنيته في أحد.

حينما رأىٰ النبي محمّد ﷺ جنازة هذا البطل العظيم، الإبن الشاب المحبوب لعبد المطلب، عمّه الشاب المجاهد، غضب وقال قولاً عنيفاً سرعان ما ندم عليه وحذّره الله منه[١]، أنه نذر إن ظفر بهم أحرق ثلاثين منهم، فصرخت به السماء: إن الاحراق

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي ذيل الآية ١٢٦ من سورة النحل، بحار الأنوار ٢٠/ ٦٣ انظر أسباب النزول للواحدي ذيل الآية ١٢٦ من سورة النحل، تاريخ الطبري ٢/ ٧٢.

بالنار لله فقط، وليس لأحد من عباده أن يحرق بالنار، فانصرف النبي عن عزمه، وراح يعبّر عن أساه وحزنه بالعبرات والدموع، وحينما رجع إلى المدينة كان الناس يبكون شهداءهم ولم يكن ثمة بيت يبكي حمزة، لأنه مهاجر وحيد غريب ليس له في المدينة أهل، فانفجر النبي معبراً عن عواطفه ومشاعره تجاه هذا الحادث الجلل، ولم يحسب أحد أن سيكون ردّ فعل النبي بهذا الشكل العاطفي الرقيق المؤثر، والنبي رجل الحرب والسلاح والتحمل والصبر، فعاتبهم عتاباً حاراً، تدفق كالحمم عليهم فقال: «إلاّ عمي حمزة لا بواكي له»[١].

فبادر البعض إلىٰ النبي وقالوا: يا رسول الله نحن نبكي حمزة فشكرهم النبي على عواطفهم ومشاعرهم.

وهكذا استشهد حمزة ومنح ـ لأول مرة في الإسلام ـ لقب «سيد الشهداء» ومن ثم اختص هذا اللقب بالحسين، وكلاهما سيد الشهداء ولكن ثمة فرق أساسي بين الشهادة الحمزوية والشهادة الحسينية، كل واحدة منهما لها خصائصها الخاصة وتندرج تحت عنوان يختلف اختلافاً تاماً عن الآخر بحيث لا يمكن بحال المقارنة بينهما وقياس بعضهما إلى بعض.

فحمزة مجاهد قتل في حومة الحرب، عند استعار أوارها، أمّا الحسين فهو شهيد حتى قبل أن يستشهد. . . استشهد في عقر داره قبل أن ينحر في كربلاء، منذ أن دعاه الوليد ـ حاكم المدينة ـ

(١) انظر العقد الفريد ٣/ ٢٣٥.

إلى البيعة ورفضها وقال: لا[١]، كانت هذه الـ«لا» رفضاً ونفياً لشيء اختار بإزائها الشهادة... فالحسين «شهيد» منذ تلك اللحظة؛ لأنّ لفظ «الشهيد» و«الشهادة» لا يطلق ـ بناء على هذا المبنىٰ ـ علىٰ القتيل وعملية القتل، وإنّما الشهادة بناء علىٰ هذا الفهم شهادة علىٰ أمر ما ونهي ونفي ورفض لأمر ما.

فالشهيد ـ إذن ـ هو من يبادر إلى إتخاذ القرار، ويختار، ثم يبلغ الشهادة حتىٰ لو كانت الفاصلة الزمنية بين اتخاذ القرار والشهادة بلغت الشهور بل السنين.

وإذا أردنا أن نبيّن الفرق الأساسي بين هاتين الشهادتين بعبارة واضحة، مختصرة، معبّرة، نقول: إنّ الشهادة الحمزوية هي اختيار الشهادة للشهيد، تقدم الموت نحو الشهيد، وعلىٰ العكس من ذلك قصة الحسين حيث يختار الشهيد الشهادة، الحسين رجل اختار الشهادة، وحمزة رجل اختارته الشهادة.

إنّ ثمة فرقاً بين حركة المجاهد وحركة الشهيد، لكل واحدة منها فلسفة تختلف عن الأخرىٰ.

المجاهد، مقاتل مخلص يثور من أجل الدفاع عن أمته وعقيدته ومقدساته، أو من أجل إعزاز أمته ورفع رايات عقيدته وتوسيع رقعتها في الآفاق، يحارب العدو ما دام العدو يشكّل سداً مانعاً في وجه دعوته وعقيدته ورسالته، أما ما دام العدو يترصد

---

(١) انظر اللهوف لإبن طاووس ١٠، تاريخ الطبري ٣/ أحداث سنة ٦٠ ـ ٦١.

ويشكل خطراً يهدد مقدساته وأمته ـ وهذا هو الفارق بين الهجوم والدفاع في الجهاد ـ فيهاجم المجاهد صفوف العدو ليبيده ويهزم فلوله وينتصر عليه، ولربّما قتل في هذا السبيل وأدركته الشهادة، وحينئذٍ يمنح لقب الشهيد.

ولهذا يعد هذا النمط من القتل ـ يعني في مقام الشهادة الحمزوية ـ حالة، مصيبة، مأساة، ضربة، نازلة فادحة، واجهت المجاهد وقطعت عليه استمراره في طريق الجهاد من أجل تشتيت شمل العدو والانتصار عليه.

فالشهيد والشهادة الحمزوية ـ إذن ـ عبارة عن قتل امرىء نوى قتل الأعداء وشمّر ساعده للقضاء عليهم: المجاهد.

والشهادة الحسينية عبارة عن قتل امرىء ثار من أجل أن يقتل.

هنالك: الشهادة حادثة مؤلمة تعترض المسيرة وتقطع الاستمرار في الطريق.

وهنا: الشهادة منزل في منتهىٰ المسيرة ومقصد في نهاية الطريق.

هناك: القتل تراجيديا وحادثة مأساوية.

وهنا: القتل فكرة، نظرية، طموح، مُثل.

هناك: يقتل المجاهد الذي خاض غمار الحرب من أجل قتل العدو، ولا بدّ ـ حينئذٍ ـ من النّوح والعزاء والحسرة وإقامة المآتم والتأبين.

أما هنا: فلا أسف ولا حسرات؛ لأنّ الشهادة درجة عالية وقمة سامقة وغاية التكامل الإنساني الذي يوصل الفرد إلى المطلق عبر الموت الذي اختاره بنفسه.

إنها ليست حادثة مشؤومة تحكي تمكن العدو وغلبته، وإنما هي سلاح بيد الصديق يفلق به هامة العدو.

ولهذا تسلح الحسين بسلاحه الأوحد لما فقد كل القوى وكل الأسلحة ولم يعد قادراً على امتلاك شيء منها ليدحض الباطل ويدافع عن الحق... تسلّح بالموت ونزل به كالصاعقة علىٰ رؤوس الأعداء، وهوى به كالسيف يهشم به هامة العدو المهاجم.

هكذا هي الشهادة، إشعاع ونفوذ منقطع النظير... تتغلغل في الأعماق، وتشعل النور والدفء والحرارة في العالم أجمع، وفي القلوب الذابلة، والأرواح الكئيبة المكدودة، وتبعث الحياة والحيوية والنشاط والحركة في الإرادة المشلولة، والمواقف المهزوزة، والأفكار الجامدة، والعقول المتحجّرة، والظلمات المتراكمة، والأذهان الذاهلة الساهمة عن الحقوق والذكريات والأمجاد.

الشهادة تمنح البصيرة والرجاء، وتحيي الآمال والطموحات، وتبدل «لا يمكن أن نعمل أيّ شيء» إلىٰ «يمكن أن نعمل أي شيء» بل إلى «لا بدّ أن نعمل شيئاً»... تقلب العجز قدرة واليأس أملاً.

الشهادة: قتلة تنتهي باعدام العدو غير أنه ليس بيد الشهيد وإنما بيد الذين صنعهم دم الشهيد، إنّ الشهيد لا يسقط العدو

ولكنه يجرّه إلىٰ حافة المنحدر ويضعه علىٰ فوهة الهاوية.

إن الشهيد لا يختار الموت ليهرب من الواقع ويفرّ من المشاكل والصعوبات ويفلت من العار والضغوطات، إنه لا يختار الموت لينكمش ويفرّ من الزحف، وإنما يختار الموت ليبدأ هجوماً كاسحاً.

الشهيد يختار الموت، وبه يدين الظالم، ويلزم المظلوم، ويفضح الظلم ويظهر المستور، ويثير الدفين، ويكشف المكتوم، ويعيد إلىٰ الأذهان ما سلب منها، ويضخ دماء الحياة والثورة والحركة والغليان في قلوب الأفراد وصميم عقائد الأمة الخاملة المترهلة.

دم الشهيد قبس وشموع تضيء الطريق للعيون التي ابتليت بالعشىٰ في ظلمات الاستبداد والاستعمار السوداء، فلم تعد ترىٰ خط الحق وطريق الهدىٰ، ولا تقوىٰ على تمييز الحق ومعرفة وجوه الحقيقة، وكلّ ما تراه فهو فساد ومفسد. . .

دم الشهيد وهج ومشعل هداية يرشد الضالين والتائهين، ويحدد معالم الطريق للغارقين في أوحال الذات والمتقوقعين والمشردين في الجبال والفيافي والقفار والمفاوز والوديان. . .

إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة.

الانتظار.. مذهب الاعتراض(١)

موضوع بحثي الليلة حساس جداً، أقول هذا لحضراتكم لأطلب منكم أن تنتبهوا أكثر مما تنتبهون في العادة إلى حديث متحدث.

حساس، لأنه موضوع يحتوي على أساس إحساسنا وفكرنا ومسؤوليتنا الاجتماعية، وأهم من هذا حساس؛ لأنه أكثر من كل القضايا والأصول العقائدية المطروحة بيننا ذو وجهين. . ليسا غير متشابهين أو حتى مختلفين فحسب بل هما وجهان متناقضان بنسبة مائة في المائة.

الفرو المقلوب:

إنني أعرض هذا المبدأ العام لا كإنسان متعصب لدينه ومذهبه، ويحلل القضايا العلمية والتاريخية من منطلق عقائده ببل

(١) انتظار «مذهب اعتراض» محاضرة ألقيت في حسينية الإرشاد في ١٨/ ٨/ ١٣٥٠هـ. ش وترجمت عن طبعة مصورة لـ«اتحادية أنجمنهاي إسلامي دانشجويان در اوربا وانجمن إسلامي دانشجويان در أمريكا وكانادا في ١٥ خردارماه سنة ١٣٥٦هـ.

كمعلم محايد لتاريخ الأديان[١] إذ أن كل شخص أياً كان مذهبه، إذا نظر ـ بعين المنطق العلمي ـ إلى المذهب، سوف يصل إلى هذه النتيجة القائلة بأنه لا يوجد دين في تاريخ البشر حدثت مسافة بين واقعه الموجود وبين حقيقته الأولى بقدر الدين الإسلامي.

في الأديان الأخرى يمكن أن نستخدم مصطلح «الانحراف» أو «التحريف» ويمكن القول: بأنه يحتوي على كثير من العناصر الدخيلة، وأن عناصره الأساسية أو كثير منها قد نسي، لكن هذا التعبير ليس تعبيراً دقيقاً بالنسبة للإسلام، والتعبير الحقيقي هو كلمة حضرة أمير المؤمنين علي إذ قال: «لبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً»[٢] يمكن بالنسبة للأديان الأخرى أن يقال: إنه بعد فترة نبوة نبيهم، لبسوا ثوب دينهم مقلوباً، لكن بالنسبة للإسلام استخدم «الفرو» بدلاً من القباء أو العباء، لأن الفرو وهو الثوب الوحيد الذي يكون الاختلاف بين وجهه وظهره، هو اختلاف بين منتهى الجمال ومنتهى القبح، فوجهه يجذب الأنظار بجماله مصداقاً للآية الكريمة ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّظِرِينَ﴾[٣]، وظهره من القبح منفر للكبار ومرعب للصغار، ثم إنه في الإسلام، وبين مذاهبه المختلفة.. أي التفسيرات المنوعة التي فسر بها، يختص

---

(١) لشريعتي كتاب في مجلدين في هذا الموضوع تحت عنوان: «تاريخ أديان» طبعته الثالثة طبعت في طهران «ربيع ١٣٦٨هـ. ش»، وهو قيد الترجمة وسيصدر عن دار الأمير.

(٢) من الخطبة ١٠٧ من نهج البلاغة.. نسخة تحقيق فيض الإسلام وترجمته.. ص٣٢٤. المترجم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

التشيع بأن المسافة بين ما كان وما هو كائن، مسافة ما بين طرفين متضادين بحيث أن التشيع الأول ـ وأيضاً التشيع في تاريخ الإسلام قبل هذه القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، من ناحية المنطلق الفكري والعقلي هو الجبهة التقدمية في الإسلام أو من ناحية النضال الاجتماعي والدور والرسالة التاريخية، هو أكثر الأجنحة الإسلامية عمقاً والتزاماً وحسماً وثورية، ومن بين كل عقائد الشيعة والمبادىء التي تميز بها هذا المذهب. . الإيمان «بآخر الزمان» و«الغيبة» و«المخلص الموعود» الذي يمكن التعبير عنها كلها بأنها تمثل مبدأ «الانتظار»، هو يؤمن بها أكثر أساسية مما تؤمن به المذاهب الأخرى، وهناك تضاد بين ما كانت عليه حقيقة هذه الفكرة وبين ما هو موجود، بحيث إنه مما يثير الدهشة عند كثير ممن يشاركونني الفكر ـ من التقدميين الواعين ـ أن أقوم أنا ـ صاحب الفكر المعروف من الناحية الاجتماعية بطرح قضية الانتظار والحديث عنها!!

ومن هنا فقد طلبت ـ وأكرر من جديد ـ أن تنتبهوا إلى هذا الموضوع بمنتهى الدقة. . أي بما هو أكثر مما يلزم عادة من دقة ـ وعوضوا بانتباهكم ودقتكم نقص قدرتي ومحدوديتها في بيان مثل هذه القضية الغامضة والمبهمة والمتناقضة. . التي هي «مبدأ الانتظار» لأنني واثق في أن هذا المبحث سوف يتعرض أيضاً شأنه شأن القضايا الأخرى التي طرحتها للنقد من الناحيتين المتناقضتين المتضادتين.

القطبان المتناقضان:

فمن ناحية سوف يكون هناك مفكرون ـ بالمعنى الاصطلاحي الرائج ـ ومن ناحية أخرى المؤمنون، أيضاً بالمعنى الرائج. . سوف تتهمني هذه الجماعة بأن ما أقوله لا يتفق والموازين العقائدية والمذاق الديني وسوف تتهمني الجماعة المضادة لهذه الفئة بقولها: «في مثل هذا العصر. . . وفي مثل هذا الزمان. . يريد ثانية أن يطرح نفس تلك المفاهيم القديمة بمصطلحات جديدة، ويجعل أذهان هذا الجيل غافلة عن الجنوح إلى المستقبل والعلم وتقدم المجتمع. . ها هو ذا حارس الخرافات ومبررها».

ومن هنا فإنني أطلب منكم ـ ولستم من هذه الجماعة أو تلك الجماعة، بل أنتم الوحيدون الذين أخاطبهم في هذا المجتمع ـ وأرجوكم أن تدققوا حتى لا تخافوا مثل عَبَدَة القديم من التفسيرات والانطباعات الجديدة والاستنتاجات التي تم الوصول إليها. . لا لشيء إلا لأنها جديدة. . ولا تثوروا مثل عبدة الجديد عند طرح المفاهيم الدينية واختيار المصطلحات القديمة عند مناقشة القضايا الإيديولوجية. . وذلك لأنكم أيضاً مثلي. . التعصب الديني لا محل له عندكم. . والتعصب المضاد للدين لا موضع له أكثر، بحيث أن كل ما لا يتوافق مع أذهانكم لا تستطيعون فهمه. . ومثلي أيضاً لا مقام لديكم ولا منصب بحيث تفكرون في المصلحة ـ ولا حيثية دينية. . بحيث تكونون مقبولين من العوام، ولا مركز فكري بحيث يحبكم الخواص. . ولستم تريدون عدم الفهم حتى لا يتعرض المقام والمنصب

للخطر.. ولا يصاب المركز والحيثية بوصمة أو بضعف ويبرد.

ومن هنا فلديكم المقدرة على فهم الرأي المخالف، ولديكم أيضاً الجرأة لفهمه مهما كنتم مؤمنين ولا ترون هذا الرأي شبيهاً بمشاعركم الدينية، أو كنتم مفكرين علمانيين ورأيتموه مبحثاً قديماً دينياً ينبغي أن يطرح في أوساط الدينيين، ومعناه ومفهومه معلومان وهو يتكرر في كل مكان، في المساجد ومن فوق المنابر، في التكايا والحسينيات.. وهو يخص هذا العالم القديم.. والقاعدة ألا يتناول المفكر العصري هذه القضايا.

قضية الانتظار من وجهة نظر الفئات العقائدية الثلاثة:

هناك أحكام وانطباعات مختلفة حول قضية «الانتظار» والإيمان بإمام الزمان وآخر الزمان، ومبدأ «الثورة النهائية» في نهاية التاريخ.. طبقاً للتفسيرات والقوالب العقائدية والذهنية المختلفة:

يقول العلمانيون المتعلمون: إن الإيمان بإمام الزمان وانتظاره في الأصل يخالف من الناحية العلمية الواقع والحقيقة، وهو غير منطقي وغير معقول.. وهو من الناحية الاجتماعية يحتوي على فكرة بالية تجلب الانحطاط.

هي غير علمية؛ لأن الناس في هذا القرن ـ الذي تقدمت فيه علوم الطبيعة والبيولوجيا والفيزيولوجيا كل هذا التقدم وعرفت الإنسان والحياة ـ عليهم أن يعتقدوا بأنه يمكن للفرد أن يظل حياً بجسمه الطبيعي ألفي عام أو ثلاثة آلاف عام أو عدة آلاف من

السنوات. . وهذا يخالف البيولوجيا والفيزيولوجيا ويخالف أيضاً المنطق العلمي والناموس الطبيعي.

وهي من الناحية الاجتماعية فكرة ضد التقدم وضد المسؤولية الإنسانية، لأن المؤمنين بهذه الفكرة يعتقدون أن الإصلاح الاجتماعي ووعي الإنسان وفناء النظام الغاشم ونظام التفرقة والفساد ليس في أيدي البشر، بل في أيدٍ غيبية ينبغي أن تأتي في المستقبل لتخلص مصير البشرية من الدنس والانحطاط، ومن هنا فإن الإيمان بمخلص غيبي ورسالة غيبية في الأصل، ظهوره غيبي، وحياته غيبية، وليس لمسؤولياتنا وإرادتنا أي تأثير في عمله يستوجب تلقائياً تلك النتيجة القائلة بأنه ليس لنا أي نصيب قط في تحديد مصائرنا ومجتمعاتنا وبشريتنا. ولا يمكننا أصلاً في أوان غيبته أن نقيم العدالة في مجتمعاتنا أو في الأرض. وهذه العقيدة تسلب المسؤولية من الإنسان؛ لأنها قد سلبت إرادة الإنسان. وعندما تؤمن أن الظلم والجور سوف يستمران على ما هما عليه، وسوف ينتشران، وأن استعباد الناس وإذلالهم وفساد الأخلاق سوف تظل هكذا في مسيرتها ولا يمكن لأحد أن يقف في مواجهتها، وينبغي أن تنتظر يداً غيبية تخرج من أكمام السماء وتقوم بعمل ما، يصير من المعلوم أنك لا تستطيع أن تقوم بعمل ما، ولا يستطيع أي شخص آخر أن يخطو خطوة واحدة مهما صغرت في سبيل خلاص الإنسان.

وهذا النقد طرح بشدة على أيدي كتّاب في أوروبا من أجل قمع اليهود الذين ينتظرون «مسيحهم» أيضاً، ولا يعترفون بعيسى

ابن مريم مسيحا، وكتبوا كثيراً من القصص والروايات في هذا الموضوع، ومنها قصص فكاهية وأحياناً مستهجنة جداً منها: أن زوجة أحد الحاخامات «رجال الدين اليهود» كانت تمارس الخطيئة.. وكان فسادها يزداد يوماً بعد يوم، وعلم الحاخام بذلك واعترض بشدة.. فأجابته: ألست منتظراً؟! ألا تريد أن يتحقق ظهور المسيح ويخلص اليهود بأسرع ما يمكن؟! وألا تقول: إن هذا الظهور سوف يتحقق عندما يعم الفساد؟! إنني أساهم بدوري في هذا المجال، وأساهم في وضع نهاية لانتظارك، إنك تقوم بالدعاء فحسب أن يعجل الله ظهوره.. وأنا أقوم بهذا عملياً، لأن ظهور المصلح يكون عندما يعم الفساد العالم، وكل من يسرع في إشاعة الفساد فقد يساعد في تعجيل ظهوره.

ومن هنا، فإن هذا النوع من التفسير يضع وسيلة عظمى في أيدي الناس من أجل تبرير الظلم، فعليهم أن يعتبروا الفساد وانتشاره أمراً طبيعياً، ويتجاهلون مسؤولياتهم بقدر الإمكان، ولا يقومون بأي عمل اجتماعي، لا لإصلاح المجتمع، ولا توعية أغلب الناس، ولا في مساعدة القوى التي تطالب بالعدالة والحرية، ولا في النضال ضد الظلم والفساد.. لا يخطون خطوة مهما قصرت، ولا ينطقون بكلمة مهما بلغ لينها، إن هذهِ العقيدة بالنسبة لهم أفضل وسيلة لتبرير الوضع الراهن والفرار من المسؤوليات الاجتماعية.

ومن هنا فإن المتعلم العلماني، يرى أيضاً أن هذا المبحث غير علمي وغير اجتماعي معاً، ويعتقد بأن طرح هذه القضية مضر

بأحوال المجتمع والفكر، وأن المفكر الملتزم التحرري المطالب بالعدالة والواعي بالقضايا الاجتماعية. . لا ينبغي عليه فحسب ألا يطرح هذه القضية، بل ينبغي أن يقاوم طرحها بكل ما أوتي من قوة، وعليه أن يخرج الناس من حالة الانتظار العبثي الذي لا جدوى منه. . بل ويصيبهم بالشلل، وأن يوجه إيمان الجماهير وأملها فيه إمام غائب إلى قادة حاضرين، ومن ثورة غيبية إلى ثورة اجتماعية لهم، ومن إرادة ميتافيزيقية إلى إرادتهم هم وإلى مسؤولياتهم العظمى.

أما جماهيرنا الدينية، شأنهم شأن كل الجماهير الدينية، لا يسمحون بمجرد الشك في عقائدهم وأحكامهم ومراسمهم الدينية، وذلك حتى يقوموا بتفسيرها وتعليلها والاستدلال عليها وإثباتها ورد انتقادات المخالفين والمفكرين ونظراتهم، إنهم يؤمنون بهذه العقيدة إيماناً يقينياً وحاسماً، ولا يحتملون منها الخلاف أو الخطأ، ولما كان أعظم دليل على حقانية عقيدة ما أو حكم ديني ما أنه عقيدة أو حكم ديني، أي جزء من الدين والكتاب، والرواية أو الفتوى التي ربما ألقاها رجال الدين في روعه هو مبدأ وجود الإمام الحي الغائب الذي يظهر بعد شيوع الفساد والظلم في العالم ويثور بالسيف، وينتقم من الظلمة والقتلة في كربلاء والخلفاء الغاصبين، ومن النظام السفياني، ومن العلماء ورجال الدين، من الشيعة والسنة الذين مسخوا الدين وجعلوه وسيلة لضمان مصالحهم الطبقية وأغراضهم الشخصية، أي ينتقم من كل المفسدين في الماضي والحاضر، ويخلص الناس من الظلم، والإنسانية من الفساد، ويقر

في الأرض نظام العدل، ونظام الإمامة وسنة محمد، وطريق الأنبياء وحكومة الحق وقانون القرآن، ويصنع مجتمعاً بشرياً وحكومة عالمية يجتمع فيها الذئب والحمل على نبع واحد، وتختفي فيها الحروب والزور والخداع، ويستقر السلام العالمي، وحتى في العلاقة بين البشر، يكسد سوق النقود، ويحل محلها شعار «سلام على محمد وآله».

يكون ظهوره في مكة، وعاصمة حكمه الكوفة، ومن أتباعه المسيح، وعدوه الدجال الخبيث والسفياني الديكتاتور، وأول المنضمين إليه والسائرين في ركبه ثلاث عشر ومائة من الرجال المجاهدين حسني الإيمان، وفي النهاية فإن قتلى سيفه المنتقم هم الظلمة ورجال الدين الفاسدون المفسدون، والناجون هم الجماهير المحرومة والنوع الإنساني فوق سطح الأرض!!

وهؤلاء لا يفكرون أصلاً في أن حياة الإمام الطويلة غير طبيعية وغير علمية بناءً على أقوال المعترضين حتى يقوموا بإثباتها، بل يجب أن يعتقدوا أو يؤمنوا بهذا وهم فعلاً معتقدون ومؤمنون.. فهكذا أراد الله. يستطيع أن يحيي إنساناً إلى ما شاء من أجل القيام برسالة ما.. وهذا هو ما يحدث.. وهم أيضاً لا يفكرون في هذه الناحية القائلة بأن هذه الفكرة إن لم تفهم على الوجه الصحيح، فسوف تتنافى مع العقائد الإسلامية المسلم بها، والنصوص القرآنية الحاسمة، ومن بينها تلك النصوص التي تتناول المسؤولية الفردية بالنسبة للمصير الاجتماعي ومسيرة التاريخ. وهم أيضاً لا ينتبهون

إلى هذه النقطة القائلة إن ما يترتب على هذا الفهم لهذه العقيدة ويلتصق بها أن «الصلاح» و«العدالة» من الأمور المحالة، وأن السعي أية خطوة في هذا الطريق عبث وبلا نتيجة!! إنهم يؤمنون بهذا المبدأ؛ لأنهُ عقيدة مذهبية وفي نفس الوقت يمكن القيام بأي عمل في سبيل الصلاح والعدالة إذا اعتقدوا بأنه واجب ديني.. ومن هنا هم مؤمنون بهذه الفكرة وهذه الواقعة، دون أن يقوموا بتحليلها والاستدلال عليها وتبريرها وتفسيرها تفسيراً علمياً ومنطقياً واجتماعياً إنسانياً؛ لأنهم لا يجوزون الشك فيها، إن القضية بالنسبة لهم بديهية، عبادة!!

ورجال الدين عندنا أيضاً ـ لأنهم يؤمنون بأن كل فكرة تكون في قلب المذهب، أي وصلت إليهم عن طريق القرآن والسنة أو روايات الأئمة فكرة حقيقية، وفي رأيهم أن كل قضية تكون موثقة تكون حقيقية. فإن ما فعلوه ـ من هنا ـ في هذا السبيل محدود لإثبات هذا المبدأ، وهو أن الإيمان بالمهدي الموعود منقول ومنصوص عليه، ولا بد إذن أن يكون معقولاً ومقبولاً لأن الإسلام والتشيع حقيقة مطلقة. ومن هنا فإن كل ما تتأكد أنه من الإسلام والتشيع حقيقة يقينية وجديرة بالقبول.. ومن هنا فقد جاهدوا في إرساء دعائم هذه العقيدة في إيمان الإنسان عن طريق تفسير بعض آيات القرآن، ونقل الأحاديث النبوية والروايات المروية عن الأئمة، وإثبات أن هذه التفسيرات ومستندات هذه الروايات صحيحة.. وذلك لأن الناس يؤمنون بها

دون أن يكون هناك حاجة عندهم للقيام ـ بشكل مستقل ـ بتحليلها علمياً والاستدلال عليها بالدليل العلمي وتقديم التفسير الاجتماعي والتاريخي لها.

لكن «الدينيين العصريين، في مجتمعنا، سواء أولئك الذين تعلموا تعليماً قديماً، أو أولئك الذين تعلموا تعليماً حديثاً، أو الذين جمعوا بين التعليمين، قد اختطوا طريقاً ثالثاً، حتى يصلوا إلى إثبات هذا المبدأ المذهبي بنفس طريقة أولئك المفكرين العلمانين، أي إثبات نفس الاستدلال العلمي المادي المعاصر الذي جرَّ المتعلمين العصريين إلى إنكار هذه العقيدة، وأن يمنحوا أمراً غيبياً وعقيدة عبادية جانباً علمياً وعقلياً. وعلى هذا الأساس نشروا أخيراً كتباً ترد على هجوم المفكرين المتعلمين العلمانيين، لكنها ليست قائمة على نقد «عدم اجتماعية» هذه الفكرة بل قائمة على نقد «عدم علميتها»، أي أنهم يقومون على أساس في العلوم الحديثة مثل الفيزيولوجيا والبيولوجيا أو علم الحياة بإثبات أنه من الممكن لإنسان أن يعيش أكثر من ألف سنة أو ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة بل ويعيش أكثر، وعلى هذا الأساس يفسرون الإيمان بالعمر الطويل الذي يبلغ عدة آلاف من السنوات لإمام الزمان في نفس هذه الحياة، وعلى هذه الأرض بأنه ممكن بل وعلمي. بأي دليل؟! بهذا الدليل: أن العلم الحديث لم يحدد أساساً عدداً ثابتاً من السنوات كعمر طبيعي للإنسان، ومن بين علوم الحياة أو وظائف الأعضاء أو العلوم الأخرى المختلفة بالإنسان، لا يستنتج أن مدة عمر الإنسان، وحد نصاب سنوات حياته ثابت، وليس من الممكن

أن يعيش أي إنسان أكثر من هذه الفترة المحددة، أي أن علماء الفيزياء والبيولوجيا في العالم الحديث ـ سواء الماديون منهم أو الدنيويون ـ لم يقولوا قط: إنه ليس من الممكن أن يزيد عمر الإنسان عن خمسين ومائة أو ستين ومائة أو مائتي سنة.. والعمر النهائي للإنسان ليس محدداً. وفي وطننا، بالرغم من أن معدل العمر الطبيعي للإنسان هو خمس وأربعون سنة على سبيل المثال، أي أن الناس يعيشون في الغالب ما بين خمس وثلاثين وخمس وخمسين سنة، فلا يعني هذا أن أحداً لا يعيش فوق سن الخامسة والخمسين، لأن متوسط العمر في أوروبا ثمانون سنة، لكن بعضهم يعيش مائة سنة أو مائة سنة وعشرة.. ولا يمكن القول أيضاً: إنه ليس من الممكن أن يتجاوز أحد سن العشر سنوات ومائة، فهناك نماذج، نشرت أنباءها الصحف، ووصلت هذه الأنباء إلى أذان الناس جميعاً إنه يوجد على سبيل المثال في القوقاز أو منغوليا أو أمريكا أو أفريقيا رجل شيخ عاش سبعاً وعشرين ومائة من السنة، وأنه آخر عاش ثلاثين ومائة سنة وثالث حتى خمس وثلاثين ومائة ورابع في مكان آخر حتى أربعين ومائة سنة.. لكن هل يثبت هذا المبدأ القائل: إنه لم يعد ممكناً أن يعيش إنسان مثلاً إحدى وأربعين ومائة سنة؟! أبداً!!

إذن إذا كان من الممكن الآن أن يعمر أحد إحدى وأربعون ومائة سنة بأي دليل يمكن القول بأنه لا يستطيع أحد أن يعيش خمساً وأربعين ومائة سنة، أو خمسين ومائة سنة، أو إحدى وخمسين ومائة سنة؟! وعلى هذا الأساس.. مادمتم لا تستطيعون

التوقف عند عدد معين وتقولون: إن العيش بعده يوماً واحداً من قبيل المحال.. بأي دليل أن يكون العيش لمائتي سنة أو ثلاثمائة أو أكثر من قبيل المحال؟!

ويقدمون دليلاً آخر وهو أعمار الشخصيات الدينية أو التاريخية كما وردت في النصوص الإسلامية كسليمان الذي عاش ثلاثمائة أو ستمائة سنة، ونوح الذي لبث في قومه بنص القرآن ألفاً إلا خمسين، فإما أنه عاش هذا العمر، أو اشتغل بدعوة قومه فحسب هذه الفترة، ويمكن أيضاً للمهدي الموعود من وجهة نظر العلوم الطبيعية أن يعيش أكثر من ألف عام.. ومن ثم فإن فضلاءنا الدينيين ذوي الاتصال بالقضايا العلمية والانتقادات العلمانية في عصرنا بشكل أو آخر، يستدلون على أن إمام الزمان الذي هو في معتقد الشيعة مستتر عن الأبصار لكنه بين الناس وفوق هذه الأرض قد بقي حياً منذ إثني عشر قرناً وأكثر حتى الآن، يعيش حياة عادية، وعمره عمر طبيعي.. ومتوافق مع علوم العصر، ولا حاجة لنا إلى تفسيره بمعجزة خارقة للعادة أو نكرها من الأساس.

الإمام: لكن المتدينين العاديين ـ كما قلت ـ لا يجدون حاجة إلى تفسير الإيمان بالعمر الطويل للإمام إعتماداً على أصول علم الحياة الحديث وقوانينه، إنهم مؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى كلف واحداً من البشر بمثل هذه الرسالة، ولإتمام هذه الرسالة أعطاه الاستعداد للبقاء حياً أكثر من العمر الطبيعي للبشر. ومن هنا فهذه إرادة الله، والله قادر على كل شيء، ولا لزوم لتفسيره تفسيراً فيزيولوجياً أو بيولوجيا، وعقيدة هذه الجماعة الأخيرة من الدينيين

في إمام الزمان، الذين لا يريدون تفسير معتقداتهم طبقاً للأصول العلمية الحديثة، شديدة الوضوح، وهي أن إمام الزمان من ذرية رسول الإسلام وهو بالتحديد ابن الإمام الحسن العسكري، الإمام الشيعي الحادي عشر، وهو أحد الأوصياء الحقيقيين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذين حددهم بالاسم من بعده في قائمة من اثني عشر شخصاً، وقد جاء إلى الدنيا، ثم غاب، غاب لا عن عالمنا المادي بل عن الأبصار، إنهم «لا يعرفونه» لكنهم «يرونه» وربما رآه كثيرون.. وربما يرونه الآن في الشارع أو السوق لكنهم لا يعرفونه.. هذه الغيبة غيبة عن العيون لا عن المادة، ولا عن الطبيعة، ولا عن الأرض، وهو على خلاف عيسى الذي رفع إلى السماء كما هو مشهور، وسوشيانت «المهدي الزردشتي» الذي هو كما يعتقد أتباعه موجود في عالم الغيب، ومحمد بن الحنفية المختفي في جبل رضوى[1] فالمهدي الموعود يعيش حياة عادية بين الناس..

---

(١) في دعاء «الندبة» إشارة إلى هذه النقطة إذ يسأل الداعي «لا أدري أي الأرض قد احتوتك؟! وأين مستقرك؟! أفي جبل رضوى أو في ذي طوى؟!.. وأنا لا أدري: لماذا في هذا الدعاء الذي يتلى اليوم في كثير من المحافل المذهبية (وازداد انتشاراً في السنوات الأخيرة.. وشكلت جماعات خاصة لتلاوته).. لماذا يبحثون عن حضرة المهدي في ذي طوى أو في رضوى وهو موقع محمد بن الحنفية مهدي فرقة الكيسانية، إذ يعتقدون إنه مختبىء في هذا الجبل ويظهر من هناك، وكان أتباعه يدعون في سفح هذا الجبل بتضرع ونواح أو يتجهون إليه من بعيد بالدعاء أن يخرج ويثور، وعلاوة على هذا فإن سيرة حضرة المهدي لا في الحياة ولا في الغيبية الصغرى ولا في الغيبية الكبرى ولا بعد الظهور.. تحتوي على أية علاقة بهذا الجبل، وغيبته في الأساس لم تتم على شكل أنه اختفى في مكان ما، بل هو موجود في أي مكان، وناظر=

والجميع يرونه لكنهم لا يعرفونه.

وقد كانت له غيبتان: الأولى الغيبة الصغرى، وكان فيها أربعة «أبواب أو «نواب خصوصيون» قد حددهم هو وعينهم؛ لكي يكونوا الواسطة بينه وبين أتباعه، والثانية بعد هذه الفترة الأولى وبعد وفاة النواب الأربعة الخصوصيين تسمى فترة الغيبة الصغرى «ومدتها عمر جيل»، وحلت الغيبة الكبرى.. ونحن الآن فيها.. وفي هذه الفترة لا وجود «للباب» أي الواسطة في الدخول أو التوصيل، أو «النائب الخاص» أي الممثل الشخصي الخاص الذي يحل محل الإمام ويتصل بالناس وينصب من قبله.. والطريقة الوحيدة لاتصال الناس به وهو الإمام الحي الحاضر هو «النائب العام» له.

من الذي يختار هذا النائب العام؟! خلافاً لأولئك الأشخاص الأربعة المختارين بعينهم من شخص الإمام، فإن هذا يختاره الناس بمساعدة أهل الخبرة!! كيف يختارونه؟!!

= إلينا ونحن الذين لا نبصره ولا نعرفه.. وبناء على هذا فإن هذا السؤال: في أي مكان يختفي؟! لا يتفق مع نوع غيبة حضرة المهدي الموعود عند الشيعة الإمامية، والدراسة الدقيقة لدعاء الندبة الذي لا يذكر أئمتنا تصريحاً وترتيباً، ومن بعده حضرة أمير المؤمنين الذي يتحدث بالتفصيل عن مناقبه وفضائله، يوجه الخطاب فجأة وعلى الفور إلى الإمام الغائب، وهذا يجعل نفس السؤال يطرح أكثر في أذهاننا.. على كل حال أنا أطرح هذه القضية كسؤال علمي فحسب لا كرأي حاسم، آملاً أن أسمع جواباً معقولاً ومنطقياً يرفع هذا الغموض الموجود في ذهني بدلاً من الإتهام والسب، وإن كان ثمة أحد له دراسة في هذا المجال ويوضح هذه المشكلة فأنا شاكراً له وممتن. (المؤلف).

هنا تطرح نقطة أساسية تماماً وحساسة، نقطة شديدة العمق ومدهشة، سواء من الوجهة التاريخية أو من وجهة النظر الاجتماعية والسياسية على وجه الخصوص أو من الناحية الفكرية والهدف، وفي نفس الوقت مثال شديد الوضوح يبين إلى أي حد قلب التشيع، وكيف أنهم ألبسوا أجساد أرواحنا وفكرنا وشعورنا وإحساسنا وعالمنا وحياتنا هذا الفرو مقلوباً على وجهه القبيح المخيف المنفر (وهذا الوجه الآخر هو هم أنفسهم).

في عصر الغيبة الكبرى، أي الفترة التاريخية غير المحدودة التي تبدأ من القرن الثالث الهجري وتدوم إلى ما شاء الله، يجد الشيعة فلسفة سياسية ومدرسة اجتماعية خاصة بقدر ما تبدو اليوم منحطة ومُذِلَّة ولا إنسانية ومهينة للإنسان ولإرادته وحريته وفكره، ومعارضة للمسؤوليات الاجتماعية ومؤيئسة ومفعمة بالاستسلام، وليست قابلة للدفاع إلا من أجل جماهير مطاطأة الرأس تعمل ولا تفكر وتقبل ولا تفهم، بقدر ما هي الآن هكذا، كانت تقدمية جالبة للعزة وجماهيرية وذات احترام بالنسبة للإنسان والإرادة الإنسانية والفكر الإنساني، وقائمة على تثبيت المسؤوليات الاجتماعية ومانحة للتفاؤل التاريخي والاستقلال العقلي والروحي.

وفي بداية فترة الغيبة الكبرى، ونهاية عمل النواب المعينين الذين كان الإمام يحكم الناس في السر عن طريقهم، وكان الناس يتصلون بشخص الإمام عن طريق الأبواب المعينين، ويكتسبون واجباتهم الاجتماعية عن طريقه، ويسألونه عن الحقيقة العقائدية لمذهبهم، تنقطع العلاقة بالإمام، ونيطت مسؤولية الإمام بالناس،

وتنتهي فترة التعيين وتبدأ فترة الانتخاب. . والأمر المشهور للإمام والذي صدر قبل دخوله فترة الغيبة الكبرى يعلن النظام الخاص الذي يحل محل نظام الإمامة على النحو التالي:

«أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنهم حجة عليكم وأنا حجة الله عليهم».

لكن من هؤلاء؟! وكيف يختارون؟! ولماذا؟! لقد أعلن الإمام الصادق عليه السلام لجماهير الناس ضوابط انتخابهم وشرائطه[1]:

«أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه» وهذا أمر طبيعي ومنطقي وضروري.

والتقليد ليس عملاً يتنافى مع العقل، بل هو في الأساس عمل عقلي، فإذا كان العاقل لا يعلم، عليه أن يقلد الذي يعلم، ومن ضروريات العقل أن ينفي نفسه في هذا الموقف ويضع عقل الواعي محل عقله، والمريض العاقل هو الذي «لا يتعلم» أمام الطبيب المتخصص؛ لأن التعالم هنا من قلة العقل، واقتضاء العقل هو التعبد والتقليد، والمهندسون والأطباء والقانونيون وقواد

---

(١) هذه الرواية هي أساس الفكر السياسي الشيعي الذي تطور إلى نظرية ولاية الفقيه عند آية الله الخميني رضوان الله عليه. ولتفصيلات انظر: الثورة الإيرانية ـ الجذور والإيديولوجية ـ فصل نظرية ولاية الفقيه عند آية الله الخميني. المترجم. وأيضاً: الفكر السياسي الإسلامي المعاصر تأليف حميد عنايت والترجمة العربية للمترجم. (الناشر مدبولي).

التشكيلات الثورية أو الحزبية قد وجدوا دائماً أن أكثر الناس تربية، وأكثرهم فهما من بين من يتصلون بهم، أو أعضاء جماعاتهم هم أكثر الناس إطاعة للأوامر وتنفيذها؛ لأن الشعور قد علمهم هذه الفضيلة العلمية والعقلية القائلة بأن إظهار العقل في ما لا يعلمون هو فضول.. ومن صفة العقل في فرع من فروع العلوم أن يقلد المتخصص فيه وهو قانون سائد في كل فروع الحياة، وكل مجتمع أكثر تقدماً وأكثر حضارة، يكون أهل التقليد والتخصص فيه أكثر ثباتاً وأكثر تميزاً.

ومن هنا نرى أنه في فترة الغيبة الكبرى هذه يظهر نظام انتخابي من نوع خاص، وتتم فيه انتخابات ديمقراطية للقائد، لكنها ليست انتخابات ديمقراطية حرّة، بالرغم من أن المنتخب (بفتح التاء) ينتخب من قبل الناس، لكنه مسؤول أمام الإمام وأمام الناس أيضاً، خلافاً للديمقراطية التي يكون فيها المنتخب من قبل الناس مسؤولاً أمام الناس فحسب، أو الناخبين الذين وكلوه عنهم.

ومن هنا فالناس هم الذين انتخبوا «نائبهم العام» بتحديدهم هم وآرائهم هم على أساس هذه الشروط وقبلوا قيادته، ويعتبرونه نائباً للإمام، ونائب الإمام هذا مسؤول أمام الإمام وأمام مدرسته، أيّ على خلاف الممثل الذي انتخب طبقاً للنظام الديمقراطي ليس مسؤولاً عن تنفيذ آمال الناس الذين انتخبوه وسد حاجياتهم، لكنه مسؤول عن هداية الناس على أساس القانون والمدرسة التي يعد الإمام قائدها وهاديها، وأن يغير الناس ويربيهم على أساس تلك المدرسة.

ولا جدال في أن هذا الاختيار اختيار مقيد، وليس بمعنى أن يأتي كل الناس ويدلون بأصواتهم، وكل من يظفر بأكثر عدد من الأصوات يعتبر نائباً للإمام ويجلس إلى مسند النيابة، بل لما كان هذا الإنسان شخصية اجتماعية وفي نفس الوقت شخصية علمية، فمن ثم لا تستطيع الجماهير التي لا تعرف العلم انتخابه وليست جديرة بذلك، ويحتم العقل بأن أولئك الذين لديهم العلم والوعي ويعلمون من هو أعلم الناس وأكثرهم تخصصاً وأكثرهم معرفة بهذه المدرسة، أي أن «العارفين بالعلماء» هم الذين يبادرون إلى هذا الاختيار، كما أن الناس المتصلين بعلمائهم ورجال دينهم وعلماء مذهبهم ويثقون فيهم ويقتدون بهم، يقبلون بالطبع وتلقائياً رأيهم في انتخاب نائب الإمام.

وهذا اختيار طبيعي، كما تقوم على نفس هذا العمل بالنسبة للمتخصصين الآخرين، فأنا على سبيل المثال أعاني مرضاً في القلب، وليست لدي شخصياً أدنى معرفة بالطب، فلا أقوم أنا باختيار أعظم متخصصي القلب، بل استعلم عادة من طلاب الطب أو الأطباء والصيادلة أو من لديهم معرفة بهذه الأمور عن أفضل متخصص في القلب، وبناء على يقيني بهم فإني أقبل رأيهم وأجعل منه رأياً، إنها نوع من الانتخابات الطبيعية ذات الدرجتين.

وهذا الإمام، في فترة الغيبة يترك مسؤولية هداية الخلق وهداية اتباعه على كواهل العلماء المستنيرين الأطهار والعارفين بمذهبهم، حتى يحل موعد ظهوره، وذلك عندما تصل النظم الحاكمة والنظم الاجتماعية في أرجاء حياة البشر إلى حضيض الفساد.

إنه يعلن عن نفسه إلى جوار الكعبة، ويبدأ ثورته من ذلك المكان، ثم تظهر قوتان مناوئتان لثورته في الأرض:

الأولى: الدجال: إنسان ممسوخ، وسواس في القلب والأفكار يحدث اختلالاً وانحرافاً، وهو أعور، ذو عين واحدة توجد وسط جبهته، وتطلق الشرر!!

الثانية: رجل يسمى السفياني يحتل فلسطين والأردن ويبدأ من هناك مقاومته في مواجهة هذه الثورة، لكن قوته تتبدد بين مكة والمدينة.

وبعد أن يظهر الإمام ويعلن ثورته في الكعبة يزحف على الكوفة في ثلاث عشرة وثلاثمائة هم أوائل المؤمنين، والسائرين على نهجه، ويجعلها مقر سلطته، وخلف أبواب الكوفة يقتل من «العلماء» الفاسدين بحيث تجري الدماء أنهاراً، ويبدأ النضال بالسيف والجهاد والذبح في مقر حكومة العدل على المستوى العالمي، وينتقم من كل طغاة التاريخ، ويثأر لشهداء كربلاء، ويبلغ بكل القادة والأئمة الحقيقيين، وبأئمة الشيعة الذين لم يستطيعوا أن يحققوا أهدافهم، وأهينوا وهزموا وتعرضوا للظلمة والزور إلى حكومته الحقة، ويقيم نظام العدل بدلاً من الزور، والتقوى بدلاً من الفساد، والأخوة بدلاً من الفرقة والخصومة في العالم بحيث يشرب الذئب والحمل من نبع واحد. أما الراية التي يرفعها فهي راية المسلمين في موقعة بدر، وسيفه هو سيف عليّ المسمّى «ذو الفقار»، والدرع الذي يضعه على جسده هو درع رسول الله ﷺ،

وعاصمة قوته الكوفة، وبداية ظهوره الكعبة، وبعد أن تستقر حكومة العدل العالمي، يُقتل.

هذه هي عموميات نمط الفكر الشيعي المعاصر بشأن إمام الزمان.

وأنا شخصياً أؤمن بهذا النمط من الفكر، وهذا العرض لهذا الشكل العقائدي أكثر من قبولي للعرض الموجود في إذهان المتعلمين المفكرين الدينيين والذين يجاهدون لإثبات مبدأ إمام الزمان مطبقين إياه على مبادىء الفيزيولوجيا والطبيعة والكيمياء!! كان أحد الطلاب قد سألني أخيراً: هل لأن العلوم الطبيعية لا تقول بعمر محدد للإنسان أو أن بعض الكتاب العلماء الذين أحترمهم شخصياً يريدون أن يثبتوا أخيراً أنه ما دام عمر الإنسان ليس محدوداً، إذن فمن الممكن القبول أن يعمر إنسان عدة آلاف من السنوات.. هل يمكن استخدام هذا الاستدلال بالنسبة لإمام الزمان؟! أجبته: لا شأن لي بما يصح أو لا يصح.. فبدلاً من أن تقوم بحل هذه المسائل وتصرف الأذهان والأفكار إلى هذه الموضوعات الذهنية والكلامية بشكلها القديم أو الجديد، فلتهتم بقضية أعظم وهي: «ما فائدة الإيمان بهذا المبدأ؟!، والمهم أن تدرك ما هو الدور الإيجابي أو السلبي الذي يمكن أن يكون للإيمان بهذا المبدأ أو عدم الإيمان به.. في رسالة الفرد أو الجماهير ومسؤوليتها ومصيرها؟ وما الذي يمكن أن يكون له من تأثير على الحياة المعاصرة؟!

وأنا أؤمن بمبدأ في الدراسات الإسلامية وأعتبر أن هذا المبدأ

يصدق على كل الأبحاث التي تجري حول المذهب وحول الإسلام وهو: أنه بدلاً من أن نقوم بإثبات مبدأ من المبادىء عن طرق علمية ومنطقية، أو نظريات طبيعية أو كيميائية أو كلامية أو فلسفية، أو نقوم بإثبات صحته أو بطلانه بهذه الأشكال أو نحلله بهذه الوسائل، فلنأت ونستخدم معياراً أكثر دقة من وجهة نظر أدراك الحقيقة وأكثر إفادة من ناحية الحياة الاجتماعية.

ونحن الذين ندين الإسلام، ومن مبادىء إيماننا الإيمان بآدم والجنة والنبوة والوحي، كلها بشكل مشترك، واختلافنا ناشىء من انطباعنا ونوع تفسيرنا لهذه المبادىء.. إنك تفسرها بشكل وأنا بشكل وثالث بشكل آخر، فهل تفسيري لهذه القضية الإسلامية صحيح؟! أو تفسيرك؟! أو كما يفهمها آخر؟! أو لا تفسير أحد منا قط؟! أحدهم يقدم استدلالاً طبيعياً وكيميائياً وفيزيولوجياً وبيولوجياً، وآخر يقدم استدلالاً كلامياً وثالث يقدم استدلالاً عقلياً وفلسفياً، ورابع يقدم استدلالاً عرفانياً وإشراقياً.. ويمكن أن نفهم ببساطة أيها الصحيح. فلو رأيتم على سبيل المثال أن استنباطي عن مبدأ الإمامة والإيمان به مع نمط التحليل الذي أقوم به والطريقة التي أفهمها، يكون لها في حياة الإنسان المؤمن بهذا المبدأ والمجتمع الذي يؤمن بهذا المعتقد تأثير إيجابي وبناء، يكون هذا الاستنباط إذن صحيحاً وصادقاً. وإذا كان الاستنباط الذي نخرج به من هذا المبدأ، وبنينا عليه خمسين نظرية علمية قائمة على أقوال العلماء والاجتماعيين والكيميائيين والفلاسفة القدماء والمحدثين ورأينا أنه لا يؤدي إلى تأثير بناء، ولا يؤدي إلى تغيير في الرؤية

والتفكير الاجتماعي والتنوير الفكري، ينبغي أن نشك في صحة نظريتنا!!

وإذا كان عدد من الناس في المجتمع قد قبلوا «الإمامة» على هذا الشكل الذي استدللت عليه وأثبته وآمنوا بها، علينا أن نرى أي تغيير حدث في مصيرهم، وأي أثر سوف يجري في مسؤولياتهم؟ وأي فرق بين مصير أولئك الذين آمنوا بهذا المبدأ وأولئك الذين لم يؤمنوا به؟! ثم إننا نرى أني أؤمن بالإمامة وأنت تؤمن بالإمامة، ولكنه هناك أمما أخرى لا تؤمن بهذا المبدأ، ولا تختلف أوضاع حياتهم كثيراً عن أوضاع حياتنا، بل وربما كانوا أفضل منا.. وعندما يكون تأثير هذه العقيدة بالشكل الذي نراه ينبغي أن نرى أين يكمن العيب!! أليس الإيمان بمبدأ الإمامة صحيحاً؟! ألا يهب النجاة؟! ألا يمنح العزة؟! ألا يهب المسؤولية؟! ألا يعطي الوعي؟! ألا يكسب القيم الإنسانية!! وهل يجلب الانحطاط؟!

لا يمكن أن نقول هذا؛ لأننا جميعاً نؤمن بهذا المبدأ، وهو أن الإسلام والتشيع واهبان للحياة والعزة.. أو أننا نفهم هذا المبدأ بشكل خاطىء، لا يصح أن يكون مبدأ الإمامة مبدأً صادقاً ـ كما هو في الواقع ـ ونحن واعون هذه الحقيقة تماماً، وفي نفس الوقت يكون مصيرنا هو الشقاء والذل.

وعليّ هو الشخصية التي تؤمن بها أمتنا، والإيمان، والتعلق به وعشقه، والإيمان بابنه الحسين مبدأ من المبادىء، نرى أننا مؤمنون بالحسين، لكن حياتنا أسوأ حتى من آخرة يزيد.. هل ينفع الإيمان بإمامة عليّ والإيمان بثورة الحسين في الليلة الأولى للقبر

والإجابة على ما يوجه من أسئلة هناك؟!! ثم عندما نضع رؤوسنا في القبور ونبدأ مرحلة ما بعد هذه الحياة، هل سيبدو هناك فرق بيننا وبين أولئك الذين لا يؤمنون بهذا المبدأ؟!.. إطلاقاً «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً» إذن ينبغي أن تنفع الإمامة والولاية هنا وتتم هنا حتى يكون لها نتيجة هناك.

هل نستطيع أن نشك مجرد شك في أن الإيمان بإمامة علي يجلب أساساً الانحطاط؟! أو أن التعلق بثورة الحسين ورسالته يجلب الركود والضعة والذل؟! لا.. حتى المفكر العلماني إن كان متحرراً لا يقدم مثل هذا الشك.. إذن فلو أنكم قمتم بتقديم ألف دليل ودليل في إثبات إيماننا وتفسيرنا الفعلي لتشيع علي وعشق الحسين، فمن المسلَّم به أن نوع التفسير الذي لديك عن هذا التعلق وعن هذه الثورة، وعن هذا النوع من التصور لملامح عليّ أو الحسين في ذهنك خاطىء، وينبغي أن تصححه.. ولا يمكن سوى هذا.. إذن نحن نرى أن ثمة معياراً واضحاً وسليماً يمكن للجميع أن يفهموه بسهولة، ولا يحتاج إدراكه إلى فلسفة وكلام وفيزياء وكيمياء، إنه في إيدينا جميعاً.. وهو: أننا إذا كنا شيعة، وإذا كنا مسلمين، وإذا كنا مؤمنين بمبادىء الإسلام والتشيع، لكن ليس لهذه المبادىء أي أثر في مصيرنا، وإذا أصبحنا منكرين لها فلن يتغير شيء في وضعنا ومسؤولياتنا وشكلنا الاجتماعي وحياتنا الفردية، يصير من المعلوم أنه ينبغي علينا أن نشك في نمط معرفتنا لهذه المبادىء؛ لأننا جميعاً نؤمن بهذا المبدأ المشترك القائل بأنه ليس من الممكن أن تكون هناك أمة مسلمة تؤمن بإمامة عليّ

وبطريقه لكن ليس لهذا الإيمان أي تأثير في حياتنا.

من البديهي أنه كما يقول عيسى ينبغي معرفة كل شجرة من ثمارها، وليست هذه هي ثمرات شجرة إيماننا، إذاً بدلاً من أن نقوم بحل المشكلات الذهنية والكلامية التي نخلقها نحن في الغالب.. لنطرح القضية من وجهة نظر أخرى.

وعلى هذا النسق: علينا من البداية أن نسأل أنفسنا، وأن نسأل إنساناً يطرح عقيدة إسلامية: ما فائدتها؟! لأي سبب قيلت؟.. أي تأثير لها على المجتمع وعلى المصير الفردي عندنا؟! وأي تأثير للإيمان بها أو عدم الإيمان بها في حياة ما قبل الموت علاوة على حياة ما بعد الموت؟!!

ولما كنا نؤمن بأن الإسلام هو دين الحياة. وأن أية قضية موجودة في القرآن، وأية عقيدة مطروحة في الإسلام (أو المذهب الشيعي) ينبغي أن يكون لها دور في حياتنا اليومية ومصيرنا الفردي والجماعي، وفي وعينا وفي عزتنا وشخصيتنا واستقلالنا بحيث يحرم منها من لا يؤمن بها.

وإذا كان الأمر هكذا يكون تفسير القضية صحيحاً، وإلا كانت خاطئة حتى ولو أثبتها بمائة دليل.. فمثلاً مصداقاً للآية ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]. و﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]. فإن رأينا أنه لا عزة للمؤمنين بل هم أذلاء،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

والكفار أعلى منهم ومتفوقون عليهم شعوراً وثقافة واقتصاداً وحضارة وقوة عسكرية. . ينبغي أن نؤمن أن إيماننا (مبدول) وأنهم أفهمونا الإسلام مقلوباً:

ومن هنا فيمكن أن نفهم الآن ببساطة أنه في مجال «إمام الزمان» من الأفضل بدلاً من أن نطرح هذه القضية ونثبتها بالأدلة الذهنية والشروح والتفسيرات الكلامية والفلسفية والعرفانية بل والفيزيائية والفيزيولوجية الحديثة. . ونحاول أن نثبت أين غاب الإمام وكيف غاب وأين هو الآن. . وأي نوع من الحياة يحياها، وماذا يأكل وكيف حاله وما هي الغيبة؟! وكيف يكون الغياب و. . . إلى آخره. علينا أن نطرح القضية بهذا الشكل: أية قيمة لإيمان أي إنسان أو جماعة أو أمة أساساً بإمام الزمان وبالانتظار وبثورة آخر الزمان. . وما قيمتها من وجهة نظر الحياة الاجتماعية المعاصرة؟! ثم نستنبط المفاهيم والأهداف الموجودة في هذا المبدأ العقائدي. . وأن نفهم مسؤولياتنا تجاه هذه العقيدة وفي عصر الغيبة. . ونفهمها ونعمل بها.

ليس هذا اقتراحاً، وليس نظرية خاصة بي، هذه هي رؤية الإسلام الأول وروحه، فهناك إماما زمان ثم إمامتان، وصنفان من مذهب الشيعة. . وإسلامان: الأول: الإسلام كإيديولوجية «أي المدرسة العقائدية». . إيمان هدفي وهادي. . أي الدين، وفي تمثل القضايا العقائدية والشعائر العملية والعبادية عاملاً للنضج الروحي عند الإنسان والعزة والنضج الأخلاقي والفكري والاجتماعي، وسلاحاً من أجل رقي حياة النوع الإنساني. . وفيه أيضاً جانب عملي

كما أنه مفيد لمرحلة ما بعد الموت. . أما الثاني فهو عبارة عن مجموعة من العلوم والمعارف والمعلومات الكثيرة من قبيل الفلسفة والكلام والعرفان والأصول والفقه والسير. . الإسلام كثقافة[١].

والإسلام كإيديولوجية يبنيه أبو ذر، أما الإسلام كحضارة فيصنعه أبو علي بن سينا، والإسلام كإيديولوجية يصنعه المجاهد، والإسلام كثقافة يصنعه المجتهد، الإسلام كإيديولوجية يعني العقيدة ويصنعه المفكر، وثقافة يصنعه العالم، والعقيدة الإسلامية هي التي تمنح المسؤولية والوعي والهداية، أما العلوم الإسلامية ففرع خاص من العلوم يستطيع حتى المستشرق أن يحصلها، ويمكن لمعوج التفكير أو لسيىء الفكر المغرض أن يتعلمها وأن يحصلها، ومن هنا فمن الممكن لإنسان لم يتعلم أن يفهم الإسلام بشكل أصح وأن يفكر ويعيش بشكل أكثر إسلامية، وأن يميز المسؤولية الإسلامية أكثر من فقيه أو عالم بالأصول أو فيلسوف أو عارف صوفي، فالإنسان الذي يقرأ مثلاً «الرسائل والمكاسب»[٢] يقف على أحكام الإسلام، ولكنه إذا قرأ سيرة الرسول فقد يفهم معنى الإسلام.

على كل حال فإني أرى أن الإنسان الذي درس على سبيل

---

(١) نمط حياة وفكر وثقافة. . والإسلام كنمط حياة ومنطلق فكر وميزان مصير لا يزال مغيباً ومعظم ما هو موجود عند إسلامي المرحلة هو من نمط إسلام الثقافة. . وكل من ينقل خبراً أو رواية إسلامية يسمي نفسه مفكراً إسلامياً. (المترجم).

(٢) لمرتضى الأنصاري الفقيه الشيعي المعاصر صاحب الفضل في تشكيل الحوزة والتقليد. انظر: الثورة الإيرانية الجذور والإيديولوجية للمترجم.

المثال «أسفار» ملا صدرا، أو شفاء أبي علي بن سينا يعد فيلسوفاً إسلامياً، لكن الذي يعرف كتاب «نهج البلاغة» للإمام علي يعد عارفاً بالإسلام، ويمكن معرفة الإسلام كعقيدة في القرآن وسيرة الرسول، ومعرفة الصحابة وربائب مدرسة الإسلام النموذجيين.. أي من المنابع التي تركت اليوم عند علماء المسلمين وفي برامج التعليم الرسمي.. وهي مجهولة بين الناس.. فأشعار الشعراء الجاهليين تدرس في مدارس الإسلام كنصوص أدبية.. لكن «نهج البلاغة»؟! أبداً!! تحت أي عنوان، وفلسفة اليونان ومنطق أرسطو في البرامج التعليمية أما تفسير القرآن فلا.. وسيرة رسول الإسلام وأفكاره وأسلوب حياته ونضال الأئمة.. ممنوعة من العرض!! وإذا حدث استثناءً أن قام عدد من الأشخاص بناء على رغبة فردية بدراستها.. فلا تعد من العلوم الأصلية.. بل مجرد زيادة. ومن هنا.. ومن هنا وبكل أسف يعد نمط تفكيرنا ورؤيتنا للقضايا الإسلامية غريباً عن روح الإسلام وأسلوبه وتأثيره، فالقرآن وأسلوب تفكير الرسول ونمط حياته.. وربائبه يجاهدون أشق الجهاد لصرف أفكار المسلمين عن القضايا الذهنية، وطرح الألغاز غير الواقعية، والتفكير في المسائل الغيبية، والجدل فيما لا ثمر من دراسته أو غير الممكن، وتوجيهها إلى المجالات العينية والعملية والإيجابية.

والآن عليّ أن أبحث عقيدتي في إمام الزمان من هذه الوجهة، ويجب أن نطرح الموضوع مذكّراً بنقطة من النقاط وهي أنني لست جامعاً للعلوم العقلية والنقلية، وأعرف شيئاً فحسب عن فرع خاص من فروع المعرفة، وأطرح كل القضايا من هذه الوجهة

الاجتماعية وعلم الاجتماع، أما النواحي الأخرى للقضية فعلى المتخصصين في فروعها ومن عملوا في هذه الفروع ولديهم المعرفة بها أن يطرحوها. . ومن هنا ينبغي أن أذكر أيضاً بأن ما أقوله ليس هو كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال، لكنه ما يمكن أن أتحدث فيه. . وهذا التذكير ينصرف على كل القضايا التي أطرحها في الإسلام وهو أمر بديهي، لكن كثيراً من المؤمنين الذين لا علم لديهم بالقضايا العلمية والبحثية لا ينتهون إلى هذه النقطة، خاصة أن مبدأ التخصص في القضايا الدينية لا يزال غير واضح عند الكثيرين بعد، بالرغم من أن التخصص كان موجوداً في الثقافة الإسلامية القديمة. . فقد كان الفقيه والمحدث والمتكلم والفيلسوف والمؤرخ وعالم الأخلاقيات والآداب والتصوف والمعارف الإلهية، بل وفروع أخرى خارج مجال العلوم الإسلامية اليوم كالطب كلٌ منفصلاً بذاته، لكن الجميع اليوم فقهاء (باستثناء بعض الأفراد). . وتبين بكل أسف أنه بالرغم من أن عالمنا الديني غالباً ما هو متخصص في فرع تخصص هو الفقه، إلا أن الناس اعتادوا أن يسمعوا من لسانه في القضايا الإسلامية المتنوعة، في أي موضوع وفي أي فرع وفي أي بُعد، لكن لما كان الإسلام ـ خلافاً للأديان الأخرى مثل المسيحية ـ يتدخل في كل مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، المعنوية والمادية وينظر إليها، ومن ناحية أخرى فالفقه بمعناه الاصطلاحي اليوم فرع من فروع العلوم الإسلامية، فبالطبع هناك كثير من القضايا الإسلامية أو أبعاد عديدة من قضية إسلامية ما لا تطرح في الأساس وتبقى مجهولة، وإن

طرحت تطرح في حدود الفقه أو بشكل سطحي ومجمل. ومن هنا فهناك اليوم جزء كبير من حقائق القرآن المتعلقة بعلم الإنسان وفلسفة التاريخ، وتهم الاجتماع والعلوم الطبيعية، والقسم الأعظم من العناصر التي تشكل مدرسة الإسلام، أي الناحية الاقتصادية والنفسية والأخلاقية والفلسفية والسياسية.. في سبيلها إلى التواري في الظلام أو تعلن كأمور سيئة وملتوية ولا أثر لها في الأذهان.

على سبيل المثال هناك عقائد كالتوحيد والمعاد والعدالة والإمامة والشفاعة والاجتهاد والعبادة والسنة والوصاية والتقوى، أو أحكام كالحج والزكاة والجهاد والتقية والتقليد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. قضايا تحتوي ـ إلى جوار جانبها الفقهي أو الجوهري ـ جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وأخلاقية وفكرية وعملية ومتعلقة بعلم الإنسان عميقة جداً وقوية، لكن لأنها قضايا دينية، يتوقع الناس من رجل الدين أو الفقيه أن يعلمهم إياها من كل نواحيها، في حين أنه ينبغي التخصص في هذه القضايا بمعناه العلمي المعاصر الواسع، بمعنى أن مبحث الطهارة على سبيل المثال بطرحه القضية فحسب من ناحية الحكم الفقهي، ويحلله المتخصص في الصحة وعلم الميكروبات والطبيب والكيميائي من الناحية العلمية ويعرف به. والزكاة يبحثها الفقيه من ناحية ما والاقتصادي من زاوية أخرى وعالم الاجتماع من زاوية ثالثة. والإمامة أيضاً لها بنفس القدر بعد إخباري وكلامي، «وهو من هذه الناحية ليس جانباً فقهياً أيضاً»، كما أنها بشكل مباشر مدرسة اجتماعية وفكرية وسياسية، وينبغي أن تحلل منطقياً وعلمياً من هذه

الجوانب على أيدي علماء الاجتماع والعلوم السياسية والمدارس الإيديولوجية والاجتماعية المتنوعة والنظم الحكومية والأنظمة الطبقية والاجتماعية وفلسفة القيادة، حتى تبحث هذه القضايا من كل الزوايا والأبعاد من ناحية، ومن ناحية أخرى تصبح قابلة للطرح وجديرة بالقبول من الناحية العقلية والفكرية في أوساط المفكرين والمتعلمين في كل عصر وحضارة. ومن هذا الطريق تتحرك العقائد الدينية في محاذاة التطور والتكامل في المجتمع والثقافة والعلوم، وكلما تقدم المجتمع والعلم، بتقدم أيضاً فهم المفاهيم الدينية وإدراكها وتفسيرها؛ لأن الناحية النقلية والحكمية لهذه العقائد ثابتة دائماً، وبناءً على هذا يمكن أن تتطور وتتكامل في جوانبها الأخرى.

وقضية «انتظار المهدي الموعود» واحدة من هذه القضايا، فالروايات والأحكام الموجودة في التشيع والمرتبطة بهذا الموضوع ثابتة ومحددة، لكن فهمها من قبل أناس كل عصر، وتحليلها الإجتماعي، واستنباط المسؤوليات اللازمة لهذا الاعتقاد والتقييم في الحياة الاجتماعية والسياسية والفردية والفكرية للمؤمن بها. . تتغير وتتنوع بسبب الزمان والمكان وتقدم العلوم الإنسانية وتقدم الظروف التاريخية والسياسية. . وهذه قضايا ينبغي أن يتناولها علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ومعرفة الإنسان.

ومن هنا أتناول قضية الانتظار من هذا المنطلق، لا من الناحية النقلية أو الكلامية أو المذهبية، بل من الناحية الاجتماعية والتاريخية والطبقية، ليس الأمر إثباتاً واستدلالاً وبحثاً عقائدياً في

العقيدة نفسها، بل بحث في ما لها أو ما يمكن أن يكون لها من قيم إنسانية وآثار اجتماعية ودور في التاريخ والمجتمع والحياة والمسؤولية الفردية ونمط التفكير. ومبدأ الانتظار بشكل عام ـ لا الانتظار الخاص بالتشيع ـ على نوعين: انتظار سلبي وانتظار إيجابي، وهذان النوعان يناقض كل منهما الآخر، فأحدهما أكبر عوامل الإنحطاط، والآخر أكبر عوامل الحركة والارتقاء، أحدهما استسلام للذل وتبرير «للوضع الراهن» والآخر يدفع إلى الأمام.. ومستقبلي.. والمشكلة في هذه القضية تكمن في أن كلا النوعين: انتظار.

والانتظار يعني أن جماعة ما تنتظر مخلصاً يأتي لتخليصها، ومن ثم فهذه الفكرة ذات أربعة ركائز أساسية:

١ ـ الأسر أو العبودية.

٢ ـ الغيبية.

٣ ـ الانتظار.

٤ ـ النجاة أو الخلاص.

ونفس هذه الأُسس الأربعة ـ وبنفس معانيها ـ يمكن أن تكون سلبية كما هو حادث اليوم، ومن الممكن أن تكون إيجابية كما كانت، وكما يجب أن تكون.

فمن الانتظار والإيمان بأن مخلصاً ـ هو غائب الآن ـ سوف يأتي وسوف يقيم العدالة ويخلص البشرية، وسوف تنتصر الحقيقة

والعدل والمساواة، هو بصورته السلبية مُتَّكَأً لأعداء العدالة وعمال الفساد والسقوط، وأولئك الذين لا يعرفون مسؤولية في حياتهم ولا حد لشرهم أو فسادهم، بمعنى أنهم يقنعون الناس ويجعلونهم يعتقدون بأن نجاة البشر وقيام العدالة أمور منوطة فقط وفقط بظهور مخلص خاص عيني، وليس بشخص آخر أو بأشخاص آخرين، فإذا قمت من أجل العدالة، أو نهض آخر من أجل حرية أمة وخلاصها أو مجتمع ما.. أو البشرية.. وخرجت أنت أيضاً خلفه، فهذا عبث: فإما أنك تكذب حين تقول بأنك مطالب بالعدالة والحرية وأنك مخلص، وإما أنك تجرعت خديعة آخر، أو أن كليكما أسير لوهم ما، والفاعل الأصلي للفساد والظلم يستفيد من مبدأ الغيبة، ومن أن القائد الحقيقي والطاهر المعصوم الذي ينبغي أن يقيم العدالة ويرسي مبادىء حكومة الحرية والعدالة، ويبيد الفساد والظلم، غائب. وهكذا يصل إلى نتيجة ما ويحدث نفسه قائلاً: إذا قمت أنا بعدم نشر العدالة، وإذا كانت حكومة ما تزاول الظلم والفساد، فهذا أثر حتمي وطبيعي، وليس بغير العادي، ولأنه طبيعي ينبغي أن يتصل فهو جدير بالقبول، وإذا كان حتمياً ولا مهرب منه، فلا يمكن الوقوف أمامه بالمقاومة والمخالفة، وكل سعي وفدائية في سبيل العدالة وإصلاح أمور العامة عبث وغثاء.

ومن هنا، فإن الإيمان بالغيبة، والإيمان بالانتظار، والإيمان بمخلص غائب، هو أقوى سلاح من أجل الدفاع عن الوضع الراهن، وأكبر عامل لتبرير الفساد الذي ينبغي أن يرتفع منحناه التصاعدي يوماً

بعد يوم، وأكبر عامل يجر الناس أيضاً إلى الاستسلام للظلم والشعور والتواؤم مع الفساد. . يؤمنون بأن الحياة الاجتماعية تمضي نحو الدنو والانحطاط، وأن هذا هو ناموس الخليقة والأمر الطبيعي ومشيئة الله تعالى حتى يأتي الخلاص في آخر الزمان وليس الآن، وأيضاً على «يده» لا على «يدي» أو على «يدك».

ولا جدال في أنك تستطيع أن تخالف عامل الفساد والزور في قلبك وتلعنه وتشتمه، وتلجأ إلى التقوى والانزواء والعزلة، لكنك لا تستطيع أن تعارضه عملياً؛ لأن هذا عبث، وقوف ضد الحتمية التاريخية. . وقفة ضد المشيئة الإلهية!!

هذا هو إذن أفضل ضمان لسلطة، وعامل اطمئنان خاطر وراحة بال مستمر لجماعة يصفها حضرة أمير المؤمنين بقوله: «ومنهم المصلت بسيفه، والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه، وأوبق دينه، لحطام ينهزه أو معتب يقوده أو جيش يفزعه»[١]. دائماً تلك السحن الثلاثة التي تحدثت عنها في وراثة آدم[٢] وهي موجودة في القرآن: فرعون وقارون وبلعم بن باعوراء[٣]: القوة والذهب والتزوير. ومن أجل هؤلاء تكمن أعظم

---

(١) نهج البلاغة ـ المجلد الأول (من تحقيق حسن تميم) ص٣٩٦ (المترجم).

(٢) انظر الفصل السابق من الكتاب. . فلسفة تاريخ مبدأ الوراثة وفلسفة الإجتماع الخاصة به. (المترجم).

(٣) بلعم بن باعوراء هو فقيه بني إسرائيل الذي ورد في القرآن الكريم في الآية ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٧٥) وهو عند شريعتي رمز لفقهاء السلطة ووعاظ السلاطين الذين يخدعون الجماهير باسم الدين. . ويستخدمون مقولة «الدين ضد الدين» المترجم.

فرصة في الغيبة؛ ذلك أن مخلص الناس ورسول العدل وحكومة الحق غائبة، ليست نوبتها، ومن هنا ففي هذه الفترة، لا مسؤولية صلاح لديهم ولا مسؤولية إصلاح فالفساد والتفرقة حتميان. . كما أن الغيبة بالنسبة لجماعة أخرى فرصة عظيمة جداً. . استغلت. . أقصد استغلت استغلالاً إلى أبعد حد، فهنا جماعة ليس لديها أي نوع من الصلاحية لنيابة الإمام، يغتصبون بالقوة وبالحيلة والدسيسة مكان النواب الحقيقيين للإمام الغائب، ورغم افتقارهم للشروط التي ذكرها الغائب والتي ينبغي أن تتوفر في نائب الإمام الغائب، ويمسكون في أيديهم بزمام أفكار الناس وإيمانهم وشكل عقائدهم ومصائر حياتهم الاجتماعية ومسؤولياتهم، ويسوقون الناس باسم الدين وباسم نيابتهم للإمام الحقيقية إلى أي مكان يريدونه هم وحلفاؤهم (أي الجماعتين الأخرتين: القوة والذهب)، ويختصون أنفسهم بالحقوق التي كان الإمام قد أعطاها للناس على أساس دين الله ورسوله وشريعة الإسلام والتشيع باسمه وباسم نيابته، أي أنه لما كان الإمام هو قائد دين الناس وحاكمهم الدنيوي فهو أحق بمال الحق منهم وأولى بأرواحهم منهم، فكرهم تحت سيطرته وحياتهم أيضاً وهم أيضاً ممثلوه، يجعلون الناس من الناحية الروحية والفكرية عبيداً لهم. وأيضاً بالنيابة عنه يستغلونهم من الناحية المالية، ويجعلون الناس مكلفين بدفع أموال لهم هي في الحكومة الإسلامية والنظام الشيعي كان ينبغي أن تدفع للرسول ومن بعده لخليفته أي الإمام.

ولما كان هؤلاء لا يعتبرون من نواب الإمام الخصوصيين

الذين عينهم شخصياً، فمن ناحية لا وجود لاختيار رسمي، ومن ناحية أخرى فكل من له الحق في انتخابهم من الناس فاقدٌ لهذا الحق بالفعل وغير واع وغير مخير. وهم أنفسهم الذين منعوا عنهم العقل والتفكير في المسائل الدينية، وبدلاً من المعرفة المذهبية والوعي الذاتي والتنوير قوُّوا في الناس التقليد الفكري والتلقين العاطفي والتسليم الأعمى، وربُّوا مريديهم المؤمنين بهم لا كمسلمي عصر الرسول ـ الذين كانوا يتمتعون باستقلال الرأي في حضوره ويدلون بآرائهم في بعض المجالات ويستشارون ـ بل كخراف معقودة اللسان ومقلدين دون تساؤل أو استفهام. وجعلوا الإنسان، الذي يخاطبه ربه بلهجة الأصدقاء وعند صدور حكم عليه يبرره ويقدم دلائله، أو يبين أسبابه وعلله ونتائجه، جعلوه مباشرة وبصراحة «عوام كالأنعام». وخلافاً للرسول ولعليّ اللذين كانا يخطبان في البدو العرب الجهال ويصعدان على المنبر، يعتبرون الصعود على المنبر بالنسبة لأهل هذا العصر عاراً، والدعوة إلى الدين حطاً من الشأن. ويعتبرون القيام بتفسير القرآن وترجمة نهج البلاغة، وتأليف الكتب في نقل أحاديث الرسول وبيان سيرته وحياة الأئمة، والحديث عن ثورة الحسين وما قامت به زينب أموراً تليق بأنصاف العلماء أي علماء الدرجة الثانية والثالثة، وأموراً لا قيمة لها من أعمال قراء الروضة وممثلي التعزية و«أهل المنبر» لا «أهل العلم»، وكل ما يقومون به من أجل الناس هو إمامة الصلاة، والعمل العلمي الوحيد لهم في إنجاز رسالتهم الخطيرة هي وضع «الرسالة العلمية» الخاصة بهم، والعلاقة الوحيدة التي تربط بينهم

وبين مجتمعهم يدٌ ممتدة للأخذ ويد لتلقي القبل. وجهادهم الوحيد واجتهادهم في إرشاد الناس ومسؤولية خلافة الرسول والإمام ومكافحة الانحرافات الفكرية والاجتماعية والبدع الممتزجة بالكفر، والقضاء على عوامل الشقاء، والحيلولة دون ما يمنع السعادة، وجواب كل المشكلات العلمية والعقلية، والالتزام الخطير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو التفضل بالنطق المكرر الرتيب الوتيري النمطي لكلمتين «يجوز» و«لا يجوز»!!.

أما الناس الذين لديهم هذا النوع من الاتصال بهيئة علومهم الدينية و«أهل علمهم» لا ينالون سوى هذا النصيب الفكري والعقلي، وتركوا معرفة حقائق دينهم وشخصياتهم الدينية إلى ما يسمى باصطلاحهم «أهل المنبر». وفي المجتمع الديني: عالم الدين يغوص في المحراب، أما غير العالم فيصعد على المنبر، في نظام يرى فيه الفقيه المجتهد الجامع للعلوم العقلية والنقلية للمذهب أن من لوازم العلم السكوت، وحبس قدسية الجهاد في هالة هيبة رجال الدين وحرم الارستقراطية العلمية، ويترك نشر حقائق الإسلام وتقديم عقائد التشيع وتنمية أفكار الناس «للفنانين»!!!!

نعم، في مثل هذا المجتمع، كيف يملك المتدينون النضج الفكري والشعور الاجتماعي والمعرفة الإسلامية التي تمكنهم من اختيار أكثر شخصياتهم العلمية جدارة، شخصية تعرف الإسلام جيداً إلى جوار معرفة العصر، يكون مستنير الفكر ذكياً وفي نفس الوقت طاهراً صامداً مستقيماً، يكون كفواً أو شجاعاً وفي نفس الوقت بسيطاً متواضعاً، يكون تقياً وفي نفس الوقت ذا إحساس،

يكون فدائياً وفي نفس الوقت عميقاً، يكون من أهل الإيمان والإحساس وفي نفس الوقت رجل عقل وعلم، ويحدده ويميزه مباشرة ومن بين التراب والغبار الذي أثاره «المارقون» و«الناكثون» و«القاسطون» في جو المجتمع. وبالرغم سلطة القوة والذهب ودس السموم، وصناعة الشائعات وبث الفرقة، وأنواع التحريض والدسائس والمؤامرات والدعايات التي لا ترحم «للأمويين» الأعداء ذوي الجذور الذين لا يتصالحون، ويتميزون بالكفاءة والذكاء والغرض، والمنافسات الشخصية والتنفيث عن العقد الخاصة، وحب الذات وعدم الإنصاف وهضم الحقوق والنفاق، وطلب الشهرة وعبادة المذهب، وطلب الثأر من رفاق الأمس والمبايعين الذي نقضوا البيعة وكانوا فيما سبق من المؤمنين، ولهم ماضٍ طاهر يبعث على الفخار، ومن الشخصيات المحبوبة والمشهورة في الدين، ولمدة سنوات كانوا شركاء في الفكر ورفاقاً في الحقيقة وأناساً داعين مستنيرين، ولبواعث شخصية وأحقاد خاصة، يطعنون الظهور بالخنجر، ويخونون الحقيقة التي يؤمنون بها هم أنفسهم، ويبيعون الصديق للعدو بالمجان، وبلا أجر ولا منة ليعكر الجدول لكي يتعلل الذئب المترصد للحمل البريء الذي لا صاحب له، بالرغم من أنهم أنفسهم ـ في دورهم ـ يسقطون فريسة له!!

وأيضاً (يميزه) من بين الوجوه المتدينة للخوارج التي تبدو فيها التقوى والرياضة الصوفية، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وحفّاظ القرآن وقوّام الليل والذائبين من عشق الله،

والمرتعدين من هول عذاب القيامة والأقوياء تعصباً للدين، والذين يحملون أرواحهم على أكفهم في سبيل الله، والمصممين على إبادة الكفرة، وشعارهم «لا حكم إلا لله» وحياتهم وقف على المسلمين، وهم العابدون الزاهدون المتعصبون العوام فاقدو الشعور معوَّجو الفهم المتنطحون المجادلون الخطرون المفتونون بالدين وهم ألاعيب الكفر، والأدوات المقدسة للجريمة والمخدوعون خادعو المؤمنين.. قتلة الحقيقة!!

نعم، في مثل هذه العاصفة، ومن بين هذه الألوان والطلسمات هؤلاء العوام الذين ربوا كالأنعام.. هل لديهم القدرة على تمييز السحنة «الشبيهة بعليّ» في زمانهم، وعلى أن يجدونه في خلوة صمته ووحدته وإدانته، ويخرجونه من تحت ضربات الصديق والعدو، ويجلسونه على إيمانه وحياته، ويودعونه مصير معاشهم ومعادهم وعقولهم وأحاسيسهم وأنفسهم وأهليهم وحاضرهم وغدهم؟! في مثل هذا المجتمع وفي مثل هذا الجو فإن عوامل استغلال الناس والاستبداد بهم واستحمارهم غالباً ما تجعل أجنحة المارقين والناكثين والقاسطين تزاول الحكم على الأفكار المشلولة وأنواع الإيمان المتجمد الحاقد الذي لم تسطع عليه شمس، وفي أمثال «السقيفة» الخفية والعلنية يعدون إجماع القبائل وأفواج الصحابة الكبار وأنصارهم حول «الشيخ» و«الشيخين» أو «الشيوخ» التابعين لهم، وبعدها يأخذون البيعة في المساجد من «العوام كالأنعام».. أما الملامح البسيطة المخلصة من نوع «عليّ» إن كانت موجودة.. فإن الذي حدث يحدث مرة ثانية هنا أيضاً أي تغوص

في المحاق.. وببساطة تنحى جانباً.. أو على الأقل: يكون صاحبها «واحداً» إلى جوار الآخرين!!

هذا هو الوضع في فترة الغيبة والتقليد والتقية، فأجهزة القوة والاحتيال والتزوير.. تتحين الفرص اعتماداً على مبدأ الانتظار والغيبة؛ لأنه في فترة التقية كما يقول علي سينحى الأطهار الواعون المخلصون جانباً عن المعركة الحية وتيار الحياة والحركة، وهم مغمورين أذلاء «وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأوراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناء، وخائف مقموع، وساكت مكعوم، وداع مخلص، وثكلان موجع، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا»[١]. وعلى هذه الصورة نرى أن زمام المذهب، وتفسير المذهب، وإفهام المذهب والتوعية بالمذهب والرسالة التي يضعها المذهب على كواهل الناس وينبغي أن تتم بواسطة الإمام، تصبح عن طريق جماعة تنوب عنه لصالحهم ولصالح الجماعات المرتبطة بهم.

كان هناك أحد العلماء السابقين في أصفهان يعرفه الجميع، وكان رجلاً بسيطاً جداً وتقياً كما كان شديد الحذر، وخوفاً من أن يصل سهم الإمام إلى من لا يستحقونه.. فقد كان يخفي الأموال

---

(١) نهج البلاغة ص٣٩٦ ـ ص٣٩٧ من المجلد الأول من تحقيق حسن تميم: (المترجم).

التي يجمعها كسهم للإمام في موضع لا يعرفه أحد بحجة أنه لا يعرف أين ينفقها وعلى أي الوجوه، ولكي يرضي الإمام رضاً حقيقياً، كان يخفيها إلى أن يظهر الإمام، ويقوم بنفسه بما يسر له من علم الإمامة بالتنقيب عن موضع الأموال وإنفاقها في وجوهها الحقيقية!! في نفس الفترة التي كان أحد الطلاب يشكو الجوع.. وبطنه من شدته تقرقر.. بل إن الدعاة الحقيقيين كانوا في ضيق وعسر.. وفي الزمن الذي كان فيه المذهب في أمس الحاجة إلى العون المالي.. وكان ينبغي على المسؤولين عن الذهب حقيقة أن ينفقوا هذه الأموال في التعريف بالمذهب والتوعية العامة.. كانوا يتلفونها بهذه الصورة.

ولا جدال في أنه لم تكن هذه أسوأ صورة تضيع بها هذه الأموال، بل هناك ما هو أسوأ منها.. من الأولى ألا تقال.. وهذا عندما لا يملك أفراد المجتمع القدرة على الاختيار والتمييز ولا يستطيعون اختيار «شبيه الإمام» لنيابة الإمام.. أما الشركاء المتعاونون المتضامنون، عن وعي أو غير وعي، وبشكل مباشر أو غير مباشر، وبين «جهل الذات ومرض الصديق وغرض العدو».. فقد استطاعوا أن يضعوا الوجوه المضيئة للطهر والذكاء والعشق والأخلاق والثبات والشجاعة والعالم في زوايا النسيان، أو يبدونهم موصومين، ثم وبدلاً منهم يسلطون على مصير روح هذا المجتمع وإيمانه وحياته أشخاصاً إما أنهم غير أطهار أذكياء أو أطهار بلا مخ، وكلاهما سواء، وليس الثاني أسوأ.

وتقول جماعة أخرى: الآن وقد وكلنا حكومة الحق

واستقرار العدل إلى ظهور المخلص الغيبي، فالطريق مفتوح في الوقت الحاضر من أجل أية حكومة ظالمة، والميدان متسع كي نزاول في حكمنا أي نظام وأية وجهة تكون. وإن كانت حكومتنا صالحة فعليهم أن يقبلونا لصلاحنا، وإن كانت فاسدة وتنغمس في الفساد فعليهم أيضاً أن يقبلونا؛ لأننا نساعد في الإسراع بظهور المخلص الغيبي.

ومن هنا نرى أن الغيبية ـ بهذا التبرير للانتظار السلبي ـ أفضل وسيلة من أجل أولئك الذين يزاولون الجريمة والظلم والفساد والبغي، ويستغلون المذهب كوسيلة لمطامعهم الطائفية والسياسية والمعنوية لكي يأخذوا الأمر من أتباع الإمام باسم نيابة الإمام، ويركبوا على كواهل أفكارهم واقتصادهم وسعيهم ونشاطهم.

الانتظار الإيجابي:

ولهذه المبادىء أو العقائد ـ أي الإيمان بالانتظار والاعتقاد في فترة غيبية، والإيمان بحتمية الخلاص في آخر الزمان ـ وجه مضاد لهذا الوجه الذي ذكرنا، يعد أعظم عامل للقضاء على تلك العوامل ويقدم للناس المجهزين بهذه الإيديولوجية أقوى سلاح للقضاء على الفساد وأعظم ضربة لقمع الظلم، وأقوى طاقة للحركة نحو المستقبل.

ومن هذا الوجه الثاني الذي ألمحت إليه لدي بعض الملاحظات كل منها لا يزيد على عبارتين أو ثلاث عبارات وينبغي الانتباه إليها بدقة:

١ ـ الانتظار مبدأ فكري اجتماعي، كما أنه مبدأ فطري إنساني، بمعنى أن الإنسان مخلوق منتظر، وكلما كان أكثر إنسانية كان أكثر انتظاراً، ولدى المجتمع الإنساني بالمعنى الأعم غريزة «الانتظار» سواء كان هذا المجتمع طبقياً أوقومياً أو طائفياً[١] وعلى أساس هذه العقيدة كان الإيمان بالمسيح المخلص[٢] في المجتمعات البشرية من البداية. . ومن هنا أيضاً يقول التاريخ: إن كل المجتمعات البشرية الكبرى مجتمعات منتظرة» وكل الثقافات التي نعرفها ذات سمتين مشتركتين:

الأولى: أن كل حضارة وثقافة «حتى في المجتمعات المتخلفة والبدائية» ـ وبناء على ما ورد في قصصها وأساطيرها ـ كان لها في أكثر فترات ماضيها بُعداً وقُدماً «عصرٌ ذهبي»، حيث

---

(١) المجتمع البشري بمعناه الأعم هو طائفة اجتماعية «مجموعة اجتماعية» وهو أيضاً طبقة اجتماعية. والطائفة الاجتماعية من الممكن أن تكون طائفة أو طبقة اجتماعية أو مجتمعاً ما، والمجتمع أساساً كائن حي ذو شخصية مستقلة من الأفراد الذين يشكلونه مثل حامض الكبريتيك المركب من الكبريت والأكسجين والهيدروجين أي أن هناك العناصر الثلاثة صنعت مادة رابعة تختلف صفاتها عن صفات كل عنصر من العناصر التي تشكلها، وبرغم أن المجتمع ليس سوى مجموعة الأفراد الذين يشكلونه لكنه في نفس الوقت ليس هذه المجموعة من الأفراد. . أي أنك لو صففت الخمسة وعشرين أو الثلاثين مليوناً من الإيرانيين في خلاء فلن يشكلوا المجتمع الإيراني. . بل تكون مجموعة الأفراد الإيرانيين موجودين هناك، بل يتشكل المجتمع الإيراني في العلاقات المتبادلة الاجتماعية ذات العواطف والحساسيات والميول الخاصة. . وهي غير مجموع الملايين الخمسة وعشرين أو الثلاثين. (المؤلف).

(٢) المسيح هو المخلص، وإنما سمي عيسى بالمسيح لأنه مخلص اليهود، وليس المسيح اسماً خاصاً به، كما يعتبر بعضهم أن لفظ المهدي مشتق من مادة الهداية العربية، لكنه تعريب للمسيح.

سادت العدالة والسلام والرفاهية والحب ثم اختفت. . وظهر عهدٌ من الفساد والظلمة والظلم.

والثانية: أنها تؤمن بثورة عظمى وبمخلص في المستقبل وعودة إلى العصر الذهبي عصر النصر والعدالة والأخوة والقسط.

هذه هي عقيدة كل المجتمعات البشرية، وكما قلت: تعد تجلياً لغريزة المجتمع ذلك أن المجتمع موجود حي، والموجود الإنساني الحي منتظر، وإن لم يكن منتظراً فإنه لا يتحرك ويستسلم لكل ما هو موجود.

ومبدأ التبشير Messianisme يطرح في علم الاجتماع كمبحث عميق ومهم، وهو مبدأ اعتقاد المجتمع الإنساني بالمسيح أو المهدي، ومن هنا يقول لنا التاريخ: بأن المجتمعات مؤمنة دائماً بالانتظار الحاسم للحقيقة والعدالة وحرية البشرية في المستقبل، كما أن علم الاجتماع ـ متمثلاً في مبدأ التبشير ـ يؤمن أن كل مجتمع يحتوي في أصله على هذه العقيدة كرد فعل طبيعي وفطري لبنيته وذلك في تفسيرات مختلفة. ومن هذا المبدأ يستنبط في علم الإنسان مبدأ عام يسمى المستقبلية Futurisme وهو بمعنى أصالة المستقبل، والنزوع إلى المستقبل، والمستقبلية هي المدرسة والإيديولوجية والمذهب القائم على أساس المستقبل، والذي يسوق أتباعه دائماً إلى المستقبل، وتعد أكثر أنواع تفسير الإنسان للحياة وحركة الحياة تقدمية؛ لأنها تقف في مواجهة مبدأ المحافظة ومبدأ قبول الوضع الراهن Statu quo أياً كان والرؤية الكلاسيكية أي الميل إلى الماضي والرجعية والتقليدية. ويبين القرآن هذا المبدأ في الآية الكريمة:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[1] لقد نزلت هذه الآية في موقعة أحد، بعد أن أشاع المشركون أن الرسول قد قتل، وقال بعض الصحابة: الآن وقد قتل الرسول فلنرسل إلى عبد الله بن أبيّ ليتوسط لنا لدى أبي سفيان ويأخذ لنا الآمان.. وقال آخرون: لقد انتهت القضية ومن الأفضل أن نفرّ.. فانظروا إلى الفكر القرآني كم هو تقدمي إذ يقول: حتى أنتم يا أتباع رسول الإسلام، لا ينبغي أن تتوقفوا على شخص رسول الله.. إن عبادة الرسول ومبدئية الرسول ليست مطروحة، بل مبدئية مدرسته وفكرها وهدفها، وقيمة الرسول في أنه الدليل والمرشد في طريق ذلك الهدف، وعمله مثل بقية الرسل جاء وأدى الرسالة وأبدى الطريق ومضى، فإن مات أو قتل.. فهل تنقلبون على أعقابكم؟! وانقلبتم على أعقابكم أي سرتم القهقرى كالقردة؟! تقهقرتم، عدتم إلى الخلف؟!! الرجعية!! الميل إلى الماضي! تقدموا إلى الأمام ولو مات الرسول في داره أو قتل في أحد.. ينبغي عليكم أن تتقدموا، هذه حركة تقدمية.. عدم التوقف على الحاضر، عدم التوقف على الشخص، عدم تعلق القلب بالماضي والاتجاه إليه، السير باتجاه المستقبل.. وفي الأصل فإن الإيمان بالموعد ومبدأ الانتظار، وأي الميل والجنوح إلى المستقبل، التحرك نحو المستقبل الذي سوف يحدث حتماً.. والإنسان المنتظر ينتظر المستقبل أساساً.. وإلا فليس من المعقول أن ينتظر الإنسان الماضي، فالمنتظر آمل راجٍ، وكل من هو آمل فهو حي.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

٢ ـ الانتظار هو موقف التضاد بين مبدأين متناقضين أحدهما «الحقيقة، والآخر الواقعية». . فلنفرض أننا نؤمن بحقيقة ما ودين ما. . ونؤمن أن الدين على حق ويحقق للإنسان الخلاص والعدالة. . ولما كان حقاً والحقيقة منتصرة، وأن هذا الكتاب أفضل الكتب وهذا الرسول هو خير الرسل، وهذا الطريق هو الطريق الذي يسوق الإنسان إلى الكمال والخلاص، وهذه هي المبادىء العقائدية التي تؤمن بها والحقيقة التي يعتقد فيها. . لكن «الواقع» يبدو عكس هذا تماماً.

فنحن نؤمن أن القرآن نزل لخلاص البشرية والرسول بعث لتخليص الإنسان من الظلم والقهر والأرستقراطية وعبادة الدم والقومية والذل والاستضعاف والاستغلال ومكافحة الجهل والتخلف. ونؤمن بأن علياً وبنيه وأئمة الشيعة هم خلفاء الرسول وأن الإيمان بالتشيع هو ضمان لنجاة الإنسان وهداية. . لكن الواقع يبدو لنا خلاف هذه الحقيقة.

نرى أنه ما إن وضع جسد الرسول الطاهر في لحده. . حتى عاد إلينا نفس الحساء ونفس الكأس. . وقليلاً عاد ظهور النظام الذي كان مسيطراً على التاريخ، فلا الحقيقة ظلت باقية ولا العدالة، ولا البشرية حصلت على خلاصها، ولا الظلم انعدم ولا الانحراف ولا الخداع ولا الكذب. . في ذلك الوقت كانت تسيطر باسم كسرى وقيصر. . ثم أصبحت باسم خليفة الرسول. . فما الفرق؟! في ذلك الوقت كان الأمر أفضل على الأقل. . كان المرء يقول: جئت لأغزو. . على سبيل المثال عندما كان الإسكندر قادماً

إلى إيران كان يقول: إني ذاهب لأحرق تخت جمشيد وأغزو إيران وأقضي على الأسرة الأكمينية، وأجعل العرق المقدوني واليوناني حاكماً من مشرق العالم إلى مغربه.. وأمسك في قبضتي بكل سلطات العالم.. وكان ينفذ هذا، لكن في تاريخ الإسلام كان نفس قيصر ونفس كسرى.. يقول: لقد جئت حتى أقيم العدالة في الدنيا بدلاً من الظلم، وأحيي سنة الرسول وقوانين القرآن، لقد جئت من أجل الجهاد المقدس، لكنه كان يغير ويغزو.. أي فرق كان؟! أي انتصار حصل عليه؟! ومتى خلص القرآن جماهير الناس من وطأة الظلم، أو متى وفق عليّ في قيادة الناس ضد الظلم؟! لقد تجرع هو نفسه الهزيمة وتعرض للظلم؟! ومتى استطاعت الإمامة كنظام لقيادة المعصوم في خلافة رسول الله أن تجعل الإنسان متمتعاً بقيادة المعصوم بدلاً من القيادات النكالة؟! لقد قضى الأئمة نفسهم نحبهم في السجون!!.

إذن فنحن نرى أن الوضع الراهن أي الواقع الموجود في العالم المحيط بنا يناقض الحقيقة التي نؤمن بها في الإسلام.. ماذا نفعل؟! الإسلام يخلص الناس ويحقق العدالة والتقدم لكن الإسلام الواقع قد عمل خلافاً لهذا وتصرف على غير هذا الطريق!!

إن ما نؤمن به نعتبره حقاً وهو ضامن لعزة البشر ونجاتهم، لكن ما هو موجود لا هو خلص البشرية ولا أقام العدل والحرية على الأرض وفي المجتمع الإسلامي.

إن حقيقة (الإسلام) تجعل شعارها الوعي والعدالة والخلاص والحرية للناس وتضمنها، أما ما هو واقع فهو مضاد

للعدالة ومضاد للناس ومضاد للعلم والوعي. . فكيف نجمع هذين النقيضين معاً؟!!

ولو فرضنا أننا بشر قد عشنا خلال كل فترة الأربعمائة وألف سنة لتاريخ الإسلام فإننا نرى أن القرآن لم ينتصر في فترة واحدة من هذه المدة، وأن رسول الإسلام، لم ينتصر، وأن علياً لم ينتصر، وأن بنيه ورفاقه لم ينتصروا، وأن أبا ذر في نفس العصر الأول قد توفي منفياً في الربذة، ودفن فيها على يد أقرب صحابة رسول الله، ونحن المحرومين الذين كنا قبل الإسلام ضحايا للظلم والاستغلال والارستقراطية والجهل والفقر، ودخلنا الإسلام أملاً في الحرية والعزة والعدالة، تعرضنا بعد الإسلام أيضاً للنهب، وتعرضنا للتعذيب، وبقينا رهناً للجوع والظلم والتفرقة.

بالطبع لا بد وأن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان:

هل هزم الدين الذي جاء من أجل نجاة البشرية وإقامة العدالة العالمية؟! انتهى؟!! هل يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله ﷺ ومع كتاب هو أرقى كتب الوحي وأسماها، وبعثه من أجل نجاة البشرية وهو نفسه حدد خلفاءه من أجل هداية الناس. . لكنه انصرف في معمعة العمل. . وندم على ذلك الهدف الأساسي الذي هو تربية البشرية والعدالة ونجاة الإنسان والقضاء على الشيطان وفعل الشيطان في الأرض وانتصار الروح الإلهية في الإنسان والعدالة في التاريخ؟!!

لا : إن الله سبحانه وتعالى لم ينصرف عنا. . والرسول وأئمة الدين قاموا كما رأينا بواجبهم وعملهم. . لكن الزور كان متراكماً فلم يستطيعوا إتمام المسؤولية. . واختفوا جميعاً. . وكأن الذي حدث لا شيء!! أو أن هذا الدين وهذا الكتاب وهذا الرسول ربما جميعاً ليسوا على حق!! وإلا كيف يصح أن يكونوا مكلفين بهداية الناس ثم يهزمون؟!

لا يستطيع مسلم واحد أن يجيب على سؤال واحد من هذه الأسئلة بالإيجاب فالإسلام هو دين الله. . وقد نزل من أجل النجاة، لكننا نرى أنه لم يقدم هذه النجاة، إذن فلا محيص من أن أتباع الدين الذي يدعي خلاص الإنسان وسيادته والجماهير المحرومة، والقضاء على الظلم والجريمة، ويدعي إقامة نظام عالمي لصالح الإنسان، يعتقدون أن هذه هي الحقيقة وإن لم تستطع خلال أربعمائة وألف من السنين أن تلبس شعاراتها رداء العمل، لكنه سوف يفعل، وسوف ينتصر قطعاً، وسوف تقام العدالة حتماً، وعلى الرغم من هذا النظام المضاد للحقيقة والذي سيطر على الإسلام وسيطر أيضاً على التاريخ والألم الذي لا تزال البشرية تعانيه من الظلم وكل يوم يزداد، وسلطة الذهب والقوة مسيطرة على الحقيقة، وأيضاً على الرغم من هذه القوى الشيطانية والمضادة للإنسانية التي هي في حالة انتشار ويبدو أنها غير قابلة للزوال، سوف تنتصر الحقيقة حتماً على الواقع الباطل لكن المسيطر، ونحن منتظرون مثل هذا اليوم ومثل هذه الواقعة ومؤمنون به، ولما كان الله قد أعطى وعداً في القرآن بانتصار

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[١] وأن الجماهير المستضعفة سوف تصبح أئمة البشرية، وأنه سوف يهبهم الأرض.. وسوف يرث المحرومون أصحاب السلطة وأرباب الذهب.. ورأينا أن هذا كله لم يحدث.. لكن علينا ألا نشك في هذا الأمر، بالرغم من أن كل العوامل التاريخية والاجتماعية الموجودة تشهد بفناء جبهة الحق والضعف المتزايد لجبهة العدالة.

وهذا التضاد بين «الواقع الباطل المسيطر» و«الحقيقة المخلصة الواقعة تحت السيطرة» لا يستطيع أن يحله سوى «انتظار» الانتصار الحاسم الحتمي للحقيقة، اللهم إلا أن ننكر الحقيقة كلية ونقلع عن الطمع إلى الأبد في انتصار العدل والنجاة والحرية.

ها نحن أولاء نرى أن «الانتظار» ضربة ضد الواقع المسيطر على العالم، والمسيطر على التاريخ، وعلى الإسلام، والانتظار يعني أن نقول: «لا» لكل ما هو موجود.. ومن هو المنتظر؟! هو ذلك الذي يكمن في نفس انتظاره الاعتراض على الوضع الراهن، حتى الانتظار السلبي هو في حد ذاته اعتراض، حتى ولو كان اعتراضاً سلبياً، وعندما يقول حافظ: «لعلّ يداً تخرج من الغيب وتقوم بعمل ما»[٢]، فقد بين أنه غير راض عن الوضع الموجود،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٢) شطر من بيت للشاعر الفارسي المشهور حافظ الشيرازي (المتوفي أواخر القرن الثامن الهجري): المدينة خالية من العشاق، فلعله من ناحية ما، تخرج يدٌ من الغيب وتقوم بعمل ما (ديوان حافظ الشيرازي.. تحقيق انجوى الشيرازي ص٩٧ ط٥، ١٣٦٣هـ. ش.) المترجم.

وأنه لم يقبل ما هو موجود، وهو يبحث ـ أو على الأقل ـ يريد «تغيير الوضع». والانتظار إيمان بالمستقبل، ولازمته إنكار الحاضر، والراضي عن الحاضر ليس منتظراً إنه على العكس محافظ، يخاف من المستقبل، يهلع من كل حادث يحدث.. يجب «ألا يمس شيء» ويجاهد في ذلك!!

كان هناك أحد الطلاب من أقاربي جاء من «مزينان» إلى مشهد للدراسة، وفي صيف السنة التالية، كان شوق العودة إلى الوطن «أي مزينان» قد أشعل النار في ثوبه، وأخذ يعد الأيام والساعات على موعد تعطيل الدراسة والعودة إلى مزينان، ويتبدل الهجران إلى وصال، وينتقم من هذه الغربة الجافة الغريبة بلذة القرب من الأهل والمعارف والأنس بالحواري والبساتين والمواطنين، ورؤية العمة والخالة والعم وابنة العم، ومن أن أحداً لا يحس به هنا في مشهد ولا يهتم به أو بقيمته الفعلية.. يذهب وهناك ينظرون إليه بحسرة ولذة وتطلع ودهشة، ويقوم هو نفسه بعرض كل ما هو جديد لديه ليروا أن لهجته القروية قد تغيرت، وأنه صار حضريا، وأن عاداته وأوضاعه وسلوكه قد اختلفت اختلافاً شديداً، وأنه تعلم العربية وتفسير القرآن ويصعد المنبر، ويقرأ الأخبار الدينية، وأنه تفتح واشتهر في المدرسة العلمية، وأن كل أهل مشهد قد تعجبوا من تقدمه هذا وذكائه وعلمه، والخلاصة أن «هذا الملا كريم ليس ذاك الملا كريم» وصار كل العالم بالنسبة له بسمة أمل وبشرى، والحياة شبع وري لا يعتريها أدنى نقص، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وكان من ناحية أخرى رجلاً

شديد الإيمان متديناً. . وذات يوم مر علينا أثناء عودته من المدرسة كعادته ليتحدث بمتعة قائلاً: «إن شاء الله بعد أسبوع تنتهي الدروس. . ينبغي أن أحجز سفري هذه الأيام» وفجأة قال بلهجة شديدة الجدية وسحنة تبدو فيها علائم الخوف والاهتزاز «أخاف. . لا قدر الله. . أخاف أن يتفضل إمام الزمان. . عجل الله فرجه. . بالظهور فجأة خلال الأيام القليلة القادمة. . وحينذاك. . يبدو أنني لا أستطيع الذهاب إلى مزينان!!» والإنسان الذي أذنه على الباب وعينه على الطريق. . لا بد إنه لا يعلق القلب بالمنزل!! وإذا كنت أعيش في منزل ما، وانتظر الانتقال ذات يوم من هذا المنزل، أو في وضع معين أجاهد في تغييره وانتظر هذا، فهذا يعني أنني لست أقبل المنزل الذي أعيش فيه أو النظام الذي أحيا عليه. . إذ أكون معترضاً على ما هو أمامي وفوق كاهلي وفوق رأسي. . فالمعترض منتظر، والإنسان الذي يحب ما هو قائم وقد قبله وآمن به، لا ينتظر التغيير، إنه محافظ، يريد أن يحافظ عليه، المعترض هو الذي يحاول تدميره، سواءً كان ينتظر أحداً أو ينتظر حادثة، أو فرصة أو ظروفاً مساعدة، أو ينتظر معجزة.

وهذا ما يخالف ما يقوله بيكيت في مسرحيته: «في انتظار الجودو»[١] من أن الانتظار فكرة عبثية، إن الانتظار السلبي هو

---

(١) صمويل بيكيت كاتب مسرحي معاصر. . ومسرحية في انتظار الجودو نموذج لأدب العبث الذي يعد واحداً من رواده. . وبينما فهم شريعتي أن مسرح بيكيت يعبّر عن خواء الروح الأوروبية التي لم تعد في ذروة تقدمها المادي تنتظر شيئاً ذا قيمة. . فإن نقادنا الأفاضل في الستينات فسروها على أنها إنكار للألوهية. (المترجم).

الانتظار العبثي، وليته كان عبثياً فحسب، بل هو عامل لتخريب الإرادة البشرية، لكن الانتظار الإيجابي بمعنى الاعتراض على الوضع الموجود في ذهن الإنسان المنتظر وفي حياته وفي إيمانه، وإن فرطت الأمة المستعبدة في هذا الانتظار فسوف تقبل الاستعباد كمصير محتوم لها إلى الأبد، وإن لم تنتظر التغيير فإن ما حدث لحكم علي أو ما حدث في كربلاء يعد بالنسبة لها نهاية القصة. ولن يحدث رد فعل آخر في الطبيعة والتاريخ ووجود تاريخ البشر، وهذه العقيدة تخالف الإيمان بالحقيقة كما تخالف أيضاً مصلحة حياة الفرد في المجتمع والإنسان المسؤول. إن أنواع المظالم والجرائم والجور كلها قصة وحادثة لم تتم في تاريخ البشر، وهذه القصة سوف تنتهي لصالح العدالة والحقيقة ولخسارة الظلم والفساد والدنس.. هذه هي عقيدتي.

٣ ـ الانتظار حتمية تاريخية:

وهذه نقطة مثيرة للغاية بالنسبة للمفكرين الملمين بالمدارس والفلسفات العلمية التاريخية.. فأنا المنتظر في هذه الزاوية من الأرض وهذه اللحظة من التاريخ أنه في مستقبل يمكن أن يكون غداً، أو في أية لحظة أخرى قد تحدث فجأة ثورة على المستوى العالمي لصالح الحقيقة والعدالة والجماهير المظلومة، وعليَّ أن أكون ذا دور فيها، وهذه الثورة ليست بتلاوة الأدعية أو النفخ «بآيات القرآن» أو ما إلى ذلك، بل باللواء والسيف والدرع وجهاد عيني على مسؤولية البشر المؤمنين بها، وأؤمن بأن هذه الثورة سوف تنتصر بالطبع.. إذن فأنا مؤمن بأن هذه الثورة بالقطع سوف

تنتصر. . ومن ثم فأنا مؤمن بالحتمية التاريخية، لا بالمصادفة ولا بالفرقة أو التفسخ التاريخي.

ولا بد أن يتبادر هذا السؤال إلى ذهن كل إنسان وهو: كيف يمكن لإمام الزمان هذا الزعيم المخلص في آخر الزمان أن ينتصر على العالم؟! وللإمام الصادق هنا تبرير شديد العمق. . وهو اجتماعي تماماً وتاريخي، وهو أن قوى الظلم وأقطاب الجريمة سوف تتقاتل فيما بينها بحيث تهد قواها وتفقد مقاومتها تماماً، وحينذاك تستيقظون من جبن المعز ونوم الأرانب، ولما كنتم مسلحين بقوى الإيمان والوعي فسوف تنتصرون على هذه القوى التي تفتتت من الداخل واهترأت من الخارج، وهذا الانتصار قائم على أساس المنطق والواقعية والسنن الاجتماعية، السنن التي هي في الإسلام قوانين إلهية وليست قوانين مادية.

وعندما يريد الله أمراً يهيىء أسبابه أولاً، مثلما حدث عند انتصار الإسلام على الفرس والروم. وأنا هنا مؤمن بأن التاريخ يمضي نحو الانتصار الحتمي للعدالة والخلاص النهائي الحاسم للبشر والجماهير المظلومة، والقضاء الحتمي على الظلم والظالم.

والحتمية التاريخية التي هي أصل الفلسفة العلمية في القرن التاسع عشر، وهي أعظم رؤية وتفسير تاريخي بين المفكرين غير المسلمين في العالم، توجد في مدرستنا هذه برؤية أخرى.

تقول فلسفة الحتمية التاريخية: على الرغم مما نراه من أن العالم والتاريخ والحياة والنظم الاجتماعية لصالح الطبقة الحاكمة

ولصالح الرأسمالية. . وتمضي لصالح حفظة الرأسمالية وحراسها، والجماهير المحرومة ـ تلك التي تتعرض دائماً للنهب وضرب السياط والجوع ـ تستغل كل يوم أكثر، وتعتصر أكثر بين مخالب النظام الوحشي الفظ المسيطر عليها وعلى مصائرها، وأن هؤلاء يهزمون، وأولئك ينتصرون في جهات الصراع المختلفة. . ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1]، إن الجديرين بالبقاء هم الذين يحكمون. . وعلى الرغم من الدلائل التي تعتبر لصالح القوة ولضرر العدالة، لنفع الطبقة الحاكمة ولضرر الطبقة المحكومة. وعلى الرغم من أننا نرى المنحى يتجه نحو ضعف للجماهير المستغَلّة وقوة أكثر للجماعات المسيطرة على الناس، فإن التاريخ يتحرك على أساس الحتمية لا الذهب ولا القوة ولا سلطة هذا وذاك، وليس ألعوبة للأبطال والأقوياء والمحتالين الرأسماليين. . والتاريخ أيضاً مثل المجتمع ذو حياة مستقلة عن الأفراد. . التاريخ نهر يتحرك بشكل مستقل عن قطرات مائه والأسماك والحشرات والمخلوقات التي تسبح فيه، ويمر بمنازل ما إجباراً وبالتأكيد خلافاً لإرادة كل أولئك الذين تسيطر إرادتهم على مصائر الناس، ويصل في المستقبل إلى المنزل الأخير الذي حدد من أجله، حيث صحراء مستوية على وتيرة واحدة من المساواة العامة، هناك تختفي الطبقية ويتشكل المجتمع اللاطبقي، تختفي علاقة المستغل بالمستغل والتناقض بين أولئك الذين يأخذون ربح نقودهم وأولئك الذين لا يأخذون حتى أجر

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

سواعدهم، وهناك تكون الحياة من أجل الجميع والإمكانات من أجل الجميع. . تنتصر العدالة. . يختفي التناقض الطبقي ويتحقق المجتمع اللاطبقي الخيالي من الاستغلال ومن الذهب ومن الفضة عند الأفراد. . كيف؟! قطعاً وحتماً. . والإيمان بهذه الحتمية الحاسمة في أن التاريخ سوف ينتهي لصالح العدالة. . ينتهي مصير النوع البشري في لحظة لصالح انتصار المجتمع المشترك والحياة المشتركة للبشر، هو أعظم عامل يمنح المظلومين والمستغلين الطاقة والإيمان، ويجعلهم آملين بانتصار مصيرهم وطبقتهم وانفجار نظام الاستغلال الحاكم على عصرهم. وهذا الإيمان لا يجعلهم بلا مسؤولية وسلبيين وكسالى، لكنه على العكس تماماً يمنحهم الطاقة والقوة والثقة، ومثل هذا السلاح هو الذي يجعل أمل طلاب العدالة والمظلومين في المستقبل أكبر، ويجعلهم في هذا الطريق أكثر استعداداً وأكثر حركة.

وفي هذا الإيمان بالانتظار، فإن أولئك الذين يصبحون تحت ثقل الظلم والجور، وأولئك الذين يرون أن واقعهم هو أنهم ألعوبة في أيدي الظلمة، وأن دينهم قد صار وسيلة وأداة ضد الدين، فإنهم لا يصبحون قانطين، إنَّهم على ثقة من أن إرادة الله أيضاً هي الحتمية التاريخية، ونفس ذلك النظام والسنة التاريخية كقانون يبدو موجوداً في الطبيعة، وأنه يجري في التاريخ أيضاً لصالح انتصار مصيره وفكره وطريقته وخلاص نوعه وطبقته. ومن هنا فإن العوامل المضادة للتاريخ البشري وللعدالة، والخائنة لمصير البشرية المظلومة لا تستطيع أن تقاوم أو تترك أثراً أمام الحتمية التي أمضت أداتها وقوتها وأعلنت أيضاً انتصار الحقيقة والعدالة والناس.

إذن فنحن نرى أن الإيمان بالانتظار حتمية تاريخية، وهنا يبدو بجلاء الفرق بين التفاؤل التاريخي والتشاؤم التاريخي. . وأنا عندما أكون منتظراً بشكل سلبي، فإن رؤيتي للتاريخ تكون رؤية تشاؤمية؛ لأنني أعتقد أن نظام الحياة كامنٌ في استقرار الفساد وتقويته ونشره. لكني عندما أكون منتظراً بشكل إيجابي أكون متفائلاً بالتاريخ؛ لأني أؤمن أن النظام الحتمي للتاريخ هو في الانتظار الحاسم للعدالة، وهذا يثبت إلى أي مدى يتناقض الاعتقاد في الانتظار الإيجابي والاعتقاد في الانتظار السلبي.

يقول سان بول سيمون الكاتب الفرنسي الكبير: «من المؤسف أن الإنسان اليوم في الحياة الاستهلاكية الدنسة الضيقة الأفق العابدة الحاضر السائدة في الغرب، لا ينتظر أي شيء قط إلا المترو»!!

إن الانتظار يمنح البشر مستقبلية ونظرة عظيمة، لكن الناس اليوم في الحياة الاستهلاكية الدنسة قد فقدوا الانتظار ووقفوا فحسب لانتظار الحافلة!!

٤ ـ التواصل التاريخي ووحدته:

الانتظار كما يوجد في التشيع ذو ثلاث فترات تصل كل واحدة منها بالأخرى: الفترة الأولى: النبوة والثانية: الإمامة. . والثالثة: الغيبة وفيها لا وجود للنبوة كما لا توجد حكومة عينية للإمامة.

ومبدأ «نيابة الإمام» الذي تحدثت عنه على أساس أنه المبدأ

الجالب للانحطاط في منطلقه، هو في منطلقه الأصلي مبدأ تقدمي ويدل إلى أي مدى تتصل هذه الفترات ببعضها، ففي البداية فترة النبوة ثم الإمامة وهي تواصل واستمرار لفترة النبوة، ثم فترة العلم التي هي استمرار للإمامة.

ومن بداية البشرية حتى نهاية الزمان تستطيع فلسفة «الأنا» أن توجه مسيرة التاريخ البشري وتواصل الأحداث في تواصل جاري وعلمي ومنطقي.

والمنتظر هو أيضاً سواء من الناحية الفكرية، أما من الناحية العملية والمادية هو إنسان مستعد، المنتظر الذي كان عند الشيعة.. لا الموجود اليوم.. وأنا آسف؛ لأني أدافع عن شيء لا يمكن الدفاع عنه في صورته الحالية. انظروا إلى أي فوج في معسكر إذا كانوا ينتظرون إمكانية مجيء القائد في أية لحظة وينفخ نفير الحرب.. لما قاموا قط في أسرتهم بلعب الورق وشم الهيروويين والنعاس ورواية القصص والحكايات، وما شابه من هذه الأعمال، فهم في حالة تأهب، ينتظرون في كل لحظة نوعاً من الجهاد.. وأذنهم في انتظار سماع أمر ما.

ومن هنا فالمنتظر ليس إنساناً «مضعضعاً» و«مستهلكاً» و«وتيرياً» كما هو الآن.. إنه إنسان متأهب. وفي نفس الوقت قرأنا هذا، في فترة سابقة، كان رجال الدين وأئمة الجمعة (لا الإقطاعيين وغلاظ الرقاب) هم الذين يصطحبون الشباب كل جمعة ليعلموهم الرماية وركوب الخيل، وكانوا يشتركون في صلاة الجمعة وقد تسلحوا وتمنطقوا بسيوفهم.

إذاً فنحن نرى أن المنتظر إنسان متسعدّ، فمن المحتمل في أية لحظة أن ينفخ في نفير الثورة النهائية، وهو نفسه مسؤول عن المشاركة في هذا الجهاد الذي سوف يبدأ قطعاً على أساس من القوانين الحتمية الإلهية، وهو مستعد تلقائياً، وملتزم، ومسلح. وكل شيعي يضع رأسه على فراشه آملاً في سماع صوت الإمام.

مناقشة عدد من الأسئلة:

لماذا ينبغي في التشيع أن يكون المخلص هو ابن الإمام الحسن العسكري؟!

لا شأن لي بتلك المباحث الكلامية، لكنني أقول كعالم اجتماع: لو لم يكن هذا القيد موجوداً بشأن المخلص في المذهب الشيعي وأن يكون إبن الإمام الحسن، ولو لم يكن الشخص محدداً، فإنه من الممكن لكل محتال، أو نصاب أو مغامر مدسوس من الاستعمار أو مولود من الاستبداد أو عميل للاستغلال، أن يقدم نفسه كموعود التاريخ وموعود الأمم ومنفذ الحق والعدالة. ويستعين بكل قوى المنتظرين من أجل الركوب على كواهل الخلق، كما فعل الكثيرون بالتأويلات والمغالطات.. أوغسطس التاسع مثلاً عندما كان اليهود في انتظار المسيح، وكانوا يخرجون دائماً من المدن لاستقباله.. جاء إليهم وقال: أنا من تنتظرونه.. وكان من ألقاب أوغسطس التاسع «المسيح». ثم في القرن التاسع عشر رأينا أنه في خلال سبع سنوات، في المنطقة ما بين شمال أفريقيا حتى الخليج الفارسي، «قب» سبعة عشر مهدي، وبين

سنوات ١٨٦٠ و١٨٧٠م عندما كانت حركة العدالة والتحرر والنضال العمالي قد بدأت في فرنسا وألمانيا وإنجلترا. . كان الذي حدث في كل الدول الإسلامية من حدود الصين وشمال أفريقيا وغربها حتى إيران هو القيام «بصناعة إمام الزمان»!!

ومن هنا فعندما يقيد المخلص القائد بهذا الشرط، وهو أن يكون عربياً ومن قريش ومن بني هاشم ومن أحفاد الرسول ومن وَالِدَيْن مُحَدَّدَيْن، واسمه ولقبه وكنيته كلها أمور محددة، فإنه يسد الطريق أمام كل إدعاء كاذب ويصير باعثاً على أنهم لا يستطيعون أن يلعبوا دوراً، اللّهم إلا بصفة مؤقتة، ومغامرة من مغامرات التاريخ. ولا يصح أن يوفق ميرزا علي محمد وميرزا حسين علي نفسيهما من هذه الشروط[1]، وفي الدول الإسلامية ـ التي ليس فيها مثل هذا الشرط كما هو عند الشيعة[2]، قام عدد من المتفلسفين المتلاعبين بالألقاب وصناع شجرات الأنساب المحترفين بصنع سحنة مهدي منتظر لديكتاتوريين وسلاطين من أمثال أتاتورك وفؤاد الأول. .

والأهم أن هذا الشرط جزء من التوجه الفلسفي لمدرستنا ورؤيتنا يريد أن يثبت وجود التواصل المستمر منذ آدم وهابيل حتى آخر الزمان في مهمة واحدة بقيادة الرسل والأئمة أمام الجماهير المظلومة في مواجهة نظم الظلم والقوة والخداع.

---

(١) ميرزا محمد علي والباب وميرزا حسين علي هو البهاء وكلاهما ادعى في البداية أنه باب الإمام ثم ادعى أنه المهدي. (المترجم).

(٢) شرط أن المهدي ينبغي أن يكون من نسل الرسول موجود في كل مذاهب الإسلام. . (المترجم).

إن تاريخ المطالبة بالعدالة تيار مستمر، ليس حوادث متفرقة بحيث يظهر سبارتاكوس على سبيل المثال فجأة، ويهب إبراهيم دفعة واحدة لتحطيم الأصنام، وفي لحظة تحدث الثورة والنجاة من الأسر بقيادة موسى ضد فرعون، ومن مكان ما تحدث المصادفة التاريخية بأن يقوم رسول الإسلام بالاشتباك مع أصحاب العبيد وتجار قريش والامبراطوريات الباغية، ومن ثم يمكن أيضاً أن تحدث أحداث متفرقة بين الفينة والفينة من هذا القبيل أو لا تحدث، وتنتصر أو لا تنتصر!!

والنضال من أجل الحرية والعدالة يشبه نهراً يجري في مجرى الزمان، هناك إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي والحسن والحسين، وهكذا دواليك حتى آخر الزمان ـ لتحظى هذه الحركة بالنصر العالمي والإيمان بأن المخلص النهائي لتاريخ البشر، هو استمرار لأئمة الشيعة والإمام الثاني عشر، بمعنى أن تلك الثورة العالمية والنصر النهائي هو نتيجة لحركة عظمى في المطالبة بالعدالة ضد الظلم المسيطر على الدنيا، وعلى مر الزمان.. هي الحركة التي قادتها النبوة في فترة من الفترات، وبعد ختم النبوة قادتها الإمامة، ثم وفي الفترة الطويلة للغيبة قادها العلم.

لماذا درع الرسول؟!

ثانية تواصل التاريخ أن مخلص الإنسان ومثبت نظام العدالة في العالم يرتدي درع الرسول؛ لأنه هو الذي يواصل طريق الرسول.

لماذا لواء بدر؟!

إنه يحمل لواء بدر ليبين أن الحركة والحرب التي تبدأ في نهاية التاريخ من أجل إقرار العدالة والحقيقة مساوية لموقعة بدر التي بدأ بها الإسلام من أجل استقرار الشريعة والحقيقة. وكما أن حركة الثورة قامت في بدر بإجراء أول انتصار للإسلام، فإن هذه الثورة أيضاً التي هي أيضاً حركة عدالة هي بدر الثانية.. وسوف تنتهي بالانتصار العظيم للعدالة على المستوى العالمي.. وهذه الثورة متصلة بتلك الحركة وليست من الأمور الحادثة.. هي حرب بين جبهتين.

لماذا ثلاثة عشر وثلاثمائة شخصاً؟!

لأن المجاهدين الذين أحرزوا النصر العظيم في بدر، وهزموا الشرك لأول مرة والجريمة والارستقراطية كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة شخصاً.. وأولئك الذين سوف يقومون أيضاً عند أول نداء لدعوة الإمام سوف يكونون ثلاثة عشر وثلاثمائة شخصاً.. فهذه الثورة هي النتيجة النهائية لهذا الجهاد، وهي الانتصار النهائي لأولئك المجاهدين.. أي أن «بدراً» لم تكن موقعة مؤقتة في الماضي تضيع فيما بعد في التاريخ.. وينقطع تواصلها.. ويضيع ذلك النصر في الهزائم التي حدثت فيما بعد!!

لماذا سيف علي؟! ولماذا يكون المركز في الكوفة؟!

إنه يمسك في يده بسيف علي حتى لا يظن الشيعة والمؤمنون

بعلي، والمؤمنون بالحرية والحقيقة أن علياً قد قتل في الكوفة، وأن ذلك الدم قد سفك هدراً.. وكل شيء انتهى.. فإن التاريخ يحيي هذا الدم في النهاية، وعليّ ـ أي تلك الحقيقة التي هزمت في ذلك المكان ـ سوف ينتصر مرة ثانية، وتلك الثورة التي حدثت دنيوية ونهائية، حقيقة أن الظلم والأرستقراطية والجهل قد هزموها في الكوفة، لكن ليس إلى الأبد، لقد انتصر الاستبداد على الحرية ولكن ليس إلى الأبد، أي أن البشرية سوف تصل إلى حكم علي، وسيعود علي مرة ثانية إلى التاريخ، على الرغم من حكومة التدين الجاهل والتعصب الجاهل وخيانة طلاب الجاه، وقوة أعداء الناس.. سوف يعود.. ويبحث عن الإنسان[١].

والدجال؟!، إن ما يروى عن الدجال في الأخبار والأحاديث الإسلامية تصوره تماماً مثل صورة بطل بيكاسو في اللوحة المشهورة: إنسان أعور ذو عين واحدة في وسط جبهته، كأنه باصطلاح ماركوز «إنسان ذو بعد واحد»، والنظام الدنس المسيطر على عالمنا هو نظام ذو بعد واحد، ينظر إلى الإنسان بعين واحدة، والإنسان الذي مسخ في هذا النظام ينظر أيضاً إلى العالم والحياة بعين واحدة.. بل بالعين اليسرى (اليسرى بالفارسية تعني أيضاً مقلوب)، هذا الدجال هو مشعوذ الأذهان وماسخ الإنسان، الدجال هو مظهر النظام الثقافي والروحي المضاد للإنسانية والمسيطر على الإنسان في آخر الزمان!!

(١) الدجال أيضاً هو حلو الحديث سيىء الفعل.. المنافق.. الذي يتخذ الإسلام وسيلة للوصول إلى أطماعه (!!) المترجم.

والسفياني؟!

إن النظام المضاد لهذه الحركة هو نظام منسوب لأبي سفيان، هو النظام السياسي المسيطر على الإنسان عن طريق الأغلال في الأعناق، وسيف علي هو الذي سوف يرتفع ثانية في التاريخ في آخر الزمان ضد هذين النظامين: خداع الأفكار ووضع الأغلال حول الأعناق والرؤوس، والسفياني الذي يحاول قمع هذه الحركة مظهر لتواصل تاريخي ووراثة قديمة للظلم على مر الزمان. . كما أن المهدي المنتظر هو وارث حركة العدل على مر الزمان!!

لماذا يكون المسيح في ركاب الإمام بعد الرجعة؟!

أي أن كل قادة العدالة والحقيقة وأئمتها سوف يعودون. . (لا أريد أن أثبت كيف سيعودون وبأي شكل؛ لأنها من القضايا العلمية والكلامية وبحاجة إلى بحث)، وهذا يعني أن النظام المستعْبَد في التاريخ أي نظام الحقيقة وقادة الحرية والعدالة الإنسانية الذين هزموا بسيف الظلم والبهتان، ولم يستطيعوا الحصول على قيادة العالم والإنسانية. . سوف يبعثون بعد تلك الثورة العالمية وفناء النظم السفيانية و«الدجالية»، فإن للباطل جولة وللحق دولة. والإيمان بالانتظار هو الإيمان بأن وعد الله الوارد في القرآن للمسلمين، والمثل الأسمى لكل إنسان مظلوم، وأمل كل الجماهير المحرومة سوف يتحقق، وأن المجتمع اللاطبقي، الخالي من الظلم والتزوير، والمجتمع الذي يسيطر فيه الإنسان والعدالة والقسط والحقيقة إلى الأبد. ولن يصير أبداً ألعوبة في أيدي الظلمة

والمحتالين، وسوف ينتصر بالرغم من كل عوامل القوة والعمال الأقوياء للفساد والظلم.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

والاستضعاف أعم من الاستبداد والاستعمار والاستغلال والاستحمار.. فهو يعني أن طبقة كاملة تقع في المسكنة على يد الاستبداد، وهذا هو الاستضعاف السياسي، وطبقة تتعرض لاستغلال عن طريق النهب واختطاف الثروة، وهذا استضعاف اقتصادي، وأشخاص من ذوي الفكر والتفكير والتعقل يستحمرون على أيدي القوى المستحمرة التي تمثل البنية التحتية للاسبداد والاستغلال، وهذا هو الاستضعاف العقلي والشعوري والعاطفي.

لكن كل هذه الجماهير التي كانت مستضعفة على مر التاريخ، والتي كانت معرضة على الدوام لسياط الظلم أو نظم الاستغلال أو سحر الخداع في كل النظم المسيطرة على مصائرهم، ويئسوا من الخلاص، ورأوا في أنفسهم عدم القدرة على القضاء على أمثال هذه النظم المهولة المرعبة.. هذه هي بشرى الله تخاطب هذه الطبقة في الدنيا، وتعلن الخلاص الحاسم للإنسان المحكوم، والزوال الحتمي للقوى الغاصبة المسيطرة على الأرض:

(١) سورة القصص، الآية: ٥.

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، وتعرضوا لأسر الاستضعاف الفكري أو السياسي أو الاقتصادي. . وأخذوا في الأرض بالذلة والعجز، نريد أن نمن عليهم ونجعلهم أئمة البشر وورثة الأرض».

لا يقول «ننجي هذه الطبقة المسكينة والضعيفة من أثقال الظلم، بل يقول: نعطيهم القيادة. . ونجعلهم على رأس الأمر حتى يقع حكم البشر في أيدي الناس «الطبقة المستضعفة في التاريخ» نجعلهم أئمة. . نجعلهم زعماء الأرض وقادتها، نجعلهم ورثة التاريخ. . ورثة ذلك الذي كان طوال التاريخ في الحياة وفي الأرض حكراً على القوى الغاصبة[١].

(١) الذين استضعفوا في الأرض تعادل تماماً Les Damnés de la terre عنوان الكتاب القيم جداً لفرانز فانون والذي ترجمته تحت عنوان «المنبوذون في الأرض» يقول جان بول سارتر في مقدمته بتعبير المستعمرين: «في فترة قليلة سابقة كان سكان الأرض يقسمون إلى خمسمائة مليون إنسان ومليار وخمسمائة مليون «محلي» وهؤلاء المليار وخمسمائة مليون محلي المحرومون من إطلاق اسم الإنسان عليهم هم سكان العالم الثالث آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية. . لأن كون المرء إنساناً مرادفاً لكونه غربياً. . هؤلاء بتعبير فانون ملعونون ومنبوذون في الأرض. . واللعن والنبذ مصطلح ديني متعلق بالقيامة ويوم تحديد المصير الأبدي للبشر حيث يقسمون إلى قسمين: قسم المخلصين الناجين وقسم الملعونين والمنبوذين والمحكوم عليهم بالعذاب والنار والحياة الجهنمية عقاباً لهم على ضعفهم. . فهؤلاء في جهنم أوطانهم ـ عالم جوعهم وتعذيبهم وذلتهم وضعفهم العالم الثالث ـ محليون ومقضي عليهم بمصيرهم المشؤوم في مواجهة أهل جنة الأرض، في جنات أوطانهم عالم المتعة والرفاهية واللذة التي هي جزاء كونهم أقوياء، فهم بشر مسيطرون على مصائرهم السعيدة. (المؤلف).

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[١].

الصالحون قولاً.. والصالحون فعلاً.. والصالحون فكراً!! وهكذا نرى أن الانتظار بشري، عاملٌ للتفاؤل التاريخي، عامل تبرير وراثة النضال، التواصل التاريخي، الحتمية التاريخية، الإيمان بالعدالة، وانتصار الحقيقة، الإيمان بالفناء الحتمي للظلم والجور والدنس في مصير الإنسان. والإيمان بأن تاريخ خلاص النوع الإنساني على وجه هذه الأرض وفي هذه الحياة وقبل الموت، لا في القيامة وبعد الموت.. وأن هذا التاريخ سوف ينتهي بانتصار المظلومين وفناء الظالمين!!

والمنتظر، إنسان مسلم ملتزم، هو في كل لحظة في بانتظار الانفجار الحاسم والنهائي للنظم المعادية للإنسان، ويعد نفسه للمشاركة في هذه الثورة العالمية وفي «بدر» الثانية التي ستقوم بدرع الرسول وسيف عليّ وعلى يد إبن الرسول وعلي. ومن هنا فالانتظار هو مذهب الاعتراض للنظام الحاكم والوضع الراهن والرفض المطلق لهما.. في أي شكل كانا.. إن الانتظار لا يمكن أن يوصف بأنه يقوم بسلب المسؤولية من الإنسان، بل إنه يجعل مسؤوليته في مصيره ومصير الحقيقة ومصير الإنسان قوياً وفورياً ومنطقياً وحيوياً.

ومذهب الانتظار وهو فلسفة إيجابية للتاريخ، حتمية تاريخية، تفاؤل فلسفي، عامل فكري وروحي محرك وملزم وصانع

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

للمسؤولية. وفي النهاية هو فلسفة اعتراض على الوضع الراهن، ورفض القيم والنظم الحاكمة على مر القرون.. وقد صار الآن فلسفة سلبية تشاؤمية.. للتسليم والرضا.. وهذا يثبت المبدأ القائل: إنه عندما ينحط مجتمع ما.. وتسود رؤية أتباع فكر منحرف، فإن الفكر التقدمي والمذهب المنطقي المتحرك والبناء أيضاً يجد دوراً منحطاً وسلبياً وتحذيرياً.. وهذه هي المأساة في مجتمع المسلمين عموماً وفي مجتمع الشيعة خصوصاً.

ملاحظة هامة:

الطبعة الفارسية لهذا الكتاب تتضمن بحث «الشهادة» ولما كنا قد نشرنا هذا البحث بكتاب مستقل عام ٢٠٠١م آثرنا عدم نشره هنا، لذا اقتضى التنويه. (الناشر).

الفهرس

سري جداً ٥
شريعتي في آراء المفكرين ٧
في متاريس (تل مسعود) / الدكتور الشهيد مصطفى شمران ٩
ملامح الدكتور شريعتي/ الأستاذ فخر الدين الحجازي ١٢
لو كان شريعتي حياً/ السيد محمود دعائي ٢٦
مقدمة المترجم ٣٩
مقدمة ٦٣
وراثة آدم ٦٩
ستارة من الدم تنسدل أمام عيني ٩٦
كانت ليلة عاشوراء. . عاشوراء عام . . ٤٩ .... ١٠٣
ليلة عاشوراء ١٥١
الإمام الصادق ١٥١
المدائن ١٥٧
ضجيج دجلة والفرات ـ الأخير ـ يطرق مسامع النيل ١٦٧

الثأر ٢٢١
بعد الشهادة ٢٣٨
الشهادة خطاب أحمر لكل الأجيال ٢٣٨
النظرة الشيعية للتاريخ ٢٥٣
تشيع أبي ذر وتشيع أبي سفيان ٢٥٤
قصة كربلا تجسيد للتشيع ٢٦٣
البكاء الواعي على الحسين عليه السلام ٢٦٥
الشيعة وحتمية التاريخ ٢٦٧
عودة إلى ثورة الحسين عليه السلام ٢٧٠
بحث حول الشهيد ٢٩١
الشهادة الحمزوية والشهادة الحسينية ٢٩٩
الفرق بين الجهاد والشهادة ٣٠٠
«الجهاد عزاً للإسلام» ٣٠٠
«والشهادة استظهاراً على المجاحدات» ٣٠١
شهادة الأمة ٣٠٣
شهادة المجاهد وشهادة الشهيد ٣٠٥
الانتظار. مذهب الاعتراض ٣١٣
الفرو المقلوب ٣١٣
القطبان المتناقضان ٣١٦

قضية الانتظار من وجهة نظر الفئات العقائدية الثلاثة ٣١٧
الانتظار الإيجابي ٣٥٤
بالطبع لا بد وأن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: ٣٦٠
الانتظار حتمية تاريخية ٣٦٥
التواصل التاريخي ووحدته ٣٦٩
مناقشة عدد من الأسئلة ٣٧١
لماذا درع الرسول؟! ٣٧٤
لماذا لواء بدر؟! ٣٧٤
لماذا ثلاثة عشر وثلاثمائة شخصاً؟! ٣٧٤
لماذا سيف علي؟! ولماذا يكون المركز في الكوفة؟! ٣٧٥
السفياني؟! ٣٧٦
لماذا يكون المسيح في ركاب الإمام بعد الرجعة؟! ٣٧٦